

محاضرات
تاريخ الأمم الإسلامية

الجزء الأول

تأليف المرحوم
الشيخ محمد الخضري بك المفتش بوزارة المعارف
ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية

﴿ الطبعة الثالثة ﴾

تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

مطبعة مصطفى محمد
صاحب المكتبة التجارية بشارع محمد علي بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فقد عهد إلى مجلس ادارة الجامعة المصرية أن أقوم بالقاء محاضرات على طلابها في تاريخ الأمم الاسلامية فقمت بما عهد الى به على قدر ما منحت في العزيمة والوقت ، وقد رأت ادارة الجامعة أن تجمع هذه المحاضرات وتخرج للناس حتى يكون النفع بها عاما فبذلت الجهد في تحريرها وتهذيبها حتى يسهل على قرائها الاستفادة منها ، وهاهي ذي تعرض على المؤرخين ورجال العلم ، وارجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى وهي صعوبة استفادة التاريخ العربي من كتبه

هذا وانى أعلن شكرى الوافر وثنائي العظيم على مجلس ادارة الجامعة لما نلته من ثقته حتى اعتمد على في أداء هذه المهمة وأخص بثنائي واخلاصى رجل الهمة والعزيمة الامير الجليل (١) أحمد فؤاد باشا رئيس ادارة الجامعة الذى بثاقب نظره وقوة عزيمته أزهر هذا المعهد العظيم وأينعت ثمراته ونراه كل يوم يخطو الى الامام فأسأل الله سبحانه أن يوفقه ويسدده فى القول والعمل انه نعم المجيب

محمد الخضرى

---

(١) نودى بجلالته ملكا على مصر فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ سدد الله خطاه وابقاه ذخرا لمصر خاصة وللاسلام عامة وأقر عينه بولى عهد المحبوب سمو الامير فاروق

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الأولى

في التاريخ الاسلامي

مباحث التاريخ الاسلامى — مايلزم المؤرخ — جزيرة العرب

ووصفها — شعب قحطان ومقاماته

اذا ذكر الاسلام اتجهت النفس الى ذلك الدين الذى جاء به سيدنا محمد ابن عبد الله بن عبدالمطلب فأصلح به من شأن الشعوب العربية وألف بين قلوبها وهيأها لان تسيح الي ما جاورها من الاقاليم وتؤسس سلطانا واسعا يرتكز على دعامة ذلك الدين . فمؤرخ الاسلام يرجع بحثه الى ثلاثة أمور يستتبع بعضها بعضاً الاول — الدين الاسلامي وكيف تأسست قواعده وتقررت مبادئه والمصاعب التى وقفت فى طريقه حتى غلبها الثبات والصبر

الثاني — تأثيره في النفوس العربية حتى استعدت لبسط سلطانها على ماجاورها من الاقاليم وما كان منها في سبيل ذلك من الحروب والاعمال حتى عظم قدرها واتسع سلطانها منقادا الى سلطان الدين

الثالث — ما كان من انتقال هذا السلطان عن الامم العربية الى غيرها من الامم التى دانت بالاسلام وما كان للدين من التأثير في قيام دولة وسقوط أخرى وفي حضارة الامم التابعة لسلطانه

ولما كان مهدهذا الدين هو بلاد العرب ومحل التأثر به لاول مرة هم العرب لم يكن لنا بدمن ذكر مقدمة اجمالية في تخطيط بلاد العرب وذكر الشعوب العربية وحالهم قبل مجيء الاسلام لتكون امامنا منهم صورة تفهمنا مقدار استعدادهم للتأثر بذلك الدين : الا انا سنقدم كلمة صغيرة فى أول واجب على من يدرس تاريخ أمة أو فرد . كثير ممن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكم فى حوادثه تحكما تضيع به الفائدة من دراسة التاريخ فان عاطفة الحب تجعل كل ماليس بحسن حسنا وتجتهد فى تأويل الحوادث بوجه ليس فيه غضاضة حتى ماأدى منها الى سقوط فاعله وخيبته . وعاطفة الكراهة تدعو الى ضد ذلك فتجعل الحسن قبيحا وتستنبط من الخير شرا ولم يخلص من هذا الشر العظيم الذى يطمس معالم التاريخ ويضيع الفائدة من تجارب الامم الا نفر قليل جدا . واذا نظرنا الى انفسنا نجدها لا نحكم على شيء من الحوادث التي تشعر بها حكما بحسب ماتستحق فرب فعل صدر ممن نحبه فنحمله محملا حسنا جميلا ، والفعل نفسه يصدر ممن نبغضه فنحمله على أسوأ محامله : نحكم علي متصدق بالتبذير لانه تذكر الفقراء والمعوزين فى حال رغده ولا نأبه بتلك الصدقة من آخر ، بل نسمه بأنه مراء يحب الشهرة الكاذبة : والتجرد من هذه العواطف في دراسة التاريخ أمر صعب المنال لا يصل اليه الانسان الا بعد عقبات شديدة لا بد له من اجتيازها ان كان المراد تمثيل الامم والحكومات بما كانت عليه لا بما تحب أن يكون

فلا بد أن نجعل أمام اعيننا أنا سندرس تاريخ أمم ان كانت أخطأت فى بعض تصرفاتها فليس علينا من تبعة ذلك الخطأ شيء ، وليس لنا الا ان نعرفه

ونستفيد منه وان كانت أصابت المحجة فان ذلك لا ينفعنا اذا لم يكن لنا مثل أعمالهم لذلك يحتاج دارس التاريخ الى سعة صدر تحتمل كل مايرد على تاريخ قومه من نقد حتي لاتبقى حقائق الاشياء محجوبة بسحب عاطفتى الحب والبغض

جزيرة العرب

يطلق العرب على قطعة الارض التي نشأوا فيها جزيرة العرب مع انها لم تتم احاطتها بالماء كما قال ياقوت (١) في معجم البلدان نقلا عن هشام (٢) بن محمد السائب عن ابن عباس (٣) انما سميت بلاد العرب جزيرة لاحاطة الانهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها فى مثال الجزيرة من جزائر البحر وذلك أن الفرات (٤) أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين (٥) ثم انحط على اطراف الجزيرة وسواد العراق حتى وقع بناحية البصرة (٦) والابلة (٧)

---

(١) هو ياقوت بن عبد الله الحموي الرومى الاصل أسر من بلاده صغيراً فتعلم ببغداد ساح سياحات مهمة وألف كتبا نافعة فى التاريخ والتقويم منها معجم البلدان ومعجم الشعراء ومعجم الادباء وغير ذلك من الكتب المفيدة وكان ثقة فى النقل توفى سنة ٦٢٦ بظاهر مدينة حلب

(٢) نسابة عربي له كتاب الجمهرة فى النسب وله مصنفات كثيرة كلها فى أخبار العرب توفى سنة ٢٠٤ (٣) هو عبدالله بن عباس بن عبد المطلب جد الملوك من بني العباس من فقهاء الصحابة الممتازين بتفسير القرآن توفى فى خلافة ابن الزبير سنة ٦٨ (٤) نهر عظيم ينبع من بلاد أرمينية ويمر على كثير من المدن العظيمة حتى اذا قارب البصرة أتحد بدجلة وصبا معا في خليج عمان من بحر الهند (٥) قنسرين مدينة جنوبى حلب وكانت اسما لكورة عظيمة من ضمنها مدينة حلب فتحت سنة ١٧هـ (٦) مدينة عظيمة على مجتمع دجلة والفرات قريبا من المصب فى خليج عمان مصرت أيام عمر بن الخطاب سنة ١٤ هـ (٧) بلدة على شاطىء النهرين فى زاوية الخليج الذي يدخل مدينة البصرة

وامتد الى عبادان [1] وأخذ البحر في ذاك الموضوع مغرباً مطيفا ببلاد العرب منعطفا عليها فأتى منها على سفوان [2] وكاظمة [3] الى القطيف [4] وهجر [5] وأسياف البحرين [6] وقطر [7] وعمان [8] والشحر [9] ومال منه عنق الى حضرموت [10] وناحية أبين [11] وانعطف مغرباً منصبا الى دهلك [12] واستطال ذاك العنق فطعن فى تهائم اليمن بلاد فرسان [13] وحكم [14] والاشعريين [15] وعك [16] ومضى الى جدة [17]

---

(١) مدينة في الجزيرة المتكونة عند مصب دجلة فى خليج عمان منسوبة الى عباد بن الحصين. وكثيراً ما ينسب اهل البصرة باضافة ألف ونون الى آخر المنسوب اليه (٢) ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة وهو أول منزلة بجادة البصرة الى البحرين (٣) جو على سيف البحر وهى المنزلة الثانية في جادة البصرة الى البحرين (٤) مدينة بالبحرين وهي قصبتها (٥) مدينة بالبحرين وقيل وهى اسم كورة من كور البحرين قصبتها الصفا (٦) اسم جامع لبلاد على ساحل خليج بين البصرة وعمان وكانت هي وعمان في أيام بنى العباس عملا واحدا وسيف البحر ساحله (٧) قرية على سيف الخط بين عمان والعقير وهذه بحذاء هجر (٨) كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند وتنتهي الى البحرين وقصبتها مدينة صحار (٩) صقع على ساحل بحر الهند بين حضرموت وعمان (١٠) ناحية واسعة فى شرقى عدن وحولها رمال الاحقاف ومدينتها الكبرى شبام (١١) مخلاف باليمن منه عدن (١٢) جزيرة فى بحر اليمن وهو مرسى بين بلاد اليمن والحبشة وكانت منفى فى زمن بنى امية (١٣) جزيرة من جزائر اليمن بالقرب من ساحله الجنوبى (١٤) قبيلة قحطانية تنسب الى حكم بن سعد من قضاعة ثم من حمير ينسب اليهم أبو نواس الحكمي (١٥) قبيلة قحطانية تنسب الى الاشعر بن ادد من كهلان بن سبا ينسب اليها أبو موسى الاشعرى (١٦) قبيلة قحطانية تنسب الى عك بن عدنان من الازد ثم من كهلان (١٧) فرضة على ساحل بحر القلزم بينها وبين مكة مرحلة

ساحل مكة والجار (١) ساحل المدينة ثم ساحل الطور (٢) وخليج ايلة (٣) وساحل رايه (٤) حتي بلغ قلزم (٥) مصر وخالط بلادها وأقبل النيل فى غربى هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلا معارضا للبحر حتى دفع في بحر مصر والشام ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين (٦) فمر بعسقلان وسواحلها وأتى صور (٧) ثم وسواحل الاردن (٨) وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ الى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتي خالط الناحية التى اقبل منها الفرات منحطا على اطراف قنسرين والجزيرة (٩) الى سواد العراق

وهذا التحديد وان كان يسهل علينا فهم تسمية البلاد العربية بالجزيرة يقتضي ان ولايات الشام كلها معدودة من جزيرة العرب وهذا غير مرضى عند المؤرخين فانهم يحدون بلاد العرب من الشمال بالجزيرة وبلاد الشام

---

(١) فرضة على ساحل بحر القلزم وهى جنوبى ينبع (٢) شبه جزيرة في شمالى خليج القلزم وهى كورة مصر (٣) مدينة على ساحل بحر القلزم وهى آخر حدود الحجاز وكانت منزلة للجادة بين مصر ومكة (٤) كورة من كور مصر البحرية (٥) مدينة كانت علي منتهى الخليج المبتدىء من المندب وبها سمي الخليج والمسافة بينها وبين الفرما التى كانت على بحر الروم مقدار القناة والاولى فى مكان السويس والثانية فى مكان بور سعيد (٦) آخر كورة من كور الشام من ناحية مصر قصبتها البيت المقدس ومن مرافئها يافا ولها من ناحية مصر رفح وهو الحد بين مصر والشام ومن موانئها عسقلان (٧) مدينة من أعمال الاردن على ساحل بحر الروم بينها وبين عكة ستة فراسخ (٨) كورة من كور الشام منها طبرية وصور وعكة وما بين ذلك والاردن نهر يصب فى بحيرة طبرية (٩) وهي الجزيرة بين دجلة والفرات وتسمى جزيرة أقور

وفلسطين فهذان خارجان عنها وان كان العرب قد سكنوا قبل الاسلام جزءا مهما من بلاد سوريا كما سكنوا اجزاء من الجزيرة وعلى ذلك لا بد من القول ان هناك تسامحا في اطلاق لفظ الجزيرة في البلاد العربية

أقسام الجزيرة الطبيعية :

قسم العرب جزيرتهم الى خمسة أقسام بحسب طبيعتها وهى :

تهامة — الحجاز — نجد — اليمن — العروض

فاما تهامة ويقال لها الغور فهى الاراضى التى على شاطىء بحر القلزم ممتدة عرضا الى سلسلة جبل السراة وسموها تهامة لشدة حرها وركود ريحها من التهم وهو شدة الحر وركود الريح : يقال تهم الحر اذا اشتد وسموها غورا لانخفاض أرضها ، وأما الحجاز فهو سلسلة جبل السراة الممتدة من أقصى اليمن الى الشام في عرض أربعة أيام (١) يزيد كسر يوم فى بعض المواضع وقد ينقص مثلها في أخرى فبدأ هذه السراة من أرض اليمن أرض المعافر وهي قبيلة قحطانية كانت تسكن شرقى عدن ثم تمتد حتى تبلغ الشام وتقطعها الوديان فى بعض جهاتها : وانما سميت حجازا لانها حجزت بين الغور ونجد

وأما نجد فهو مادون ذلك الجبل الى شرقيه يبتدىء جنوبا من أدنى حدود اليمن وينتهي الى السماوة وينتهى من الشرق الى العروض واطراف العراق وسمى نجدا لارتفاع أرضه

---

(١) اليوم أربعة وعشرون ميلا أو ثمانية فراسخ والفرسخ ٤٤٤٤م لان محيط الارض عند خط الاستواء تسعة آلاف فرسخ وهو ٤٠٠٠٠ ك وتكون الاربعة أيام ١٤٢ ك تقريبا

وأما اليمن فهو ما كان جنوبي نجد الى ساحل بحر الهند ويمتد شرقا الى حضرموت والشحر وعمان وفيه التهائم والنجد

وأما العروض فينتظم بلاد اليمامة والبحرين وما والاها وفيه نجد وغور لقربه من البحر وانخفاض مواضع منه ومسايل أودية فيه وسمي عروضا لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق

الوصف الطبيعي لجزيرة العرب

ارض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون ومنها الحرار جمع حرة وهي الجبال السوداء التي كأنها فحم محترق ويتخلل هذه الجبال كثير من الوديان اعدتها السيول ليجرى فيها ماؤها والصحاري الرملية المترامية الاطراف

فما كان من ارضها قريبا من هذه الوديان اخصب وانبت الكلأ والمرعى فتمكن اهله من الاقامة فيه حيث يجدون مايشربون ويسيمون فيه انعامهم وما بعد عنها اقفر ولم يصلح للسكنى

واعظم واد ببلاد العرب الدهناء وهو الوادى الذى فى بلاد ابنى تميم ببادية البصرة يمر في بلاد بنى اسد فيسمونه منعجا ثم فى غطفان فيسمونه الرمة، وهو اول نجد ويصب فى الرمة اودية اخرى اكبرها وادى الجريب والعرب تقول على لسان الرمة

كل بنى فانه يحسيني　　　الا الجريب فانه يرويني

ثم يمر في بلاد طيء فيسمونه حائلا وهو واد فى جبل طىء ثم يمر فى بلاد

كاب فيسمونه قراقر، ثم في بلاد تغلب فيسمونه سمودى واذا انتهى اليهم عطف الى بلاد كاب فيصير الى النيل وهو نهر يتخالج من الفرات الكبير يخترق بلدة اسمها النيل في سواد الكوفة ومتي أخصبت الدهناء ربعت العرب جميعا لسعتها وكثرة شجرها، طيبة التربة، طيبة الهواء

وبلاد اليمن كثيرة الوديان منها مايقطع السراة حتى ينتهي الى البحر ومنها ماهو على عكس ذلك الاتجاه

فمن أعظم الوديان المتجهة الى البحر وادى مور وهو ميزاب تهامة الاعظم ويتلوه فى العظم وبعد المأتي وادى زبيد، ومن أعظم الوديان المتجهة الى الشرق ميزاب اليمن الشرقى وهو يضارع مورا ويصب فيه كثير من الوديان وهو الذى يفضى الى موضع السد سد مأرب ويسق بعدها أرض الجنتين وأرض السبئيين

وهناك وديان كثيرة في الجوف بين الجبلين

العرب تسمي المواضع التى يستنقع فيها الماء رياضا وهو جمع روضة وذلك الاسم خاص بما يكون فى الارض الواطئة فان كانت فى أعالى البراق (١) والقفاف (٢) فهي السلقان واحدها سلق واذا جاءتها المياه أنبتت ضروبا من العشب والبقول لايسرع اليها الهيج والذبول واذا أعشبت تلك الرياض وتتابع عليها الوسمي (٣) ربعت العرب ونعمها وربما كانت الروضة واسعة يكون تقديرها ميلا

(١) البرقة أرض ذات الوان مختلفة وجمعها البراق وقد ذكر ياقوت ١٠٠ برقة من براق الجزيرة (٢) القفاف جمع قف وهو ماارتفع من الارض ولم يبلغ ان يكون جبلا (٣) وسمي أول مطر يصيب الارض والثاني يسمونه الولى

فى ميل فاذا عرضت جدا فهى قيعان وقيعة واحدها قاع وأصغر الرياض مئة ذراع وكل روض يفرغ اما فى روض واما فى واد . وحدائق الرياض ما أعشب منها والتف ، وقد ذكر ياقوت من رياض العرب ١٣٦ روضة فى جهات مختلفة وهي المعروفة بأسماء أصحابها

ولهم مياه يسمونها الاحساء والحساء جمع حسى وهو موضع رمل تحته صلابة فاذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فنعته الصلابة أن يغيض ومنع الرمل السمائم أن تنشفه فاذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء.

ولما كانت مياه هذه الاودية لا تسد حاج الجزيرة كان الجدب أغلب عليها ولا سيما أن كثيرا من مياهها يغيض فى باطن الارض فلا يمكنهم الانتفاع به الا بصناعات ومعاناة لم يكونوا من أهلها الا ما كان من بلاد اليمن التى أمكنها فيما مضى أن تتحكم فى مجاري الوديان فتوجهها الى جهة ثم تبنى سدا محكما يحجز الماء خلفه في أرض صلبة للانتفاع به حين الحاجة فلا يتسرب الى رمال الصحراء ويغيض فى الارض ولهذا عدت اليمن قديما من البلاد المخصبة المستعدة لان تزرع فيها المزروعات الدورية وتنبت فيها الاشجار الباسقة حتى أطلقوا عليها اسم العرب الخضراء

أما ماعداها فان شمال الحجاز تقل به هذه الوديان وجل اعتماد أهله على العيون الضئيلة التى لا تروى الا الشارب مع الجهد وربما جادهم الغيث فنبت الكلأ فى بعض سهولهم القريبة من الوديان — وأما نجد والعروض ففيهما وادي الدهناء وما يصب فيه من صغار الاودية ، ولكن الانتفاع بجميع مائه غير

ميسور لان الكثير من مائة يغيض في الرمال وربما تأخر المطر فاشتدت الحال بمن يقيم عليه من القبائل

ومن هنا قلما كان العرب فى بواديهم يبقون في مكان واحد وانما يتبعون مواقع القطر أني كان لتربع أنعامهم وتنفرج كربتها

وحاجة العرب الدائمة الى الرحيل أكسبتهم النشاط والخفة الى العمل لما يستدعيه ذلك من كثرة شد الرحال والتسيار

ولما كانت قلة الماء وعدم انتظامه يستدعيان ــ بحكم الضرورة ــ عدم الاعتماد على ماتنبته الارض من المزروعات الدورية التي لا تصلح للانسان كان جل اعتماد أهل البادية على انعامهم ولا سيما الابل منها يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسون بوبرها وتحمل اثقالهم فى تلك الصحارى المقفرة الى ما يرومون من الجهات أما بلاد اليمن فانها كانت تزرع لكثرة المياه هناك والتمكن من الانتفاع بها والمدن بها أكثر من أي جهة أخرى فى الجزيرة لان تمدين المدن فى غير السواحل البحرية يعتمد على المياه الوفيرة وسهولة الحصول عليها

جو البلاد

أما ما كان من الجزيرة تهامياً يجاور شواطىء البحر فالحرارة فيه شديدة مع الرطوبة لمكان البحر وأبخرته منها وكذلك يشتد الحر في الجبال اذا صهرتها الشمس بحرارتها خصوصا الحرار منها لسواد لونها ويشتد بالجبال البرد في الشتاء حتى ضربت العرب بشدته الامثال

أما نجد فما كان منها مجاوراً للاودية ومسايل المياه فان الهواء يكون به معتدلا ومابعد عنها حره أكثر

وجو اليمن وهواؤه معتدل في فصلي الشتاء والخريف، أما الربيع ففيه المطر الكثير والرطوبات التى تستمر زمناً طويلا ويشتد به الحر في فصل الصيف

محاج الجزيرة

في هذه الجزيرة طرق من الحواضر الكبرى الى مكة وغيرها وكل طريق منها يسمى محجة ومعرفة هذه المحاج مفتاح لما استغلق من عبارات أصحاب التقويم من العرب فانهم اذا عرفوا بقرية أو جهة جعلوا المحجة أساساً لذلك التعريف فيقولون هي على جادة البصرة أو الكوفة أو عن يمين السائر الى البصرة أو الكوفة فان لم يكن للمطلع علم بذلك كانت جدواه قليلة

وقد فصل هذا الجواد أبو محمد الحسن بن احمد الهمداني المتوفي سنة ٣٢٤ في كتابه وصف جزيرة العرب وبين منازلها وما بين كل منزلتين من الاميال ودرجة عرض كل منزلة وأوضحها أيضاً عبيد الله بن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك .

ومن أعظم هذه الجواد جادة بغداد منها الى مكة مارة على المدينة وبها ٣٤ منزلة وطولها ٨٣٠ ميلا ، وجادة الكوفة الى مكة وهي تفارق الاولى من معدن النقرة في الشمال الشرقى من المدينة وعلى بعد ٩٨ ميلا منها

وجادة البصرة الى مكة مارة بالمدينة وهى تتحد مع جادة الكوفة في معدن النقرة الذى يلى منزلة النباج وجادة البصرة الى مكة ولا تمر بالمدينة

ومنها في الجنوب جادة صنعاء النجدية وعدد منازلها ٢٢ ومقدار أميالها ٤٢٠:
وجادتها التهامية وعدد منازلها ٢٢ كالأولى

ومنها محجة عدن تلتقي مع محجة صنعاء في منزلة اسمها عثر ابعدسير ١٦ منزلة ولحضرموت محجتان منها العليا وتتقابل مع محجة صنعاء فى صعدة ومنها السفلى وتتقابل مع محجة صنعاء في تباله وتمر على نجران

ومنها محجة البصرة الى البحرين على ساحل خليج عمان (انظر الخريطة)

﴿ الشعوب العربية ﴾

العرب قبائل شتى ترجع في نسبها الى شعبين عظيمين الاول شعب قحطان والثاني شعب عدنان

فأما شعب قحطان فمهده بلاد اليمن وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فكان منه بطون حمير وأشهرهم زيد الجمهور وقضاعة والسكاسك : ومنه بطون كهلان وأشهرهم همدان وأنمار وطيء ومذحج وكندة ولخم وجذام والازد الذين منهم الاوس والخزرج وأولاد جفنة ملوك الشام :

وكانوا يسمون مقاماتهم باليمن مخاليف والواحد منها مخلاف ويضاف الى اسم القبيلة التى اختصت به ذكر منها ياقوت ٣٦ مخلافا

وكان الملوك المتقدمون قد فكروا فى الاستفادة بمياه السيول التي تنقذف في الوديان فيذهب الكثير منها هباء فى جوف الارض أو فى البحر فأقاموا بمأرب سداً وصفه ياقوت نقلا عن شيخ من أهل صنعاء قال هو بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل الى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج الا من جهة واحدة فكان الاوائل

قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة الرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول فيصير خلف السد كالبحر ، فكانوا اذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه أذا أرادوا

ويظهر أنه لما تطاولت الازمان على ذلك السد أهمل من شأنه فتصدعت جوانبه ولم يحمل هجمات السيول المتواردة عليه والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه فانكسر وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والمزارع فأتلفها وكان ذلك سنة ١٢٠ ق م كما قاله العالم سيديو

وهنا اختلفت كلمة المؤرخين من العرب فمنهم من يقول ان هجرة أهل مأرب كانت قبل أن ينهدم السد، لان كاهنة أخبرت رئيس القوم بما سيحدث فصدقها وهاجر بأهله وولده ومن تبعه من عشيرته ومنهم من قال ان الهجرة انما كانت بعد أن خرب السد وأتلف الارض والمزارع ولم يمكنهم اعادة السد كما كان فتعرضت البلاد لهجمات السيل ولم تعد تصلح للزرع كما كانت

ونحن نرجح الرأى الاخير لسببين

ألاول أن مفارقة البلاد عند النفس عدل مفارقة الروح وكلاهما أمر مكروه شنيع فيبعد جداً أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته لمجرد خبر لا يقطع أملا خصوصا انه سائر الى بلد لم يخبره

الثانى أن الكتاب لما قص علينا هذه القصة فى السورة الرابعة والثلاثين قال (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا

له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل) فهذا واضح في أن سيل العرم أصابهم وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها وممن سار على هذا الرأى العالم سيديو

كانت هجرة اهل مأرب بناء على رأي كبيرهم وسيدهم عمران بن عمرو مزيقياسيد ولد الازد من كهلان خرج هو واخوته ومن معهم من عشائرهم من ولد الازد يرتادون مواضع من الجزيرة تصلح لسكناهم فصاروا ينتقلون في بلاد اليمن ويرسلون الرواد ثم ساروا بعد ذلك الى الشمال

فعطف ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فأقام بين الثعلبية وذى قار يتتبع هو ومن معه من أهله وولده مواقع القطر ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة وبها ناس من بنى اسرائيل متفرقون فى نواحيها فاستوطنوها واقاموا بها وغلبوا اهلها بعد عليها فابتنوا الآطام وغرسخيل، والنوم من ابناء ثعلبة هذا الاوس والخزرج ابنا حارثة ابن ثعلبة

وانخزع عنهم عند خروجهم من مأرب حارثة بن عمرو — وهو خزاعة — بمن معه وافتتحوا الحرم واجلوا عنه سكانه من جرهم

عطف عمران بن عمرو مفارقا لقومه نحو عمان وقد كان انقرض من بها طسم وجديس فنزلها واستوطنها هو وبنوه وهم ازد عمان

وسارت قبائل نصر بن الازد — وهم قبائل كثير — نحو تهامة وهم ازد شنوءة

وسار جفنة بن عمرو الى الشام وأقام بها هو وبنوه وهو ابو الملوك الغساسنة نسبة لغسان وهو ماء كان بنو مازن بن الازد نزلوا عليه فنسب هؤلاء اليه

وممن ترك اليمن من كهلان ثم من بنى ادد بن زيد قبيلة لخم بن عدي الذين معهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة واول من اتخذها منهم منزلا - عمرو ابن عدى بن نصر الذي ملك بعد جزيمة الوضاح

ومنهم طيء : ساروا بعد مسير الازد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجا وسلمى لما رأوه هناك من الخصب، وهذان الجبلان في الشمال الشرقى من المدينة ويخترقهما وادي الدهناء ولهما ذكر كثير في أشعار العرب الطائيين لما لهما من المنعة والحصانة وبهما كانوا يستهينون بسلطان الملوك من بنى نصر: قال شاعرهم عارق الطائي

ومن مبلغ عمرو بن هند رسالة اذا استحقبتها العيس تنضي من البعد
أيوعدنى والرمل بينى وبينه ؟ تأمل رويداً ما أمامة من هند
ومن أجأ حولى رعان كأنها قبائل خيل من كميت ومن ورد

ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاعة أقامت ببادية السماوة وهي في آخر شمال نجد وتتصل بأطراف العراق ويخترقها وادى الدهناء

هكذا تفرقت هذه القبائل اليمانية واحتلت أخصب الاراضي العربية الشمال والغرب

وبقى باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم وكان لحمير السيادة على البلاد ومنهم الملوك والاقيال

المحاضرة الثانية

شعب عدنان وتفرقه ـ معيشة العرب من بدو ومن حضر

حال العرب الاجتماعية

شعب عدنان

أما شعب عدنان فمهده مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة فان عدنان ـ باجماع كلمة المؤرخين من العرب ـ ينتهى نسبه الى اسمعيل بن ابراهيم الذى جاء مكة وساكن جرهم وصاهرهم والكتاب ينسب اليه وإلى أبيه بناء البيت الحرام (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم) ولم تزل أبناء اسمعيل بمكة تتناسل هناك حتى كان منه عدنان وولده معد ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها ، ويقال لبطون هذا الشعب المعدية والنزارية

وقد تفرقت بطونه من نزار بن معد فمنه أياد وربيعة ومضر وهذان هما اللذان كثرت بطونهما

وكان من ربيعة قبائل كثيرة لهـا شهرة وذكر عظيم في تاريخ العرب حيث كانوا يناصون مضر فى الشرف والرفعة ، ومنهم كان اكثر الخوارج في الاسلام

ومن ربيعة عبد القيس ابن أفصى ومنها بكر وتغلب ابناوائل ، ومن بكر حنيفة وعجل ابنا لجيم

وتشعبت قبائل مضر الى شعبتين قيس عيلان بن عيلان بن مضر ، وبطون الياس بن مضر

وقيس عيلان بطونها كثيرة ، فنهم بنو سليم بن منصوه وبنوهوازن وبنو غطفان : ومن غطفان ذبيان وعبس ابنا بغيض وأشجع بن ريث وغنى بن أعصر

وافترقت أولاد الياس فنهم بطون تميم بن مرة وهذيل بن مدركة وبنو أسد بن خزيمة : وبطون كنانة بن خزيمة ، ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة

وقد انقسمت قريش الى قبائل شتى من أشهرها جمح وسهم ابنا هصيص بن كعب وعدي بن كعب ومخزوم بن يقظة بن مرة وتيم بن مرة وزهرة بن كلاب وعبد الدار بن قصى وأسد بن عبد العزى بن قصى وعبد مناف بن قصى

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ونوفل وعبد المطلب وهاشم . وبيت هاشم هو الذى كان منه سيدنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ابن هاشم ، والعباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب والعلويون أولاد علي ابن أبي طالب بن عبد المطلب

مساكن العدنانية

لما تكاثر أولاد عدنان رأوا أن البلاد التى نبتوا بها لم تعد تكفيهم فأخذوا يهجرونها متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب

فهاجرت عبد القيس — من ربيعة وبطون من بكر بن وائل — الى البحرين فأقاموا بها وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس حين مجيء الاسلام، وذلك الامير هو المنذر بن ساوي من بنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن على بن بكر الى اليمامة فنزلوا بحجر قصبة اليمامة وكان أميرهم عند مجيء الاسلام هوذة بن علي الحنفي الذى يقول فيه الاعشى

من ير هوذة يسجد غير متئب اذا تعمم فوق التاج أو وضعا
له أكاليل بالياقوت فصلها صواغها لاترى عيباً ولا طبعاً

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول لم يتتوج معدى قط وانما كانت التيجان لليمن فسأله أبو عبيدة عن هوذة فقال انما كانت خرزات تنظم له وكان هوذة يجير لطيمة كسرى في جنبات اليمامة

وأقامت سائر بكر بن وائل فى طول الارض من اليمامة الى البحرين الى سيف كاظمة ، الى البحر فأطراف سواد العراق فالابتلة فهيت وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ومنها بطون كانت تساكن بكرا وسكنت بنو تميم ببادية البصرة وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة من وادي القرى الى خيبر ، الى شرقي المدينة الى حد الجبلين ، الى ما ينتهي الى الحرة فتلك ديارهم لايخالطهم الا بعض الانصار

وسكنت ثقيف بالطائف وهوازن فى شرقي مكة بنواحى أوطاس - وهى على الجادة بين مكة والبصرة

وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربى الكوفة بينهم وبين تيماء ديار بحتر من طيء وبينهم وبين الكوفة خمس ليال

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء الى حوران وبقى بتهامة بطون كنانة وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش الا أنهم متفرقون لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصى بن كلاب فجمعهم وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت عن أقدارهم

بدو العرب وحضرهم

ينقسم العرب - بالنسبة الى مساكنهم - الى حضروهم سكان المدن وبدو ، وهم الذين يقيمون فى البادية . انما مساكنهم بيوتهم الشعرية لا يصفو عيشهم الا فى ذلك الجو الفسيح - لا يحجب فيه عنهم السماء ولا الهواء وغذاؤهم اللبن ولحم الجزور : وقد يطلق المؤرخون عليهم خاصة اسم الاعراب ، وهو ما سنتبعه ويغلب على خلق هؤلاء الناس البساطة وجفاء القول وذلك هو مايسمى بالعنجهية

أما الحضر : فهم سكان المدن وقد كان بالجزيرة مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن فكان فيها مأرب وصنعاء ويقول عنها اليمنيون انها أقدم مدينة على وجه الارض ؛ وفيها زبيد وعدن وصعدة ومخا وشبام وغير ذلك ، وفى شمال اليمن مكة : وهي تهامية والطائف والمدينة وهما حجازيتان وخيبر : وفي

نجد حائل وفى العروض حجر ـ قصبة اليمامة ـ والقطيف بالبحرين وأهل المدن لا يظعنون عن مقامهم لا فى صيف ولا في شتاء

تجارة العرب

كانت للعرب تجارات يتبادلون بها حاجهم وكانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها من كل صوب لشراء مايبغون وبيع مايحصلون عليه من نتائج بلادهم وكانت لكسرى والنعمان لطائم يرسلها الى نواحي الجزيرة لتباع فيها يحميها من غارات الاعراب كبير من كبار العرب تحمل البز والثياب وما تحتاجه العرب : وكان لقريش رحلتان تجاريتان احداهما للشام فى زمن الصيف : والاخرى لليمن في زمن الشتاء : وبلاد اليمن كانت تتجر بحاصلات أرضها مع الحبشة والهند وبلاد فارس ولهم مرافىء تجارية كبيرة ولم يعرف للامة العربية نقود كان بها التعامل ، وانما كانوا يتعاملون بنقود الدولتين المجاورتين لهما وهما الفرس والروم

صناعة العرب

أما الصناعات فكانوا أبعد الامم عنها حتى أن البدو منهم كانوا يحتقرونها ويعيبون المحترف بحرفة واذا تأملنا ما كان يلهج به جرير للفرزدق وكلاهما من تميم لانجده اكثر من أن أحد آباء الفرزدق كان محترفاً بحرفة هي جلاء السيوف ا وكان المعديون يعيبون أهل اليمن بدباغة الجلود لان القرظ لما كان كثيراً في جهة صنعاء استعملوه في دبغ الجلود واستعمالها فيما تصاح له من النعال وغيرها ، وكذلك حياكة الثوب : ويقول قائلهم بين دابغ جلد

وناسج برد ، وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل ـ وكانوا يرجعون في صناعة البناء الى عمال من الروم أو الفرس كما يعلم ذلك من بناء الكعبة في زمن قريش وبناء الخورنق في زمن النعمان : وأمهر من اشتغلوا بالصناعات هم أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام وكلهم من عرب قحطان

﴿ أحوال العرب ﴾

قد حصرنا أحوال هذه الامة التي تمثلها لنا اكبر تمثيل في الاحوال الاجتماعية والادبية والسياسية والدينية ، ونعني بالاجتماعية ما كان للفرد منهم من العلاقة باهله وولده وبني عمه دنيا : ثم ما كان من العلاقة بين القبائل المختلفة ونعنى بالادبية ما كان لهم من الاخلاق التي توارثها خلفهم عن سلفهم فعرفوا بها ، ونعنى بالسياسة ما كان لهم من الاستقلال بحكم أنفسهم أو التبعة لغيرهم ونعنى بالدينية بيان معتقداتهم وما كانوا يعظمونه من بيوت العبادة

حال العرب الاجتماعية

الرجل فى أهله ـ ونريد بالاهل خصوص الزوج

يظلم العربى من زعم انه كان ينظر الى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة فانا اذا كنا نستقي تلك المعاملات من شعرهم الذى هو ديوان أخبارهم نرى الامر على العكس من ذلك فقد كان الرجل اذا أراد ان يتمدح بماله فى نظر العرب المقام السامى من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته الا المرأة التى ان رقي فى نظرها فقد رضي الناس كلهم عنه ، وترى

ذلك واضحاً جلياً في أشعار حاتم الطائي شيخ الكرام وعنترة العبسى شيخ الشجعان ثم انظر الى أي شجاع من العرب هل كان يفتخر الا محدثاً إمرأة من قومه بانه المدافع عن الحريم الحامى للحقيقة؛

تراه اذا عذلته على السرف وأشارت عليه بالقصد يجيبها بأرق ماتجيب به مخالف في الرأى

ألم تعلمي يا عمرك الله أنني كريم على حين الكرام قليل ؟

أو لاترى ان جميع الشعراء اذا بدأوا قصائدهم التي بها يفخرون بمحامد قومهم وعظيم مقاصدهم – لايذهبون الى شيء من ذلك حتى يعطوا المرأة قسطها مما تحب من النسيب يرون أن شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة وتراهم حينما يخاطبونها وهي ذات زوج يلقبونها بخير الالقاب فيقول أحدهم

يا ربة البيت قومى غير صاغرة ضمي اليك رحال القوم والقربا

فاعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها فى النفس من سمو الدرجة وما أحلى احتراسه فى قوله غير صاغرة ! ويقول الآخر لزوجه

سلي الطارق المعتر يا أم مالك اذما أتاني بين قدرى ومجزري

أيسفر وجهي وهو أول القرى وأبذل معروفى له دون منكرى

فلا يناديها الا بكنيتها وهذا من سمات التشريف فى عرفهم

وبالجملة فان المتتبع لاشعار العرب لا يشتم منها رائحة الصغر والاهانة للمرأة ويفخرون بنسبتهم الى أمهاتهم كما يفخرون بنسبهم الى آبائهم وكانت

المرأة فيهم اذا أرادت فرقت ، وان شاءت جمعت فان اتجهت عواطفها للسلام سعت اليه ونجحت وان وجهتها ارادة الانتقام الى الشر أشعلت النار بين الاحياء

قال الحارث بن عوف المري لخارجة بن سنان — في ابان الحرب بين عبس وذبيان — أترى اني اخطب الى أحد فيردني قال نعم :أوس بن حارثة بن لام الطائي ، فقال الحارث لغلامه هيىء لي مركباً ثم ركب هو وغلامه ومعهما خارجة ، حتى أتيا أوساً فوجداه في داره فلما رأى الحارث رحب به وسأله عن مجيئه ، فقال جئتك خاطباً فقال أوس : لست هنالك فانصرف ولم يكلمه ثم دخل أوس على امرأته مغضباً وكانت من عبس فقالت من رجل وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه قال ذاك سيد العرب الحارث بن عوف قالت فمالك لم تستنزله قال انه استحمق جاءني خاطباً قالت أفتريد ان تزوج بناتك قال نعم قالت فاذا لم تزوج سيد العرب فمن قال قد كان ذلك قالت فتدارك ما كان منك فالحقه وقل له انك لقيتني مغضباً بامر لم تقدم مني فيه قولا فلم يكن عندي من الجواب الا ماسمعت فانصرف ولك عندي كل ما أحببت فانه سيفعل ففعل ذلك أوس وورد حارثة فلما وصلوا الى بيت أوس قال أوس لزوجه ادعي لي فلانة لكبرى بناته فأتته فقال يابنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب وقد جاءني طالباً خاطباً وقد أردت ان أزوجك منه ، فقالت لاتفعل لاني امرأة في وجهي ردة في خلقي بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعي رحمي وليس بجارك في البلد فيستحي

منك ولا آمن ان يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون علي في ذلك مافيه ، قال قومي بارك الله فيك ثم دعا الوسطى فاجابته بمثل جوابها وقالت اني خرقاء وليست بيدى صناعة ولا آمن ان يرى مني مايكره فيطلقني فيكون علي في ذلك ماتعلم ، ثم دعا الثالثة وهي بهيثة صغراهن فلما عرض عليها قالت أنت وذاك فاخبرها باباء اختيها فقالت لكني والله الجميلة وجهاً الصناع يداً الرفيعة خلقاً الحسيبة أبا فان طلقني فلا اخلف الله عليه بخير فزوجها الحارث وهيئت اليه في بيت أبيها فلما خلا بها وأراد ان يمد يده اليها قالت مه أعند أبي واخوتي هذا والله ما لايكون فارتحل بها حتى اذا كان ببعض الطريق وأراد قربانها وقالت أكما يفعل بالامة الجليبة أو السبية الاخيذة لا والله حتي تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل مايعمل لمثلي فرحل حتى اذا وصل ديار قومه أعدلها مايعد لمثلها فلما أراد قربانها قالت له أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها اخرج الى هؤلاء القوم فاصلح بينهم ثم ارجع الى أهلك فلن يفوتك فخرج الحارث مع خارجه ابن سنان فاصلحا بين القوم وحملا الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين

فهذه الحكاية تدل على مكانة المرأة فى نظرهم ومشاركتها لهم فى جميع أمورهم وكيف كان الرجل لايزوج بناته الا بعد ان يستشيرها ويقف عند إرادتها ولا يمكننا ان ندعى ان هذا كان أمراً عاماً عندهم بحيث تكون المرأة محترمة الجانب في جميع الطبقات تعامل هذه المعاملة من جمهور الامة. لان وجود أفراد هذه معاملتهم لايحتمل ان يكون برهانا على أن هذا خلق

عامتهم كيف ونحن فى بيئة لانعدم فيها من يرفع زوجه الى اعلى درجات الاحترام والرعاية ولا يستنتج من وجودهم ان احترام المرأة خلق عام للبيئة كلها ولكن الذى يمكننا ان نقوله هو ان ظهور هذه المعاملة على ألسنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان الحال من غير ان يقابلوا بالنكير يدل على انه لم يكن عندهم بدعا من العمل بل كان شيئا لاتنفر منه طباعهم . يوجد بيننا حقيقة من يحترم المرأة احتراما جما ولكن لا يجسر ان يخالف التقاليد العامة يوما فيكتب في إحدى الجرائد قلت لامرأتى واستشرت امرأتي فى زواج بنتى فكان منى ومنها كيت وكيت لو قال هذا لقابلته النفوس بالاستنكار لانه ليس من مألوف عادات القوم

ومن ذلك يمكننا ان نقول ان علاقة الرجل العربي باهله كانت على درجة من الرقي اكثر مما يخيل الينا وكان لها من حرية الارادة ونفاذ القول القسط الأوفر وسيمر بكم كثير من آثارها الكبيرة فى الاسلام وهي مما يزيدنا تأكداً من هذا الرأى إلا ان الرجل كان يعتبر — بلا نزاع — رئيس الاسرة وصاحب الكلمة فيها وكان الرجل يرتبط بالمرأة بعقد الزوج بعد رضاء اوليائها ولم يكن من حقها ان تفتات عليهم بذلك وهذا الزواج هو ماعليه جمهورهم

وكانت عندهم انواع من اجتماع الرجل بالمرأة قاصرة على ذوى الدعارة من الشبان الذين لايخلو منهم زمان او مكان لم يكونوا يطلقون عليها الا السفاح واتخاذ الاخدان ولم يكن ذلك امراً مستحسنا عند جمهورهم اذ

المعروف عن العربي من غيرته على اهله ومحافظته على شرفه - يبعد ذلك فمن الخطأ بعد ذلك أن يقال ان الزواج كان عندهم على انواع ويدرج في ضمن هذه الانواع تلك المسافحات

وكانوا يعددون بين الزوجات الا انه لم يكن هناك حد معروف اليه ينتهي الامر في هذا التعدد فقد ورد في الصحيح ان غيلان الثقفي أسلم وتحته عشرة نسوة

وكانوا يطلقون والطلاق بيد الرجل الا انه كان هناك نساء امتزن بشرف قومهن فكن يشترطن عند التزوج ان تكون الفرقة بأيديهن

وكانت عندهم اجتماعات تعقدها شفار السيوف وأسنة الرماح فكان اذا قابل أحد منهم آخر معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من قبيلة لها معها حلف تقاتلا فاذا قهر صاحب الظعينة أخذت منه سبية فاستحلها بذلك الغالب ولكن الاولاد الذين تكون هذه امهم يلحقهم العار في مدة حياتهم ولذلك كان من مفاخر الرجل منهم أن تكون أمه حرة نسيبة لا سبية جليبة وان كان قد بذغيره بشجاعته اعتمد على هذه الشجاعة في نفي العار عنه كما قال عنترة :

اني امرؤ من خير عبس منصبا شطرى وأحمى سائرى بالمنصل

وكان كبراء العرب يترفعون عن ذلك خشية إلحاق العار بأولادهم وهم يريدون لهم الشرف حتى كانوا اذا امنو على أولادهم ذكروا في اول ذلك انهم تخيروا امهاتهم وكانوا يقولون العرق دساس

وكانوا يحرمون انواعا من الاجتماعات : كزواج البنت والاخت والعمة والخالة ومن غرائب مايحكونه عن لقيط بن زرارة أحد اشراف بنى تميم انه تزوج بنته دختنوس ولعله يكون قد تأثر بمذاهب الاباحيين لمجاورته للفرس والصحيح عند المؤرخين انه انما كان يحبها ويتيمن برأيها ولذلك كانت تكون معه فى غزواته

أما معاملتهم لابنائهم فكانت معاملة من يربى الولد ليكون له درعا حصينة يتقي بها العدو ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الاسماء من كلب وأسد وثور وفهر وماشا كل ذلك وكان لهم من الحنو على الاولاد ما يعبر عنه قول أحدهم

وانما أولادنا بيننا اكبادنا تمشى على الارض

وعرف عن بعض رجال من العرب انهم كانوا يئدون بناتهم اذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب ولم يكن هذا فى جميع العرب بل كان فى بعض بطون من تميم واسد ولم يكن بالطبع الا فى طبقة منحطة منهم لان ذلك انما كان يفعله من يفعله منهم خشية الفقر والى ذلك الاشارة فى قول الكتاب (ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم)

وكان هناك من اشراف تميم قبل الاسلام من كره الوأد وعابه وكان يشترى البنات ممن يريدون وادهن بنوق تذهب عنهن الفقر والخوف منه وعرف ذلك عن غالب بن صعصعة جد الفرزدق

ولا يمكننا بعد ذلك ان نعد هذا الوأد من الاخلاق المنتشرة التى تعد على الامة العربية بل انما تعد على أولئك الافراد الذين اجترأوا عليها.

أما معاملة الرجل لاخيه وبنى عمه دنيا فبينها هذه الجملة التى قالوها أنصر اخاك ظالما اومظلوماً · وكانوا يسيرون عليها بمعناها الحقيقي من غير التعديل الذى جاء به الاسلام لان الاسلام فسر نصر الظالم بكفه عن ظلمه اما هم فكانوا ينصرون اخوانهم وبني عمهم نصراً حقيقياً على كل حال فى صوابهم وخطئهم وعدلهم وظلمهم والذي يتأخر منهم عن هذا الانتصار تقابله السنة الشعراء بما يغض من كرامته وينقصه من قدره وربما اصاب الذم القبيلة جمعاء من جراء حادثة لم يقوموا فيها بنصر احدهم كما قال شاعرهم

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
اذاً لقام بنصرى معشر خشن عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا اليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي ـ وان كانوا ذوي عدد ـ ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن اساءة أهل السوء احسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس انسانا

واذا دخلت قبيلتان منهم فى حلف كان لكل فرد من إحدى القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الأخرى ، وهذا الحلف قد يعقده الافراد وقد يعقده رؤساء القبائل والامر واحد فى الحلفين

بينما هـذه حالهم فى بنى ابيهم دنيا وفي حلفائهم اذا بك تراهم حينما تتشعب البطون قد نافس بعضهم بعضاً فى الشرف والثروة فتجد القبائل يجمعها أب واحد ، وكل واحدة قد وقفت لاختها بالمرصاد تنتهز الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العداء قد بلغ منهما الدرجة التي لاتطاق كما كان بين بطنى الأوس والخزرج وبين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب وبين عبد شمس وهاشم وكما تراهم فى الجملة بين ربيعة ومضر وبين قيس وكنانة وبين القحطانية والنزارية فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية حياة ونمواً وكانت مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة فكانت قواهم متفانية في حروبهم والسبب فى ذلك يرجع الى أمرين :

الاول — التنافس في مادة الحيـاة بين بنى الأب الواحد فانا نعلم أن حياة العرب كانت على مراعيهم التى يسيمون فيها أنعامهم وعلى مناهلهم التى منها يشربون وهي محل نزاع دائم لأنه لم يكن يوجد عنـد العرب حقوق ملـكية محترمة في الـكلأ والمـاء : واكثر مايبتدىء ذلك النزاع بين رعاة الأبل القائمين بشـأنها فانهم قد يتنازعون فيمن يرد المـاء أولا أو في نفس المراعي فيتجاوزهم النزاع الى ساداتهم فلا يجدون من الافتراق بداً فينزح أحد الأخوين عن داره مرغما الى مكان آخر هو وأولاده ومن يلوذ به ولا يكون ذلك الا بعد أن يشعر الراحل بقوة منازعه فينزح وفي النفس أثر من

الغضب يورثه الآباء للابناء فيتناقلون بينهم أحاديث عن أسباب الخلاف والظلم يجسمها النقل ، واذا تقارب مكان البطنين كان العداء أبقى : وهذا أمر نشاهده فى ديارنا بين البلدين اللذين كان أصلهما واحداً ثم انفصل قسم من أهله عن الباقين : رأيت بلداً من مديرية المنوفية يذهب جميع من فيه مذهب الامام مالك فى عبادتهم ، وجميع البلاد المحيطة بهم يذهبون مذهب الامام الشافعى ، فاستغربت ذلك ! وسألت ذوي الاسنان منهم عن سببه ، فاخبروني أن أهل هذا الكفر كانوا من أهل ذلك البلد الذي يجاوره ، فلما حصل النزاع والخلاف وغلب أهل الكفر على أمرهم استقلوا بأنفسهم وتركوا البلد وما فيه حتى مذهب أهليه

السبب الثاني — تنازع الشرف والرياسة وأكثر ما يكون ذلك اذا مات اكبر الاخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فينازع أعمامه رئاسة العشيرة ، ولا يسلم أحد منهما للآخر فيورثهما ذلك تباغضاً تزيده الايام شدة ، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمراً فى نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء ، وقد يبقيان متجاورين وفي هذه الحال يكون التنافر أشد! كما كان بين الاوس والخزرج سكان المدينة وكما كان بين هاشم وأمية بمكة وبين عبس ، وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة ، ودارم ويربوع من تميم

ولذلك نرى الحروب الهائلة والايام المعدودة انما كانت بين القبائل المتقاربة فى الانساب، المتقاربة فى الامكنة

ولم يكن لهم نظام يلجأون اليه في الحكم بين المتنافرين في الرئاسة والشرف انما كانوا في بعض الاحيان يلجأون الى حكم منهم قد عرف باصالة الرأى ويقدم كل من المتنازعين بين يديه بمساعدة مريديه ما يشرفه فى النفوس ويعظم أمره من نحر الجزر واطعام الطعام وكانت تكون المصيبة أشد اذا حكم الحكم لأحد الفريقين لان ذلك انما كان يزيد نار العداء ضراماً

واذا كان الحكم عارفاً بدخائل العرب سوى بينهما فى الفضل والشرف كما فعل قاضيهم حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابنى العم فانه قال لهما انتما كركبتى البعير وهذا حكم لا يحسم النزاع ولا يعدم كل منهما ان يجد له شاعراً يلهبه ويزيد فى نفسه نعرة الجاهلية كما فعل الاعشى في هذه القضية فانه قال القصائد الرنانة يفضل بها عامراً ويزعم أن الحكم قضى له ومما كان يزيد في هذه النيران شدة ألسنة الشعراء فقد كان هم الواحد منهم أن يرفع عقيرته بكلمة شعرية يعدد بها مفاخر قبيلته ومثالب القبيلة الاخرى واذا زل أحد افراد القبيلة زلة عدوها على القبيلة بأسرها ووسموها بتلك السمة حتى اذا قرأنا مجموعة من أشعار هؤلاء الغاوين وجدنا العرب كلها مثالب ونقائص لان كل شاعر يعدد مثالب القبيلة التى تعادي قبيلته المعترف لها بالتبريز في السيادة وفيها البيوتات الكريمة قد وسمت على لسان شاعر بما يستحي الانسان من انشاده ولم تسلم من ذلك الشر قبيلة واحدة

ومتى وجد النفور بين جماعتين او بين شخصين لا يحتاج شبوب نار الحرب بينهما الى اسباب قوية لايمكن حلها بل ايسر النزاع بين فردين من افراد القبيلتين كاف لشبوب نار الحرب وتيتيم الاطفال وتأيم النساء لذلك كانت الجزيرة دائمة الحروب والمنازعات قلما يخلو منها زمان او مكان واذا رجعت الى اسبابها المباشرة وجدتها في بعض الاحيان تافهة كما كان في حروب الفجار وفي البعض الآخر تراها اموراً يمكن حلها على اسهل الوجوه كالحروب بين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب ولكن الاسباب الحقيقية سابقة على ذلك هي النفور المتأصل في القلوب لما ذكرناه



المحاضرة الثالثة

حال العرب السياسية

كان حكام الجزيرة — من هـذه الجهة ـ قسمين القسم الأول منهم ملوك متوجون الا أنهم يرجعون الى سلطان أعظم منهم فهم في الحقيقة غير مستقلين والقسم الثانى : رؤساء عشائر لهم ماللملوك من الحكم والامتياز الا أنهم ليسو أرباب تيجان وهؤلاء قد يكونون على تمام الاستقلال وقد يكون لهم تبعية لملك متوج

القسم الاول

الملوك المتوجون

ملك اليمن

اذا نظرنا الى المولعين بارجاع التاريخ الى الازمان المترامية الى الوراء وتحديد مابيننا وبينها من السنين والايام وجدناهم يتناقضون ولا يشعرون فانهم يبنون هـذه التحديدات على مجرد خيالات وظنون لا تغنى من الحق شيئاً

يقولون أن قحطان بن عابر المعبر عنه في التوراة بيقظان هو أول من سكن اليمن من بني سام بن نوح وكانت الارض خلاء ويتبع هذا الكلام

انه كان ملكا متوجاً لبس التاج سنة ٢٠٣٠ ق م فتكون النتيجة انه كان ملكا على نفسه أو على أولاده ثم ملك بعده ابنه يعرب وهو من اعاظم ملوك العرب ولا يدرون أن الذى يعطونه هذا اللقب لا تزيد رعيته عن ثلاثين من اخوته وبنيه

والمسعودي صاحب مروج الذهب المتوفي سنة ٣٤٦ يقول فيه ان أول من يعد من ملوك اليمن سبأ وهو الفرع الثالث لقحطان ويذكر انه ملك ٤٨٤ سنة

ثم يحكون أقاصيص عن ملوك اليمن وضخامة سلطانهم وهي بالخرافات أشبه فيروون عن الرائش بن قيس أحد ملوكهم انه غزا الهند ثم رجع الى اليمن وعاد فذهب الى بلاد طيء ثم على الانبار والموصل ثم أرسل احد أتباعه الى اذربيجان فغزا وغنم . ويروون عن ابنه ذى منار أنه غزا بلاد الغرب وذهب الى أقصاها وان ياسر أنعم سار نحو المغرب حتى بلغ واديا يقال له وادي الرمل ولم يجد وراءه مجازاً لكثرة الرمل ثم صنع صنما من النحاس نصب على صخرة على شفير الوادى وكتب على صدره بالمسند هذا الصنم لياسر أنعم الحميرى وليس وراءه مذهب فلا يتكلفن ذلك احد . وان تبعاً دخل الصين غازياً فقتل مقاتلتها واكتسح ماوجد بها وخلف بالتبت اثنى عشر الف فارس من حمير فهم أهل التبت الآن

وكل تلك الاخبار لا تقبل الا اذا ضحى جزء كبير من العقل ، وقد أوضح أسباب فسادها المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون المغربي (المتوفي

سنة ٨٠٨) فى مقدمة تاريخه المسمى بالعبر وديوان المبتدا والخبر ، وكذلك علي بن محمد الشيبانى المعروف بابن الاثير الجزرى المتوفى سنة٦٣٨

وقد بين محمد بن جرير الطبرى المتوفي سنة ٣١٠ حقيقة ملكهم في موضعين من كتابه تاريخ الرسل والملوك فقال عن اليمن لم يكن لملكهم نظام وأن الرئيس منهم انما كان رئيساً على مخلافه ومحجره لا يجاوز ذلك فان نزع منهم نازع أو نبغ منهم نابغ فتجاوز ذلك وان بعدت مسافة سيره من مخلافه ـ فانما ذلك منه عن غير ملك له موطد ولا لآبائه ولا لابنائه ولكن كالذى يكون من بعض من يشردون من المتلصصة فيغير على الناحية بعد الناحية باستغفاله أهلها فاذا قصده الطلب لم يكن له ثبات ، فكذلك كان أمر ملوك اليمن كان الواحد منهم بعد الواحد يخرج من مخلافه ومحجره فيصيب مما يمر به ثم ينشمر عند خوف الطلب راجعاً الى محجره من غير ان يدين له أحد من غير أهل مخلافه بالطاعة أو يؤدى له خرجاً

وقال فى موضع آخر ص١٦٢ جزء أول طبع مصر :

وقد كان لليمن ملوك لهم ملك غير انه كان غير متصل وانما كان يكون الواحد منهم بعد الواحد وبين الاول والآخر فترات طويلة لا يقف على مبلغها العلماء لقلة علمهم بها وبمبلغ عمر الاول منهم والآخر ، اذ لم يكن من الامر الدائم فان دام شيء فانما يدوم لمن دام له منهم لانه عامل لغيره في الموضع الذى هو به لا يملك بنفسه اهـ

فالظاهر أن قبائل اليمن من قحطان تشعبوا فى أنحاء اليمن كما تشعب

غيرهم وكان لهم رؤساء من قومهم وكان ينبغ من هؤلاء الرؤساء فى بعض الاحيان من يوسع سلطانه الى ما يجاوز مخلافه ثم يرجع الامر الى ما كان عليه اذا ضعفت قوة المتغلب فى حياته أو ضعفت قوة أعقابه

وكانت حمير وكهلان في قحطان بمنزلة ربيعة ومضر في عدنان شعبان يتنافسان في الملك والسطوة وقد قسموا البلاد بينهم مخاليف لكل بطن أو عدة بطون مخلاف يتسع ويضيق حسب قوة القبيلة وضعفها ولكل مخلاف رئيس من القبيلة يحكمه

غير أن مخلاف صنعاء كان أضخم هذه المخاليف وأخصبها فكان رؤساؤه يدعون بالملوك وقد يعظم فيهم الرجل بعد الرجل فيوسع سلطانه الى ماوراء مخلافه بما يتاح له من القوة فاذا امكنه بسط سلطانه على حضرموت والشحر سموه تبعاً لا يستحق هذا القب غيره ، حتى اذا ضعفت تلك القوة فى أيام هذا المتغلب أو فى أيام أبنائه عاد الأمر الى ما كان عليه ورجع سلطان المخاليف الاخرى الى ذوى السيادة فيها وكانوا يسمون بالاقيال والواحد قيل

ومن هذا يظهر ما بين الملك والملك من السنين الطويلة فيغتر بعض المؤرخين ويجعل للسابق مدة حكمه والفترة التى كانت بينه وبين الملك الذى يليه فربما جعلوا حكم الملك ٤٠٠ سنة واكثر كما قدمناه عن المسعودى

ومن أشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبأ وقد ورد حديثها فى التوراة بلقب ملكة سبأ وفي القرآن بهذا اللقب أيضاً

فذكرت التوراة أنها وفدت على سليمان بن داود ملك اسرائيل ورأت عظمة ملكه وسمعت حكمته . والقرآن ذكر هذه الوفادة وفي سياق الحكاية ما يدل على ان ملك اليمن لم يكن بتلك الضخامة التي تبعث صاحبها على غزو البلاد النائية والاستيلاء عليها فقد خافت الملكة لما جاءتها رسالة سليمان حيث قالت (إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) وقال سليمان لما أرسل اليها مهدداً (إرجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وملك سليمان عليه السلام لم يكن يتجاوز فلسطين وما حواليها من تلك الاصقاع : فهذا الخوف من ملكة اليمن وذلك التهديد من ملك فلسطين مع ما بينهما من البعد الشاسع ، وهو طول جزيرة العرب يجعلنا نفهم مقدار القوة التي كان عليها ملوك اليمن اذ ذاك . وممن اشتهر من ملوكهم يوسف ذو نواس وكان يهوديا فرأى ان بعض رعيته بنجران يدينون بالدين المسيحي اتباعاً لدعاة أرسلهم الامبراطور الروماني منذ سنة ٣٤٣ م فلم يكن من ذي نواس الا ان مثل بهم حرقا بالنار سنة ٥٣٤ ولما علم بذلك امبراطور الرومان (جوستين) أمر النجاشي صاحب الحبشة المتدين بالنصرانية ان ينتقم من ذوي نواس فبعث اليه قائداً حبشياً اسمه ارياط فتغلب على صنعاء ولما رأى ذلك ذونواس أغرق نفسه في البحر خشية العار وظل ارياط حاكما على صنعاء من قبل ملك الحبشة ثم اغتاله قائد من قواده اسمه أبرهة وحكم بدله بعد ان استرضى ملك الحبشة فرضي عنه وأبرهة هو الذي جند الجنود لهدم الكعبة وكان يريد ان يصرف الناس عنها الى بيت بناه بصنعاء فاصابه

هو وجنده بمكة ما أصابهم من الامراض الثقيلة وقد بينها ابن هشام [1] في سيرته بانها الحصبة والجدري : وروي ان هذا كان أول حصولهما بمكة فعاد منهزما وتوفى بعد عودته وأشار القرآن الى هذه الحادثة فى سورة الفيل .

وحكم بعد أبرهة يكسوم ابنه ثم ابنه الثاني مسروق

كان فى ذلك الوقت من أولاد ملوك اليمن القحطانيين من يتطلع الى نيل الملك ولا يتعده الا العجز وهو سيف بن ذى يزن الحميرى فرأي من الضرورى ان يستنجد بأحد الملكين العظيمين ملك الروم أو ملك الفرس ، ولكنه اخفق فى استنجاده بملك الروم فاستنجد ملك الفرس وهو كسرى أنوشروان فوعده كسرى خيراً ثم شغل عنه حينا من الزمن فمات سيف [2] فذهب ابنه معديكرب الى كسرى يستنجزه وعده فاشار على كسرى كبراء دولته ان يعين معديكرب لما كان لهم من الامل فى امتلاك اليمن فأمدوه بجند يقوده أحد الاساورة واسمه وهرز فركبوا مراكبهم من الابلة وقطعوا خليج عمان حتي أتوا شواطىء حضرموت فنزلوا من احدى فرضها وتوجهوا الى صنعاء وقد تبعهم كثير من القحطانيين فقابلتهم الحبشة فانتصر وهرز ومن معه على الحبشة وأجلوهم عن البلاد

---

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المتوفى سنة ٢١٨ جمع سيرة محمد ابن اسحاق رئيس أهل المغازي المتوفى سنة ١٥١ وسيرته من اجمع السير واضبطها وعليها معول من كتب بعد فى السير

(٢) بعض المؤرخين يروي ان سيفا هو الذي ملك اليمن لا ابنه

وحينئذ توج وهرز معد يكرب ملكا على اليمن وأبقى معه جنداً من الفرس كانوا يسمون بعد بالابناء وينسب اليهم فيقال ابناوى

وقد وفدت الوفود على ابن ذى يزن يهنئونه بعودة الملك ، وممن وفد عليه عبد المطلب بن هاشم شيخ مكه وكبيرها وهو جد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

كان معد يكرب قد أبقى معه من الحبشة جمعاً يخدمونه ويمشون في ركابه فاغتالوه ذات يوم وبموته انقطع الملك من بيت ذى يزن الا أنه لما علم كسرى بقتله أرسل وهرز ملكا على اليمن من قبله وما زالت الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذى كان على عهد الفتح الاسلامي لبلاد اليمن وكان باذان ممن أجاب الى الاسلام فجاء الاسلام وصنعاء إيالة فارسية يحكمها كسرى بعامل من عماله يؤدى له الخراج ولم يكن ملكه عاماً بل كان هناك أقيال آخرون يحكمون فى مخاليفهم وكتب اليهم النبي ﷺ كتباً مستقلة بصفتهم أقيالا ، كما كتب الى النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان ، وكما كتب الى الحارث بن عبد كلال وأخيه . وكان لكندة بحضر موت رؤساء مستقلون يشبهون الملوك

الملك بالحيرة

بعد ان انهزم دارا ملك الفرس أمام الاسكندر المقدونى فى سنة ٣٣٢ ق . م انحطت المملكة الفارسية عن درجه عظمتها السامية وتولاها ملوك يعرفون فى تاريخ الفرس بملوك الطوائف وكان للاسكندر أغراض في هذه

التجزئة وهي أن يسجل على بلاد الفرس ضعفاً أبديا لايتمكنون معه من اعادةالكرة على أملاك اليونان وقد نجح فى هذه الفكرةفان ملوك الطوائف لم تكن لهم تلك القوة المجتمعة التى كانت للفرس من قبل واستمر ملوك الطوائف يحكمون البلاد الفارسية مجزأة بينهم الى سنة ٢٣٠ م وهو الوقت الذى نبغ فيه اردشير بن بابك وشكل الطبقة الرابعةمن ملوك الفرس المعروفة بالدولة الساسانية اودولة الاكاسرة

وفي عهد ملوك الطوائف كانت هجرة العرب من اليمن بعدسيل العرم واحتلوا جزءاً مهماً من ريف العراق كان قبل ملكا للدولةالفارسية ثم لحقهم بعد استقرارهم من هاجر من ولد عدنان فزاحموهم فى تلك الجهات وسكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية

فلما نبغ اردشير وجدد المملكة الفارسية وادخل جميع مخالفيه من الفرس تحت طاعته وأعاد تلك القوة التى كانت لهم من قبل رجع الى العرب المقيمين على تخوم ملكه فاستولى عليهم وصاروا من رعيته وكان هذا سببا في رحيل جمع من قضاعة الى الشام . ودان له أهل الحيرة والانبار . وفى عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر من ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر وكأن اردشير رأى انه يستحيل عليه ان يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الاغارة على تخوم ملكه الا بأن يملك عليهم رجلا منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جندالفرس

يستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية وكان يطلق على تلك الكتيبة دوسر (يظهر انها تعريب دوشير وترجمتـه أسدان وهما شارة راية الفرس)

ولجذيمة هذا خبر ظريف مع آل أذينة ملوك العرب بشمال الجزيرة ومشارف الشام فانه غزا ملكهم المسمى عمرو بن الظرب وقتله وكان له بنت تسمى الزباء احتالت عليه حتى جاءت به الى بلادها وقتلته وكان له ابن اخت اسمه عمرو بن عدى فأراد ان يأخذ منها بالثار فأعمل الحيلة الى ذلك بواسطة أحد المكرة من قومه المسمى قصيراً فسار قصير اليها حتى عرف مداخل مدينتها وما عملته في قصرها للهرب عند الحاجة ثم استأذنها لمجيء بتجارة من العراق فذهب وأمر عمراً أن يسير معه بجند ولما قاربوا مدينتها أدخلوا الرجال فى الغرائر على الابل ودخلوا مدينتها بهذه الحيلة ولما ادركت جلية الامر ذهبت لتدخل المكان الذى أعدته لهربها فادركها عمرو فمصت سما وقالت بيدى لا بيد عمرو ، ولما وقعت أجهز عليها عمرو

وهذه الحكاية مع غرابتها ينكر صحتها المؤرخون من الافرنج ، ويقولون ان الزباء هـذه كانت ملكة على تدمر من قبل الرومانيين وليت الملك بعد وفاة زوجها اذينـة من بين السميدع الذين سكنوا بلاد العراق وبرارى الشام وحوران وانتهى أمر الزباء بأن حاربها الرومان فى عهد القيصر اووليانس وقهروها وأخذوها اسيرة الى رومية حيث قضت هناك نحبهـا وذلك في المدة بين سنتى ٢٧٠ و٢٧٣ م وموت جزيمة كان حوالى سنة ٢٦٨ م

وبعد موت جذيمة ولى أمر العرب عمرو بن عدى بن نصر اللخمي وهو

أول ملوك اللخميين بالحيرة ومدتهم من سنة ٢٦٨ م الى سنة ٦٣٢ م وهي السنة التى فتح فيها خالدبن الوليد مدينة الحيرة وعلى ذلك تكون مدتهم ٣٦٤ سنة الا ان الملك قد انقطع فيها عنهم مرتين كما تراه بعد . وكان ابتداء ملك عمرو في عهد سابور بن أدشير ولم تزل الملوك من بنى نصر تتوالى على الحيرة حتى ولى الفرس قباذ بن فيروز وكان قد ظهر فى زمنه مذهب الاباحية في بلاد الفرس على يد أحد فلاسفتهم المدعو مزدك فوجد المذهب رواجا وتبعه خلق كبير ومنهم الملك قباذ فارسل الى ملك العرب بالحيرة وهو المنذر بن ماء السماء يدعوه الى ان يكون على ذلك المذهب فابى عليه ذلك حمية وأنفة ولما رأى ذلك قباذ عزله عن مالك الحيرة وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندي الذي كان أميراً على قبائل بكر بن وائل وقد ملكه بعد ان اجاب دعوته الى المذهب المزدكى

ولم يزل ملكا حتى مات قباذ وخلفه كسري انو شروان وكان يكره هذا المذهب جداً ويراه مضراً بالبلاد وبأنساب أهلها وتربية أبنائها فقتل مزدك وكثيراً ممن دان بهذا المذهب من الفرس واعاد المنذر الى ولاية الحيرة وطلب الحرث بن عمرو وكان بالانبار وبها منزله فهرب باولاده وماله وهجانه فتبعه المنذر بالخيل من تغلب وأياد وبهراء فالحق بارض كلب فنجا وانتهبوا ماله وهجانه وأخذت تغلب ٤٨ نفسا من بنى حجر آكل المرار وفيهم عمرو ومالك ابنا الحارث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم فى ديار بنى مرينا وهم الذين يعنيهم عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

ولم يزل حارث في ديار كلب حتى مات

ولما كان بالحيرة جاءه أشراف من نزار وطلبوا منه أن يولى أمرهم بعض ولده فملك ابنه حجراً على بنى أسد بن خزيمة وعطفان وملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها وملك ابنه معد يكرب على قيس عيلان. وملك ابنه سلمة على تغلب والنمر بن قاسط و بنى سعد من تميم . ولم يكن هذا الملك بالشيء الموطد لأن قبائل البدو لا تحتمل وما يستدعيه ولذلك قامت بنو أسد على حجر بن عمرو وقتلوه بعد أن ظهر له منهم عسفه وشدته وكان من نتيجة قتله أمر ابنه امرىء القيس وقيامه لأخذ الثار ممن قتلوا أباه وكان يريد أن يملكهم قسراً فآب بالفشل بعد خطوب طويلة كانت عليه فى ذهابه الى ملك الروم واستنجاده به على قتلة أبيه

ولما عاد الملك الى المنذر بن ماء السماء استمر فى عقبه حتى كان النعمان ابن المنذر المكنى بأبى قابوس صاحب النابغة الذبيانى وهو الذى غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادى انتقاماً منه بحبسه أباه حتى مات فلما أحكم زيد الأمر واشتد غضب كسرى على النعمان وأرسل اليه يطلبه فخاف النعمان عاقبة الامر وأيقن أنه هنالك ان توجه الى المدائن فذهب يتنقل في أحياء العرب يريد منهم ان يحموه من كسرى فأبت عليه القبائل ذلك ولم يزل متنقلا حتى ورد ذا قار ونزل على بنى شيبان سراً فلقى هانيء بن مسعود الشيبانى وكان سيداً منيعاً والبيت من ربيعة في آل ذي الجدين لقيس بن مسعود أخي هانيء وكان كسرى أطعمه الأبلة فكره النعمان أن يرفع اليه أهله لذلك وعلم أن هانئاً يمنعه مما يمنع منه أهله وولده

فأودعه أهله وماله وتوجه الى كسرى فحبسه حتى مات وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائى وهو من أشراف طيء وأمره أن يرسل الى هاني‌ء بن مسعود فيطلب منه تسليم ماعنده فأبى ذلك هانىء حمية. وآذنوا الملك بالحرب فامر إياسا ان يسير اليهم بالجنود ومعه مرذابة كسرى وكتائبه ولما دنت الفرس من بنى شيبان قال لهم هانىء يا معشر بكر لا طاقة لكم بحرب كسرى فاركنوا الى الفلاة فاسرع الناس الى ذلك فقام حنظلة بن ثعلبة العجلي وقال ياهاني أردت نجاءنا فألقيتنا فى الهلكة ورد الناس وقطع وضن الهوادج وضرب على نفسه قبة وأقسم أن لايفر حتى تفر القبة فرجع الناس وانتظروا مجيء الفرس حتى جاءتهم : وكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها بنو شيبان وانهزمت الفرس هزيمة منكرة وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم وهو بعد ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم بقليل فانه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية قبيصة على الحيرة

وكان مع إياس قائد من قواد الفرس وبعد موته ولى كسرى على البلاد حاكما فارسياً كما فعل فى بلاد اليمن بعد موت معد يكرب

وفى سنة ٦٣٢ عاد الملك الى آل لخم فتولى منهم المنذر الملقب بالمغرور وكانت ولايته الى ان قدم عليه خالد بن الوليد ثمانية أشهر وهو آخر من بقي من بني نصر بالعراق

جاء الاسلام وملك العرب بالحيرة ضعيف جداً ، كما كان في اليمن لان الملك كان عاملا للفرس يأتمر بأمرهم ويؤدي لهم الخراج واذا شاء

ملوك الفرس ابقوه وان شاءوا عزلوه. ولم يكن سلطانهم على قبائل البدو سلطاناً تاماً وانما كان اسمياً لان العرب كثيراً ما كانوا يخالفون أمره بل ويقومون فى وجهه محاربين وكان احيانا ينتصر عليهم اذا قاموا فى اماكنهم واحيانا يخفق لأنهم يتركون منازلهم ويجتمعون ببواديهم فلا يمكنه ان يتبعهم

وما يدل على مقدار سلطانهم على رؤساء العشائر العربية ان عمرو بن المنذر بن ماء السماء وامه هند بنت الحارث بن عمرو الكندي قال يوما لجلسائه هل تعلمون احداً من العرب يأنف ان تخدمه امى قالوا ما نعرفه الا ان يكون عمرو بن كلثوم التغلبي فان امه ليلى بنت مهلهل وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم وابنها عمرو فسكت عمرو على ما في نفسه ثم ارسل الى ابن كلثوم يستزيره ويأمره ان تزور امه هندا بنت الحارث ام الملك فقدم ابن كلثوم فى فرسان من قومه تغلب ومعه امه ليلى فنزل على شاطىء الفرات وضرب ابن هند خيامه بين الحيرة والفرات وصنع لاهل مملكته طعاماً وجلس هو وابن كلثوم ووجهاء الدولة داخل السرادق وليلى ام عمرو مع هند في القبة وقد قال ابن هند لامه اذا فرغ الناس من الطعام فنحي خدمك عنك فاذ دنا الطرف فاستخدمي ليلى ومريها ان تناولك الشيء بعد الشيء ففعلت ما أمرها به ابنها فلما استدعي الطرف قالت هند لليلى ناوليني ذلك الطبق قالت لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها فألحت عليها فقالت ليلى

واذلاه يا آل تغلب فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه والقوم

يشربون وقام وتناول سيف ابن هند وهو معلق في السرادق وليس هناك سيف غيره فاخذه وضرب به رأس ابن هند فقتله وقال في ذلك شاعر التغلبين :

لعمرك ماعمرو بن هندوقد دعا لتخدم ليلى أمه بموفق
فقام ابن كلثوم الى السيف مصلتا وأمسك من ندمانه بالمخنق

وقال ابن كلثوم فى معلقته :

باى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا
تهددنا وتوعدنا رويداً متى كنا لامك مقتوينا
فان قناتنا ياعمرو أعيت على الاعداء ـ قبلك ـ أن تلينا



المحاضرة الرابعة

الملك بالشام — الامارة بالحجاز ـ الحكم عند العرب

الملك بالشام

فى العهد الذى سار فيه عرب اليمن الى ريف العراق كان من قضاعة قبائل سارت الى مشارف الشام وسكنت بها لانها أرض خصبة يمكنهم ان يعيشوا فيها وكانوا من بنى سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سعد ابن سليح ويقال لهم الضجاعمة نسبة الى أبيهم ضجعم وكانت هذه البلاد تحت ملك الرومان بعد غزوات الاسكندر المقدوني وفتوحاته فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العيث وليكونوا عدة ضد الفرس وولوا منهم ملكا ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة وقد مكثت الضجاعمة عهداً طويلا يلون أمر العرب حتى أقبل عليهم بنو جفنة الغسانيون بمن معهم من عشائرهم يقدمهم جفنة بن عمرو مزيقيا فغالب السليحيين على مايدهم وانتصر عليهم فولته الروم ملكا على عرب الشام الذين كانوا يقيمون بنواحي الشام وكان هذا العصر عصر اضطراب فى المملكة الرومانية ويسمي في تاريخهم مدة الفوضى العسكرية وانتهت سنة ٢٨٦ م

ولم تزل الملوك تتوالى من آل جفنة على الشام وما يليه من بادية العرب

بصفتهم عمالا لملوك الروم حتى جاء الاسلام وكانت واقعة اليرموك سنة ١٣ من الهجرة وانقاد للاسلام آخر ملوكهم جبلة بن الايهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

وكان لبنى جفنة بالشام مدنية اقتبسوها من الروم فبنوا كثيراً من المصانع والاديرة لأنهم كانوا يدينون بالدين المسيحي

وكان حسان بن ثابت كثيراً مايمدحهم لانه ينتمي الى أصلهم وهو الازد وله فيهم المدح الجليلة منها قوله :

أولاد جفنــة حول قبر أبيهم　　قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ماتهر كلابهم　　لا يسألون عن السواد المقبل

وكان لآل جفنة مواقف معدودة انتصروا فيها للروم على الفرس وصدوا عنهم ملوك الحيرة من آل نصر ، فكان بين البيتين أيام هائلة منها يوم عين أباغ (وهي واد وراء الانبار على طريق الفرات ـ الى الشام) كان بين المنــذر بن ماء السماء وبين الحرث الاعرج بن أبي شمر جبلة وهو من أعظم ملوك الغسانيين وكانت الغلبة فى هذا اليوم لآل جفنة مع أن المنــذر هو الذى بدأ بالشر لانه كان يريد من خصومه أن يدفعوا له الفــدية بمعنى أنهم يعترفون له بالقوة عليهم وفي هــذا سقوطهم أمام الروم الذين اصطنعوهم

وكان من نتيجة هذا اليوم أن الاسود بن المنذر لما ولى بعد أبيه أراد الانتقام له فجهز جيشاً تحت قيــادته وسار الى ان أتى مرج حليمة وهنــاك قابلته جيوش الغسانيين وكان لهؤلاء الظفر أيضا

الامارة بالحجاز

كان يلي أمر مكة ولاة من جرهم قحطان ـ وهي جرهم الثانية ـ ولماجاء اسماعيل مكة مع أبيه ابراهيم صاهرهم : وكان لاولاد اسماعيل بعد أبيهم مركز محترم لما لابيهم من بناء البيت وان لم يكن لهم من الحكم شيء . ولما ارتحل الازد من مأرب بعد السد ، كان منهم من عرج على مكة وهو حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة وحارب جرهم فانتصر عليهم وأجلاهم من مكة حتى قال قائلهم :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى : نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

ووليت خزعة أمر مكة حينا من الزمن وفي وقت حكمهم تناسل العدنانيون وكثروا وانتشروا في نجد وأطراف العراق والبحرين ، وبقي بمكة أولاد فهر بن مالك وهو قريش وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب وهو الاب الخامس لمحمد بن عبد الله ﷺ فجمع شتاتهم ووحد كلمتهم فكانت لهم بذلك قوة أمكنهم أن يزاحموا بها خزاعة ويتغلبوا على أمر مكة ، ولم يبق الا أمر ولاية البيت أخذه قصي من سادنه المكنى بأبي غبشان وهو صهر قصي ، ويقال انه اشتراه منه بزق خمر ، ولم يكن يمكنه مثل هذه الصفقة الا بالقوة التى كونها من عصبية فهر بن مالك وبهذا كانت له السيادة التامة والامر النافذ فى مكة ، وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذى كانت تفد اليه العرب من جميع انحاء الجزيرة ، ومن مآثر قصى

تأسيس دار الندوة بمكة وكانت مجمع قريش وفيها تفصل مهام أمورها ولهذه الدار فضل على قريش لانها ضمنت لهم اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى : وكان لقصي من مظاهر الرئاسة والتشريف :

(١) رئاسة دار الندوة ففيها يتشاورون فيما نزل بهم جسام من الامور ويزوجون فيها بناتهم

(٢) اللواء فكانت لا تعقد راية الحرب الا بيده

(٣) الحجابة وهي حجابة الكعبة لا يفتح بابها الا هو وهو الذي يلي امر خدمتها

(٤) سقاية الحاج ورفادته : ومعنى السقاية أنهم كانوا يملأون للحاج حياضاً من الماء يحلونها بشيء من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها اذا وردوا مكة : والرفادة طعام كان يصنع للحاج — على طريق الضيافة وكانت قريش تساعد قصياً على ذلك بما تقدمه له من الخرج الذى تخرجه كل سنة

كان كل ذلك لقصي بن كلاب وكان ابنه عبد مناف قد ساد فى حياة أبيه فأراد ابوه أن يلحق به ابنه عبد الدار الذى كان أسن من عبد مناف فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش ، فلم ينازع عبد مناف أخاه لاحترامه وصية أبيه : ولما مات كان له أربعة من الولد وهم هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل فنافسوا بنى عمهم عبد الدار في هذه المصالح التى رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرة عددهم وبذلك ابتدأ النزاع بين بنى العم ، وسببه المنافسة فى الشرف وافترقت قريش فرقتين :

فرقة تساعد بني عبد مناف وفرقة تساعد بني عبدالدار ، وكاد يكون بينهم قتال لولا أنهم ألهموا الصلح على طريق لا يغض من الطرفين وهو اقتسام هذه المصالح فجعلوا لبني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة ، ولبني عبدمناف السقاية والرفادة . ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم ابن عبد مناف فكان هو الذي يليهما ؛ ومن بعد بنوه حتى جاء الاسلام والامر على ذلك .

وكانت لقريش مصالح أخرى لا تساوي هذه في العظم — وزعت بين قبائل قريش وبذلك كانت مصالح الحكم والولاية موزعة بين رؤساء القبائل المختلفة من قريش حتى لا يكون هناك مجال للنزاع وهذا ما حفظ قريشاً مما أصاب سائر العرب من التنازع والقتال ، الا أنهم وان لم يصابوا بمصيبة الحروب لم يسلموا من المنافسة التي تكون حتما بين كبراء البيت الواحد ، اذا كان لكل واحد ما يساعده على الشرف والرئاسة ، وقد حدث ذلك بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أميه بن عبد شمس ، فقد كان هاشم سيداً بماله من المصالح الكبرى في قومه ، وكان امية مثرياً من المال والولد ، ولذلك كان ينافس عمه رئاسة قريش ، فكان بذلك جفاء بين البيتين وأعقابهما حتى جاء الاسلام ، ولكن لم يصل هذا النزاع يوماً الى حد شبوب القتال بينهم لان البيت القرشي كان يحاذر على احترام البيت ومنع الحرم من سيلان دم فيه ، لان ذلك لو وقع لانحط المركز السامي الذي نالوه بواسطة ولايتهم للبيت فان مكة كانت معروفة عندالعرب بأنها حرم آمن من لجأ اليه فقد نجا من عدوه وكانت أشهر الحج عندهم أشهراً

حرماً يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب ذلك البيت العظيم وداخل حدود الحرم والناس تهرع الى هذه الاسواق من جهات العرب كافة لأنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم فاذا أخل ولاة الحرم بهذا العهد الوثيق قل احترامه من القلوب وسقطت هيبته فيجترىء عليه غيرهم ، وبذلك يزول عنهم نفع عظيم كان ينالهم : فمن هنا كان التحكيم فى الامور العظيمة من مألوف عادتهم

ولما حصلت الحرب بين قيس وكنانة واضطرت قريش اليها اضطراراً سمتها العرب حرب الفجار لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم والقتال على حدوده

ومما امتازت به قريش حلف الفضول ، وكان مداره على أن ترد كل مظلمة بمكة الى صاحبها لافرق في ذلك بين قرشى وغيره ، وهي روح تنافى الحمية الجاهلية التى كانت العصبية تثيرها

جاء الاسلام وقريش على هذه الحال من السيادة والاحترام — تعترف لها بذلك جميع العرب

الحكم عند الأعراب فى بواديهم

كانت القبائل فى نجد : ما كان بالقرب من الحيرة تبعاً لملك العرب بالحيرة : وما كان منها فى بادية الشام تبعاً لملك آل جفنة بالشام ، إلا أن هذه التبعية — بالنسبة لقبائل البادية — كانت اسمية لا فعلية لان العرب لا يطيقون أن يحكموا حكما ملوكياً يقيد حريتهم التى ليس عندهم ما يعدلها

وكان لهذه القبائل رؤساء منهم تسودهم القبيلة لما يظهر على أيديهم من الفعال وأعظم مسود كان عندهم الشجاعة والكرم والحلم ثم الثروة والعدد فمتى وجدت هذه الصفات في رجل ساد العشيرة كلها ، وكانت تبعاً لرأيه يوجهها انى شاء ! تقيم باقامته وتظعن بظعنه ، واذا دعا الحرب لا تتأخر عنه واذا غنمت القبيلة أخذ حقوق الرئاسة والسيادة من الغنيمة يعدها لما يطرأ من النوائب وما يتحمله من الحمالات فكان له المرباع والصفي والنشيطة والفضول : فالمرباع ربع الغنيمة والصفي ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة والنشيطة ما أصاب الرئيس في الطريق قبل ان يصل الى بيضة القوم ، والفضول مافضل من السقمة مما لاتصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوها : قال بعض الشعراء يخاطب بسطام بن قيس سيد شيبان

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

وقد يورث الاب الرئاسة لابنه فاذا توالى من البيت الواحد ثلاثة رؤساء سادة عرف البيت بالشرف والمجد ، وكان بيت قيس في الجاهلية في بنى فزارة ومركزه حذيفة بن بدر ، وبيت تميم في بنى دارم ومركزه حاجب ابن زرارة ، وبيت ربيعة فى آل ذى الجدين ، ومركزه قيس بن مسعود الشيباني : وكان لهؤلاء الرؤساء من السلطان ما يشبه سلطان الملوك فى رعاياهم الاانهم كانوا لايتتوجون حتى كان بعضهم اذا غضب غضب لغضبه ألوف من السيوف لاتسأله فيم غضب ! وكان في بعض الاحيان يعظم قدر الرئيس ويشتد ساعده بولده وعشيرته فيغزو القبيلة الضعيفة ويجعلها خاضعة تؤدي

له خرجاً كل سنة ، كما كان زهير بن جذيمة سيد عبس – من قيس مع هوازن وهم بطون من قيس فانهم كانوا يؤتونه الاتاوة كل سنة بعكاظ ، وكان النعمان بن المنذر قد صاهره فتزوج ابنته المتجردة

وممن ساد من العرب هوذة بن على الحنفي سيد بنى حنيفة باليمامة والمنذر بن ساوى التميمي — سيد عبد القيس : وتميم بالبحرين

وعلى الجملة : فقد كانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك ولولا ما كان يحصل من المنافسة فى السيادة بين أبناء العم من الرؤساء لكان تحكم السادة شديداً ، ولكن تلك المنافسة كانت تدعوهم الى بذل الندى واكرام الضيف والدفاع عن العشيرة ليشتهر ذلك على ألسنة الشعراء منهم فيهتفون بأسمائهم مادحين : والشعر كان له أعظم التأثير في قلب العربى يحركه كما يحرك الهواء ريشة فى الجو !!

المحاضرة الخامسة

الحال الادبية

الاخـــــلاق ـــ اللغة

الاخلاق

الخلق هو الملكة التي بها يصدر الفعل عن صاحبها من غير مقاومة وقد اصطلح الكتاب على أن يقصر لفظ الخلق على الملكات النفسية كالشجاعة والجبن والسخاء والبخل ، وعلى أن يطلقوا لفظ العادات على الملكات الاخرى كالمشى واللعب النظامي

عموم الاخلاق

لا يحسب الخلق على الامة الا اذا كان مألوفاً عند أفرادها يفعله فاعله منهم من غير أن يحاذر نكيراً أو يخشى لومة لائم ولو لم يباشره جميعهم ولذلك عد من مذام الامم — التي بها تستحق السقوط والخذلان — أنهم لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ومن هنا قال الله تعالى في الكتاب (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لان الشرير يفعل فلا ينكر عليه أحد فيشترك هو ومن معه فى الجريمة . فان كان الشر معروفاً عن فرد أو

جماعة يستسرون به أو يعلنونه مع اشمئزاز الجمهور منهم كانت المذمة قاصرة على الفاعلين لا تعدوهم الى الامة بأسرها، وحينئذ يكون من الخطأ عد هذا الخلق على الامة . كذلك لا يحسب الخلق للامة الا اذا كان فاشياً بين أفرادها مألوفاً عند جميعهم لا يخالفه أحد منهم الا مستسراً ويخاف المذمة ان ظهر بالمخالفة أمام الجمهور ، وعلى هذه القاعدة نسير فى بيان الاخلاق عند العرب

من الاخلاق التي كانت للعربى سرعة الانفعال والاقدام على المكاره تراه ساكناً مطمئناً فلا تحتاج في هيجه الا الى كلمة صغيرة أو فعلة حقيرة يتخيل معها أن قد مس شرفه فتجده زأر كالاسد خرج من مكمنه لا يتريث حتى يستطلع جلية الامر ، بل يقدم منكباً عن ذكر العواقب جانباً ! وهذا الخلق أكثر ماتراه في قبائل البادية الذين كانوا لا يخشون سجناً ولا احكاماً قاسية من جراء أفعالهم ، بل هم بالعكس ينتظرون النصر المؤزر من أقوامهم وحلفائهم ، والنفس اذا أحست بما يضرها انفعلت وتهيأ لها طريق الانتقام ، فاذا لم تخش العادية أقدمت ، ومن هنا كان من السهل تحريك عامتهم الى السير فى طريق الحروب بقليل من الكلمات ، وكانت هناك كلمات تحرك قلب العربي كما في كل أمة وأرقاها درجة فى التأثير . يا لفلان واذلاه ! وانصيراه ! شرف الآباء ! وما شاكل ذلك ، ولم يكن عندهم شيء من بلادة الطبع التى تجعل صاحبها يأنف سماع ما يهين شرفه حسبما يتخيل ويتبع هذا الخلق الجرأة على سفك الدم ! لان النفس متي تهيأ لها طريق

الانتقام وقـدرت ولم تخش عقوبة لم تـكتف بدون الموت لمن تريد الانتقام منه

ومن هنا كان خلق الحلم فيهم عزيزاً اللهم إلا فى سـادتهم وذوى الاسنان منهم ولذلك كان المعروفون بالحلم منهم قايلون

ومن أخلاقهم التعصب . ومعناه أن ينصر ذا عشيرته على أية حال يرون ذلك من مقومات حياتهم وقد تقدم بيان هذا بوضـاحة في حال العرب الاجتماعية ، وقد سمي القرآن هذا الخلق وما قبله حمية الجاهلية لأن يهما نتيجة من نتائج الجهل وعدم التثبت

ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم الـكرم وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين متمدح به ومتن على غيره * كان الواحد منهم يأتيه الضيف – في شدة البرد والجوع – وليس عنده من المـال الا ناقته التى هي حياته وحياة ولده فتأخذه هزة الـكرم فيقوم اليها ويذبحها لضيفة يخشون مذمات الاحاديث ويقول قائلهم :

واعلم بأن الضيف يو ماً سوف يحمد او يلوم

ومن طريف اخبارهم فى الـكرم ان سالم بن قحفان من بنى العنبر جاءه اخو امرأته فاعطاه بعيراً ثم طلب من امرأته حبلا يقرن به بعيره الى من اعطاه اياه ، ثم ثانياً وثالثا حتى لم تجد حبلا ! فقال لها على الجمال وعليك الحبال ، فرمت اليه خمارها وقالت اجعله حبلا لبعضها فقال :

لا تعذليني فى العطاء ويسري لـكل بعير — جاء طالبه — حبلا

فاني لا تبكي على افالها اذا شبعت من روض اوطانها بقلا
فلم أر مثل الابل مالا لمقتن ولا مثل ايام الحقوق لها سبلا

فاجابته امرأته :

حلفت يميناً يا ابن قحفان بالذى تكفل بالارزاق في السهل والجبل
تزال حبال محصدات اعدها لها ماشى منها على خفه جمل
فأعط ـ ولا تبخل ـ لمن جاء طالبا فعندى لها خطم وقد زاحت العلل

ويرى المطلع على أبواب الحماسه والرثاء والادب والاضياف ـ من ديوان الحماسة الذى جمعه حبيب أوس الشهير بأبي تمام ـ ما يثلج الصدر

ومن أخلاقهم التى كانوا يتمدحون بها ويعيبون من خالفها الوفاء بالعهد فقد كان العهد عندهم دينا يتمسكون به ويستهينون فى سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب ديارهم: أنظروا لى مافعله هانىء بن مسعود الشيبانى بسبب ادرع النعمان بن المنذر وأولاده حيث عرض نفسه وقومه لحرب أضخم دولة وهي الدولة الفارسية فأغضب ملكها ونائبه على الحيرة غير مبال بما يصيبه وما يصيب قومه من جراء ذلك؛ ثم انظروا الى مافعله السموءل بن عادياء وهو عربي المقام والمولد حينما خيره الحارث الغسانى بين قتل ولده وتسليم ادرع امرىء القيس بن حجر الكندى التى كان أودعها عنده ففضل قتل ولده، وفى ذلك يقول الاعشى مخاطباً شريح بن عمرو الكلبي :

كن كالسموءل اذ طاف الهمام به في جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير غدار
خيره خطتى خسف فقال له اعرضهما هكذا اسمعهما حار

فقال غدر وثكل أنت بينهما فاختر ، وما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ، ثم قال له أقتل أسيرك اني مانع جارى
وسوف يعقبنيه إن ظفرت به ـ رب كريم وبيض ذات أطهار
فاختار أدراعه أن لايسب بها ولم يكن عهده فيها بختار

ثم انظر الى مافعله حاجب بن زرارة التميمي سيد بنى تميم كيف وفى للملك بما تعهد به بعد ان رهن على ذلك قوسه عند كسرى حتى ضرب المثل بقوس حاجب ، والقوس فى الحقيقة لايمنعه رهنها من فعل ما يشاء إن كان من شميته الغدر ، وانما خاف السبة على بنيه من بعده ـ اذا هو غدر ومما يبين لنا قيمة هذا الخلق في الامة العربية انهم كانوا اذا زل واحد منهم زلة فغدر بذى عهد أصلاه الشعراء ناراً حامية وقلما يفلح بعدها أو يرفع له رأسا بين العرب

وخلق الوفاء في الحقيقة أعظم ممثل للامة ومبين لمقدارها واستعدادها للرقي فان خلت منه فبشرها بخذلان وسقوط لامحيص عنهما

ومن نتائج هذا الخلق انهم كانوا يغلون في الوفاء للجار والحليف حتى يكون عندهم مقدما على الابناء والاخوان . ومن ذلك أن رجلا من السواقط من بنى أبى بكر بن كلاب قدم اليمامة ومعه أخ له فكتب له عمير بن سلمى أنه له جار فحدث ان كان بين قرين بن سلمى وبين أخى الجار اسباب أدت الى ان قتله قرين ، وكان عمير غائباً فأتى الكلابى قبر سلمى أبى عمير وقرين فاستجار به ، فاجتهد بنو حنيفة بالكلابى أن يقبل دية أخيه مضاعفة فلم يفعل ، فلماقدم عمير قالت له أمه لاتقتل أخاك وسق الى الكلابى جميع ماله ،

فأبى الكلابي ان يقبل فأخذ عمير أخاه ومضى به حتى قطع الوادى فربطه الى نخلة وقال للكلابى : اما اذ أبيت الا قتله فامهل حتى أقطع الوادى وارتحل عن جواري فلا خير لك فيه فقتله الكلابى . وفى ذلك يقول عمير

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره

وقالت أم عمير

تعد معاذراً لا عذر فيها ومن يقتل أخاه فقد ألاما

أما أمرهم مع حلفائهم فهو أوضح من أن نتكلم فيه فانهم كانوا يخلطون حلفاءهم بانفسهم ويوفون لهم بايمانهم التى عقدوها معهم وكان الحليف يعد من أفراد القبيلة التي دخل في حلفها وينال شرفها ، وقد كان حلفاء قريش فى الجاهلية يتزوجون بناتهم مع أن قريشاً كانوا يضنون ببناتهم عن أى قبيلة أخرى لايرون أحداً من العرب لهن كفءاً الا من دخل في حلفهم ومن اخلاقهم التي كانت بجانب الكرم والوفاء الشجاعة وهى قوة في النفس تحمل صاحبها على الاقدام على المكروه ، وباب الحماسة في أشعارهم أكبر من باب الكرم لان الشجاعة خلق يظهر فى جميع الافراد أما الكرم فانه لايظهر أثره بجلاء الا عند أرباب الاموال الذين يمكنهم أن يعطفوا على الفقراء والمعوزين ، وقد اشتهر من العرب كثيرون امتازوا على أقرانهم فى شدة اليأس وقوة القلب: وكان فيهم من نتائج حمية الجاهلية ضعف خلق الرحمة بمن يقع تحت أيديهم من أعدائهم

وقد بقيت بعد ذلك أخلاق كانوا يتواصون بها في أشعارهم ولكننا لايمكننا ان نقول إنها كانت أخلاقا عامة لجمهورهم ومن يطلع على كلامهم

فى أبواب الادب يجد من وصاياهم الجميلة وحكمهم الجليلة شيئا كثيراً يذهب بنفس قارئه كل مذهب ويجعله يحكم ان هذه الامة مع ما كانت عليه من البداوة وشظف العيش — لم تخل من حكماء أودعوا أشعارهم مايفيد من بعدهم : ولنتكلم بعد ذلك على شيء من عاداتهم حسبما قدمنا من الاصطلاح

من العادات المتأصلة التى كان العرب يتمدحون بها الميسر ! ؛ وكانوا يرون انه سبيل من سبل الكرم لانهم كانوا يطعمون المساكين ماربحوه وكانت طريقتهم في لعبه أن يجتمع الفتيان وذوو اليسار ويشترون جذوراً يقسمه الجزار الى عشرة أجزاء ، ثم يجاء بالقداح وهى عيدان من نبع قد نحتت وملست وجعلت سواء فى الطول وهي عشرة : الفذوالتوأم والرقيب والجلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوعد ، والثلاثة الاخيرة غفل من العلامات لانصيب لها إنما جيء بها لتكثير العدد والسبعة الاول عليها علامات تبتديء من الواحد وتنتهي الى السبعة للمعلى فيأخذ كل من الفتيان حسب مقدرته واستعداده ثم يدفعون هذه القداح الى رجل أمين يقال له امير المقامرين فتدفن فى الرمل او توضع في خريطة ويلف على كف الامين قطعة من جلد لئلا يحابى احداً من المقامرين فيخرج له قدحه ويجلس خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم ثم يدخل الامين يده فيخرج قدحا : ولنفرض ان الخارج هو الفذ فيكون صاحبه فائزاً له عشر الجزور ثم تضرب

القداح على تسعة الاجزاء الباقية فان خرج التوأم فلصاحبه جزآن ثم تضرب القداح فان خرج المعلى فلصاحبه السبعة الباقية ويكون الغرم على الباقين وعدد سهامهم ١٨ فيجزا الثمن علي ١٨ جزءاً يدفع منها كل قدر سهامه ، وان خرج فى اول الضرب الرقيب فاز صاحبه بثلاثة اجزاء ويضرب على السبعة الباقية فان خرج بعده المسيل اخذ ستة اجزاء وبقي واحد فلا يمكن ضرب القداح عليه لان مايستحق اكثر من جزء فيشترون جزوراً اخرى يقسمونها كالاولى فيكون الباقى ١١ جزءاً يضربون القداح عليها فان خرج المعلى اخذ سبعة وبقي اربعة فلا يمكن ضرب القداح عليها لان منها النافس ، وله خمسة اجزاء فينحرون جزوراً أخرى فيكون الباقي ١٤ جزءاً فاذا خرج النافس أخذ خمسة أجزاء ثم يضربون فاذا خرج الحلس أخذ اربعة ثم التوأم وله اثنان : ثم الفذ وله واحد فالمجموع ١٢ جزءا ويبقى جزآن يوزعان على الفقراء وكل من ربح فى جزور ليس عليه من ثمنها شيء ويدفعه الذين لم يربحوا فثمن الجزور الاولى يقسم على ١٨ جزءاً ، وهى لمن عدا الرقيب والمسبل والمعلى . وكذلك ثمن الثالثة

والتصدق بالربح على الفقراء هو منفعة الميسر التى اثبتها الكتاب ولكن لما كانت المفسدة تربو على هذه المصلحة حرمه الدين الاسلامى وهذه المفسدة هى أنه يوقع العداوة والبغضاء بين اللاعبين ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة لان المقامر غافل عن كل شيء

ومن عاداتهم التي يتمدحون بها ـ شرب الخمر يرون انها كذلك سبيل من سبل الكرم ! ومما يسهل السرف على النفس : لذلك تجدها فى الشعر

العربي بابا من أبواب المديح والفخر : ومن أحسن ماقيل فى شربها من جهة الاسلوب اللغوى قول عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بازهر بالشمال مفدم
فاذا سكرت فانني مستهلك مالى وعرضي وافر لم يكلم
واذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمى

والشرب ـ فى وقت عنترة هذا ـ كان يسمى عندهم بالغبوق وبعضهم كان يشربها صباحا ويسمى الصبوح

وقد شرك الكتاب بين الخمر والميسر فى التحريم ، لان المنفعة فى كليهما واحدة والمفسدة الزائدة واحدة فقال (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما) ثم بين هذا الاثم مرة أخرى فقال (انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) وهذا إثم يربو على كل منفعة

وهنالك عادات أخرى كانت تدعوهم اليها أديانهم سنتكلم عنها فى مبحث الدين

لغة العرب

اللغة العربيه إحدى اللغات السامية تكلم بها العرب فى جزيرتهم مدخلها قحطان رأس قبائل اليمن ويسمون في التاريخ بالعرب العاربة لاصالتهم فى العربية ومن قبائل اليمن قبيلة جرهم الثانية التى سارت الى مكة واحتلتها

قبل ان يردها اسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام، فلما جاءها اسمعيل صاهرهم وأقام معهم وكثرت بنوه بمكة وكان اسمعيل رجلا عبرانيا يتكلم باللغة العبرانية وهي الثانية من اللغات السامية وأمه هاجر امرأة مصرية . أخذ اسمعيل لغة العرب عن جرهم الذين عاشرهم ولكنه بحكم الضرورة أدخل في اللغة العربية بعض ما يحفظه من الكلمات العبرانية وبعض ما تحفظه أمه من اللغة المصرية بعد ان هذبت بحسب مايسهل على اللسان العربى وهذا أمر يسهل القول به لان اسمعيل وأمه لا يمكنهما ان ينسيا بالمرة مافى أنفسهما من الكلمات المحفوظة واذا احتاجا الى التعبير عن معنى لم توضع له كلمة في لسان جرهم يفزعان الى مامعهما وهذا مشاهد في تفاعل اللغات المستعملة والمؤرخون يسمون اسمعيل وبنيه بالعرب المستعربة لما كان من دخولهم في العربية وليس أصلهم منها

بذلك كانت اللغة العربية فرعين : الفرع العربى الحميري وهو لغة العرب الاصلية والفرع العدنانى أو الحجازى وهو لغة بنى اسمعيل ولهجة اللغتين وطرق التعبير بهما لايختلفان وانما الخلاف فى ألفاظ يستعملها الحميريون ولا يستعملها الحجازيون وبالعكس، والمتتبع لالفاظ أهل اليمن وما كان يكتب اليهم بلسانهم يرى غرابة سببها عدم الالف لسماع تلك الالفاظ ويحس منها بصلابة لايجدها فيما يرادفها من الالفاظ الحجازية

معلوم ان اللغة انما يتكلم بها أصحابها تبعاً لحاجتهم فالمفهوم انها تكون فى بدء نشأتها كلمات قليلة يتواضع عليها الناس بحسب مايعن لهم من الحاجات

ويكون اكثرها من الكلمات الدالة على مايقع عليه الحس وكلما اتسعت دائرة الحاجات وأدركت المعاني المعقولة استدل عليها بكلمات تنبيء عنها .لذلك كانت اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية في حركة مستمرة ونمو سريع

وكان للعرب فى توسيع مادة اللغة طرق ثلاث :

الاول — تجديد الوضع وكانت القبائل تلجأ اليه أحياناً وربما اختلفت مواضعتهم فيجيء للمعنى الواحد كلمتان أو أكثر ،وقد يكون بعض الاسماء مشتقاً من صفة في المسمى وبهذا يجيء مايسمونه بالترادف وأكثر مانجده فى أسماء الاشياء التى هى عند عامتهم لايستغنى عنها فريق منهم كالسيف والرمح والجمل والكلب والهر وماشاكل ذلك

الثاني — التجوز فقد كانوا ينظرون الى الشيء الجديد فيجدون بينه وبين شيء آخر له اسم عندهم ارتباطاً أو تشابهاً فيطلقون لفظ الاول على الثاني ومع تطاول الزمن ينسى أول الشيئين وآخرهما فيظن المطلع أن الكلمة وضعت فى اصل اللغة وضعاً ابتدائياً لكل من المعنيين ويحكم بأن الكلمة مشتركة وقد يغيب عن الناظر ما تخيله العرب من الارتباط بين المعنيين فيقول بتعدد الوضع . وللعرب في هذا التجوز دقائق تأخذ باللب يدركها من عنى بلغتهم ، وكانوا دائما يكنون عن المعاني التى لايرونها شريفة ولايليق التصريح بأسمائها بألفاظ مستعارة واصلها موضوع لمعنى شريف ، ومتى شاعت الكلمة وكادت تكون صريحة فى المعنى الخسيس عدلوا عنها الى غيرها من الالفاظ المستعارة ، ولذلك نرى كثيراً من الكلمات ابتليت بانها استعيرت وقتاً ما لمعان خسيسة ثم بقيت لهاتلك المعاني بسبب عدم الاعتناء من نقلة اللغة

وللعرب نوع آخر من التجوز وهو التعبير باللفظ وارادة ما يلزمه حسبما يتخيلون من هذه الملازمات وهي المسماة فى اصطلاح البيانيين بالكنايات

الطريق الثالث — طريق التعريب وهو استعارة اللفظ من لغة أخرى بعد صقله وتهذيبه وكان لهم فى التعريب الشأو الواسع ، لان العرب اشتغلوا بالتجارات والاسفار وساكنوا الفرس والروم والحبش ، وكانت ترد على حواسهم أشياء جديدة لم يكونوا قد رأوها فسرعان ما يأخذون عن تلك الامم اسمها بعد أن يتلاعبوا به قليلا حتى يكون على نمط نطقهم واكثر هذه الكلمات أدخلت في اللغه قبل الاسلام بزمن ليس بكثير

وأعظم واسطة كانت لاشاعة الكلمات المعربة والمتجوز بها حتى يستعملها الجمهور الشعر العربى فان هذا الشعر كان لهم بمثابة الجرائد عندنا ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتتلقفها الاسماع وتدور بعد ذلك على ألسنتهم وكانت أسواقهم التى اليها يجتمعون لالقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب من البيت الحرام وهي عكاظ ومجنة وذو مجاز

فاما عكاظ فهو بين نخلة والطائف وكانت تعقد في اول ذى القعدة الى عشرين منه ومجنة بمر الظهران ينتقلون اليها من عكاظ فيقيمون فيه الى غاية ذي القعدة وذو مجاز خلف عرفة يقيمون فيها ثمانيا من ذي الحجة ثم يعرفون في التاسع الى عرفة وهو يوم التروية . وكان شعراء العرب يفدون من كل صوب ومن كل قبيلة ينشدون ماجادت به أفكارهم وهناك ينال الشعر ما يستحقه من التشريف والتكريم وربما امتازت بعض الكلم الشعرية بالشرف الرفيع

كما قالوا فى المعلقات السبع وما يقاربها مما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب واكثر المتأزين من الشعراء هم العدنانيون ومن جاورهم من يمن كامرىء القيس الذى كان أبوه ماكا فى نجد على بنى أسد وشعراء الاوس والخزرج الذى كانوا بالمدينة وطيىء وكلب المقيمين في شمالى الجزيرة

وكانت قبائل البدو أقل العرب تعريباً لقلة الحاجة عندهم ولان معاشرتهم للامم الاخر تكاد تكون معدومة بخلاف أهل الحيرة والرحالين من غيرهم ولذلك تري بعض رجال اللغة لا يحتجون بمثل عدى بن زيد العبادي الحيرى وأمية بن أبي الصلت الثقفي لانه كان ذا أسفار يخالط العلماء ويقتبس منهم وقد أدخل كل منهما كلمات فى اللغة لم يسبق الى استعمالها وليس هذا بضائرهما عند من كان ذا نظر أوسع من ذلك

كل هذه الطرق أفادت اللغة العربية فائدة كبرى وهي سعتها وقدرتها على التعبير عما يكنه الصدر من المعانى فكانت وافية بحاجتهم على قدر ما اتصلت به معلوماتهم وفوق ذلك صارت مستعدة لان تقتبس من غيرها مايرى المتكلمون بها أنفسهم في حاجة اليه حسبما شرع العرب من هذه الطرق ولا تحتاج اللغة الي اكثر من هذا في استعدادها للحياة الدائمة بعد أن تكون سهلة سلسة على الالسنة والاسماع وهذا ما نحس به فى هذه اللغة الجميلة

جاء الاسلام واللغة قد رقيت أعظم درجة كانت تمكن لها فى عهد العرب فكثر الشعراء النابغون والفصحاء القوالون ، يتباهون فى مواقفهم المدودة لهم بما أوتوه من الفصاحة واللسن ، وتعد القبيلة نفسها ذات حظ

عظيم اذا هي رزقت شاعراً ينافح عنهـا فى المجامع وربما أولمت الولائم فرحاً بذلك واستبشاراً ، وكان لقريش خاصة من الفصاحة والحكم المقبول ماليس لغيرهم ، ولذلك كانت اللغة القرشية ممتازة تدين لها العرب وتعترف لها بالسبق.

ومن أراد ان يرى مثالا واضحاً من رقة لغة العرب وتفنن شعراء العرب في جميل المعانى فليطلع على ما اختاره أبو تمام الطائي من شعر العرب وعلى ماجمعه أبو على القالى فى أماليه ، وما جمعه أبو العباس المبرد في كامله ، وما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب فان ما فى هذه الكتب يكاد يكون زبدة أشعارهم وخلاصة أفكارهم وليس يعاب على بعضهم الا أشياء قليلة جمعوها وكان أجدر بهم لو تركوها وهو تراب قليل جداً في جانب الذهب الوفير



المحاضرة السادسة

الكتابة — العلوم — الدين

الكتابة عند العرب

كان العرب باليمن يخطون فكان خطهم يسمى بالمسند ولم تكن الكتابة عندهم بالشيء الذائع يتناوله جميع الافراد وانما كان في الخاصة منهم كما كان الشأن فى الكتابة المصرية ، ومن اليمن انتقل الخط الى الحيرة والانبار لما كان من الارتباط بين ملوك الجهتين وكانوا يسمون خطهم بخط الجزم لانه اقتطع من خط حمير ومن الحيرة نقله حرب بن أمية الى مكة وكان رجلا سفاراً فعلى عهده كان بدء الخط بمكة فتعلمه بعض رجال من قريش وكانت الكتابة فى هذه الجهات الثلاث ليست بالشيء المتداول الذائع

أما بادية العرب فلم تكن تخط حتي انها كانت لترى فى ذلك سمة عيب كما هو شأنها في بقية صناعات المدنية

ولقلة انتشار الكتابة وانحصارها في أفراد قليلين يسهل أن نعبر عن الامة العربية بأنها أمة أمية أي لا تقرأ ولا تكتب وبذلك سماها الكتاب حينما جاء الاسلام فقال (هو الذى بعث في الاميين رسولا منهم)

وعدم الكتابة سبب كبير فى اعتماد الانسان على قوته الحافظة والقوة

متى استعملت نمت لذلك كان العرب من أحفظ الامم فكانت تلقي عليهم القصائد فى المجتمعات فيتلقفونها ويتغنون بها كلا أو بعضاً وربما فاتهم الشيء منها اذا اشتبه عليهم الامر فقدموا وأخروا وهـذا سبب ما نراه في بعض الاشعار الطويلة من الاختلاف بالتقديم والتأخير والحذف والاثبات ولكون الشعر اكثر استعداداً لان يحفظ كان الباقي لنا منه اكثر مما بقي من نثرهم وخطبهم فى المحافل والمجامع

جاء الاسلام والعرب على هذا النمط من صناعة الكتابة فاخذ بيدهم الى طريق ترقيتها كما يأتي بيانه

علوم العرب

العلوم والصناعات تسير مع المدنية جنباً لجنب لان الانسان متى احتاج فتقت له الحاجة وجه الحيلة فاخترع مايسد تلك الحاجة ولذلك يقولون الحاجة أم الاختراع . وكانت العرب يغلب عليها البداوة فقلت حاجها وتبع ذلك قلة العلوم والصناعات الا ما كان منها مختصاً بما هم فى حاجة اليه وكانت الحاجة فى حواضر العرب اكثر منها في بادبتهم ولذلك كان عندهم من العلم والصناعة اكثر مما عند البادية . كانت حاجة العربي في باديته تنحصر فى الماء الذى يحتاج اليه ويصله من السماء ثم في جمله الذى هو عدته ثم فى ملبوسه البسيط الذى يقيه حر الصيف وبرد الشتاء ثم في بيته الشعرى ، ثم اداة حربه وقلما يحتاج الى اكثر من ذلك

فأما حاجته الى المطر فقد اكسبته ملاحظة الجو وتغيراته وما تنبيء

عنه تلك التغيرات من التبشير بقرب المطر أو الانذار بالجدب وقد كانت لهم في ذلك قواعد تجريبية قلما تختلف فيستدلون بالريح وباشكال السحب وبالانواء (١)

---

(١) قسم العرب المنطقة التى تتقلب فيها الشمس وتبلغ ٤٧ درجة الى اثنى عشر قسما وسموا كل قسم برجا لكل برج شهر كامل وهذه البروج منها ستة فى جنوب الدائرة الاعتدالية ومثلها في الشمال وسموا كل برج اسما بحسب ما تخيلوه من شكل الكواكب المكونة له فالتى فى الشمال هي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة التى فى الجنوب هى الميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت وتخيلوا من اجزاء هذه المجموعات الكوكبية اشكالا اخرى وهي التى يتقلب فيها القمر فى مدة دورته وقسموها الى ٢٨ منزلة لكل منزلة ليلة وكل برج من البروج الشمسية فيه منزلتان أو ثلاث وهذه هى المنازل ـ السرطان ترالبطين — النجم وهو الثريا ـ الدبران ـ الهقعة ـ الهنعة ـ الذراع ـ البثرة الطرف ـ الجبهة ـ الخراتان — الصرفة ـ العواء ـ السماء ـ الغفر ـ الزباني ـ الاكليل ـ القلب ـ الشولة ـ النعائم — البلدة — سعد الذابح سعد بلع ـ سعد السعود ـ سعد الاخبية — فرع الدلو المقدم — فرع الدلو المؤخر — الحوت

و بعد انتهاء الايام الثمانية والعشرين يبتدىء القمر فيعيد التقلب فى هذه المنازل كالمرة الاولى حتى اذا دار بها ١٣ دورة كان تمام السنة الشمسية

وهذه النجوم التى سميت بها هذه المنازل كان العرب يربطون بغروبها وشروقها التغيرات الجوية فاذا غرب منها نجم واشرق آخر سموا ذلك نوءا وفي كل ثلاثة عشر يوما نوء جديد . وقال بعض علمائهم انه لا يسمى نوءا الا اذا كان معه مطر فان لم يكن مطر فلا نوء واذا نسبوا المطر نسبوه الى النوء فيقولون مطرنا بنوء كذا يضيفونه الى الساقط وكانت لهم اسجاع محفوظة يضبطون بها ما يتبع النوء من من الحوادث الجوية مثلا قولهم الصرفة ناب الدهر لانها تفترعن البرد أوعن الحر فى الحالين . واذا طلعت العواء وجثم الشتاء طاب الصلاء وما ماثل ذلك مما لا حاجة بنا الى الافاضه فيه

ومن استدلالهم بالرياح واشكال السحب مارواه صاحب الاغاني قال خرج اعرابي مكفوف البصر ومعه ابنة عم له لرعي غنم لهما فقال الشيخ اني اجد ريح النسيم قد دنا فارفعي رأسك فانظري : فقالت أراها كأنها ربرب معزى هزلى ثم قال لها بعد ساعة اني أجد ريح النسيم قد دنا فارفعي رأسك فانظري قالت أراها كأنها بغال دهم تجر جلالها قال ارعي واحذري ثم قال لها بعد ساعة اني لاجد ريح النسيم قد دنا فانظري فقالت أراها كأنها بطن حمار أصحر فقال ارعي واحذري ثم مكث ساعة وقال اني لأجد ريح النسيم فما ترى ؟ قالت أراها كما قال الشاعر :

دان مسف فويق الارض هيدبه   يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنما بين أعلاه وأسفله   ريط منشرة او ضوء مصباح
فمن بمحفله كمن بنجوته   والمستكن كمن يمشي بقرواح

قال انجي لا أبالك : فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليهما

وحاجتهم الى إبلهم اكسبتهم بالتجارب قواعد ترجع الى ادواء الابل ومداوتها وإبعاد سليمها عن أجربها كيلا يعديه وكان لهم فى معرفة ذلك حظ وافر كما انهم استفادوا لحفظ حياتهم شيئا من الطب الانساني ومعرفة أمراض الانسان التى تنتابه فى الصحراء من أنواع الحمى التى لابد منها لمن يقيم حول منافع الماء متعرضاً لبرد الليل وحمارة القيظ وسموها بأسماء شتى على حسب أنواعها

وكان للكي بالنار في أدويتهم قصب السبق ويكاد يكون الدواء الوحيد لامراضهم الثقيلة وقد اشتهر منهم مجربون سموهم الاطباء والنطاسيين

ومن هؤلاء من كانت له رحلات فاستفاد شيئاً من الطب من حواضر البلاد الاخر

وحاجتهم الى ملابسهم علمتهم غزل الصوف والوبر وقد اختص بتلك الصناعة نساؤهم فالمرأة ان قالت انى صناع اليد فانما تعنى بذلك انها تغزل ومن هذا الغزل كانوا يصنعون البرود والاكسية والخيام الشعرية وكان النسج في حواضرهم وأكثر مايكون في بلاد اليمن حتى قيل لما يمدح من ثيابهم البرود اليمنية

وحاجتهم الى أدوات القتال علمتهم صناعة الرماح وافادتهم التجارب معرفة الاشجار اللائق ان تصنع الرماح منها وغير اللائق كالنبع والغرب فكانوا يجيدون صنع قناتها ثم الزج والسنان وكانت هناك بلاد قد اشتهرت بصنع الرماح كالخط فى البحرين ولذلك تنسب اليها فيقال رماح خطية اما السيوف فكانوا يجلبونها من صناعها بنواحي العراق والابلة وكانوا يسمون ناحية الابلة الهند ولذلك يقولون سيوف هندية ومهندة على طريق الاشتقاق

وكانوا بحكم الضرورة يحتاجون الى حساب ابلهم وما يملكون من دراهمهم فعلمهم ذلك الحساب ولكنه لم يكن فى البادية حساباً منتظماً بارقام وقواعد تعلم وانما كان حساباً ارقامه الايدى ولهم طرق معروفة في بيان كل عدد

ومن علومهم التجريبية علم القيافة وهي نوعان الاستدلال بأثر الماشي عليه والاستدلال بتقاطيع الجسم على صحة النسب وبطلانه وكان فيهم قبائل قد شهرت بهذا العلم حتى كان قول الفرد منها حكما فى الآثار والانسان كبنى

مدلج . وللعرب فى معرفة الاثر اعاجيب لايكاد الانسان يعيرها تصديقاً ولكن الذى يرى مابقي منها بين اعراب السودان لايقف عن التصديق لحظة وقدرأيناهم يعتمدون على ذلك فى اظهار الجنايات وفاعليها وقلما يخطئون. قال جكسون باشا مدير دنقلا فى تقريره لسنة ١٩٠٥ :

«ولمهارة القائفين فائدة كبرى في اكتشاف الجناة والعثور عليهم واليك مثالا من ذلك — في احدى الليالى سرق صندوق سكر من حانوت فى مروى ، وكانت أرض السوق والطرق المجاورة لها مرملة ففحص القائفون المكان في صبيحة اليوم التالى وعثروا على اثر رجلين وحمار فاقتفوه الى أن وصلوا الى اصطبلات الحكومة وهناك عرضوا جميع السواس فأخرجوا من بينهم سائس المدير وسائس أركان الحرب قائلين أن الأثر أثرهما ثم عرضوا الحمير أيضاً واتضح أن حمار المفتش هو الذى ظهر أثر قدمه في السوق ، وقد تم تفتيش الاصطبلات فوجد فيها رؤوس من السكر وباستقصاء البحث اتضح ان باقي السكر دفن في مكان قريب من الاصطبل ، ولما جيء بالسائسين امام المحكمة اعترفا بجريمتهما وقالا انه لما ثقل عليهما حمل الصندوق حملاه على اتان المفتش »

وهذه مهارة غريبة تسهل علينا مانسمعه من أعاجيبهم

وكان لهم فى النوع الثانى مالايقل عن الأول يجيئون بالرجل والولد ويغطون جميع بدنهما ماعدا أقدامهما ثم ينظر القائف فيحكم حكماً فصلا قائلا هذه الاقدام من هذه الاقدام ان كان النسب صحيحاً وينفى هذا النسب ان لم يجد تشابهاً ولا يهمه ان كانا قد اتفقا في اللون أو اختلفا فيه

والشريعة الاسلامية لم تلغ حكم القائفين بل رضيه النبي صلى الله عليه وسلم وسر به وبعض فقهاء العرب من المسلمين جعلوه واسطة من وسائط الحكم في الانساب اذا تعدد المدعون

والنتيجة من هذا كله ان العرب كانت أمة تلاحظ مايرد على حواسها من الحوادث والاشياء وتستنتج من الاستقراء قواعد صحيحة تنتفع بها في حياتها ونباهة الأمة أس من آساس رقيها

دين العرب

الخضوع للمعبود نتيجة لأحد أمرين : أما الاول فهو شعور الانسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه فهو لذلك يخضع له رغبة فيما عنده من الخير ورهبة مما يقدر عليه من الشر ولذلك تراه يفزع اليه عند الشدة لتخفيف ما ألم به من الكروب

الثاني شعوره بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يديه من عظائم الامور فهو يتخيل ان تلك القوة التي بها تغلب على المصاعب لم تكن الا نتيجة مساعدة مخصوصة من الاله القادر على كل شيء لانه يحبه حباً جماً فترى العابد الخاضع يجعل هذا وسيلة في عبادته يرجو بها رضاء من خالق العالم الأكبر فان كان حياً فهو الوسيلة وان كان ميتا قام قبره مقامه أو جعلت له صورة تمثله وقد تكون من حجر أو صفر أو ماشا كل ذلك وتعطي هذه الصورة من الخضوع ما كان يعمل لصاحبها في حياته

وقد يكون التعظيم لحيوان من الحيوانات النافعة أو الضارة أو الجماد نافع أو ضار لان القوة التي اعطيها وبها ضر ونفع اثر من آثار الخالق الاكبر

وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل وتجعل صورته او تمثاله مما يقرب من خالق القوى . ويسمون التمثال الذي على صورة انسان من حجر او فضة أو ذهب صنما ، ويسمون الحجر الغفل من الصنعة وثناً : الشعور بقوة تتصرف فى العالم شيء يكاد يكون طبيعياً فى الانسان ولذلك لم يخل منه باد ولا حاضر منذ عرف تاريخ الانسان وتمثيل القوى المدبرة والاشخاص التى يتقرب بها كذلك لم تخل منه أمة ولا جيل ، ولذلك يقول علماء الاجتماع الانسان متدين بالطبع حتى انك لتراه اذا ألحد في دينه وازدراه ينتقل منه حالا الى عبادة أخرى وخضوع لكن من طريق آخر

وقد جاء الانبياء يدعون الناس الى أفضل الطرق الموصلة الى ارضاء الله ورأسهم - بعد حادثة الطوفان - هو ابراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم فقد دعا الناس الى توحيد الله سبحانه وعمل مافيه مصلحة الناس ويدعى ابراهيم أبا الأنبياء لانهم كلهم من ولده

وكانت النبوة فى فرعين من ولده : الأول اسحاق ومنه كان جميع انبياء بنى اسرائيل وأعظمهم وأبقاهم أثراً موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه ودين الاول يسمى باليهودية نسبة الى يهوذا أحد أسباط اسرائيل أو السبط الأكبر الذى منه كان جلة الملوك من اسرائيل ودين المسيح : هو النصرانية نسبة الى الناصرة وهي أول قرية علم بها المسيح فقال العرب ناصرى ونصرانى وكان المسيح عليه السلام يدعى الناصرى . والفرع الثاني كان منه اسماعيل اخو اسحاق وهو داعية العرب الى دين ابراهيم ، ثم كان منه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وجاء أيضاً مجدداً لشريعة ابراهيم

كان الدينان المنسوبان الى الانبياء منتشرين في الجزيرة العربية قبل الاسلام فكانت اليهودية فى بلاد اليمن واول من دان بها يوسف ذو نواس اتباعاً لدعوة حبرين يقال انهما أتيا مع تبع الحميرى من يثرب وكانت أيضاً بيثرب وما جاورها من ارض خيبر وتيماء جاءت مع اسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التى كانت تتوالى على اليهود في شمالى صنعاء وفي جهات من البحرين وفي الحيرة لما تنصر النعمان ، وفى قبائل من طيء وفى عرب الغساسنة بالشام لمجاورتهم المتنصرة من الروم المتدينين بهذ الدين . الا ان المتدينين من العرب بالدين المسيحى لم يكن لهذا الدين تأثير حقيقي فى نفوسهم لان روح هذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات الله عليه هى السلم والاغضاء والابتعاد عن الحروب ، ولم يكن العرب مبتعدين عنها ولذلك لما جاء عدى ابن حاتم الطائي وافداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له انى على دين فقال له عليه السلام ألم تكن تأخذ المرباع من غنائم قومك ؟ وحل الغنائم والانتفاع بها ليس فى شيء من الدين المسيحي بل ولا اليهودي لان اليهودى يحرق كل ماللوثنيين ولا ينتفع به والمسيحي يبتعد عن الحروب

أما سائر العرب فكانت بعد اسماعيل على دين ابراهيم تعبد الله وتوحده الا ان اسماعيل عليه السلام بنى الكعبة وجعلها مطافاً يحجها أولاده فلما كثروا واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار في اجزاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئاً من حجارة الحرم أو الكعبة ليكون معهم اثر من آثار بركتها فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة فانتشر لذلك تعظيم

الحجارة والتقرب بها الى المعبود الاعظم ، ولما سار عمرو بن لحي الخزاعي الى بلاد الشام ورأى مايفعله أهله من تعظيم التماثيل والتقرب بها مالت نفسه الى الاقتداء بهم فأخذ من هذه التماثيل شيئاً وأقامها على الكعبة التى كان سادنها ودعا العرب لتعظيمها فاجابوه وخطرت لهم حينئذ فكرة تمثيل العظماء وذوى الاثر الصالح فيهم ، أو تمثيل القوى التى يألفونها وهي سبب عظيم فى نفعهم وقيام مجدهم فصنعوا تماثيلهم وتقربوا اليها ومما يؤكد ذلك ما قاله محمد ين هشام بن السائب الكلبي فى وصف ود وهو صنم عذرة نقلا عمن شاهده من رجال عذرة : قال كان تمثال رجل كاعظم مايكون من الرجال قد زبر عليه حلتان متزر بحلة مرتد باخرى عليه سيف يد تقلده وقد تنكب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل - فهذا يشبه ان يكون تمثال قوة الحرب التى يعظمها العرب — وكان لهذيل صنم اسمه سواع في رهاط من ارض ينبع وكان يعبده من يليه من مضر وله سدنة من بنى لحيان ـ وكان لمزحج وأهل جرش يغوث . واتخذت خيوان يعوق وكانت تعبده همدان ومن والاها من اليمن — واتخذت حمير نسر وكان بيد رجل من ذى رعين يقال له معديكرب تعبده حمير ومن والاها حتى هودهم ذو نواس وكان لهم أيضاً بيت بصنعاء اسمه رئام يعظمونه ويتقربون عنده بذبائحهم وقد هدم أيضاً

ويظهر ان هذه التماثيل الخمسة كانت قديمة في العالم استحدثها هؤلاء القوم وصوروا على شاكلتها لان نوحاً كان ينهي قومه عن عبادتها وهم

يتمسكون بها كما ورد فى الكتاب حكاية عنهم (وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً)

ومن أوثانهم مناة ، وكان منصوبا على البحر بناحية المشلل بقديدبين مكة والمدينة وكانت العرب تعظمه وتذبح عنده خصوصا الاوس والخزرج

ومنها اللات بالطائف ، وكانت صخرة مربعة فالظاهر انها لم تكن تمثالا وانما كانت أثراً من مكان معظم وكان سدنتها من ثقيف وكانت قريش تعظمها

ومنها العزى وكانت بوادمن نخلة الشامية عن يمين المصعد الى العراق من مكة فوق ذات عرق بتسعة أميال وكان عليها بيت وكانت أعظم الاصنام عند قريش وكانت سدنة العزى من بني سليم

ومنها ذو الخلصة ، وكان مروة بيضاء منقوشاًعليها كهيئة التاج وكان له بيت بين مكةوالمدينة وهو الى المدينة أقرب وكانت تعظمه وتهدى خثعم ودوس وبجيلة

وكان على الكعبة أصنام أعظمها هبل وكان عقيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد ميمنى أدركته قريش كذلك فجعلت له يداً من ذهب وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة

كانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الاحجار لا لاعتقاد أنها آلهة وانما لتقربهم الى الله سبحانه كما قال في الكتاب (مانعبدهم الاليقربونا الى الله زلفى) وكانوا اذا سئلوا عمن خلق العالم وقدر له رزقة يقولون انه الله وكانوا يقدمون القرابين وهى الذبائح الى هذه الاوثان والاصنام التي يدعونها النصب

والانصاب لأنها نصبت للعبادة وقد استعمل الاعشى كلمة النصب مفرداً فقال فى كلمته التى يمدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وذا النصب المنصوب لاتنسكنه لعافية والله ربك فاعبد

ولهم طرق فى توزيع لحوم هذه القرابين كما كان لبنى اسرائيل مايشبه هذه الطرق

وكان من هذه القرابين البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى : فالبحيرة الناقة تشق أذنها فلا يركب ظهرها ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها الاضيف أو يتصدق به أو تهمل لآلهتهم

والسائبة التى ينذر الرجل أن يسيبها اذا برىء من مرضه أو ان أصاب أمراً يطلبه فاذا كان ذلك أساب جملا من أبله أو ناقة لبعض آلهتهم فسابت فرعت لاينتفع بها

والوصيلة التى تلد أمها اثنين في بطن فيجعل صاحبها لآلهته الاناث منها ولنفسه الذكور ، فتلدها أمها ومعها ذكر فى بطن فيقولون قد أوصلت أخاها فيسيب أخوها معها فلا ينتفع به

والحامي الفحل اذا نتج له عشر أناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمي ظهره فلم يركب ظهره ، ولم يجز وبره وخلى فى ابله يضرب فيها لاينتفع منه بغير ذلك ـ هذا تفسير ابن هشام وقد خالفه بعض أهل اللغة فى تفسيرها ويظهر انه لم تكن قبائل العرب متفقة في عادة تلك القرابين فنقل كل مفسر عن غير القبيلة التى نقل عنها الآخر

وقد ورد ذكر هذه القرابين الاربعة في القرآن فقال في سورة المائدة (ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام)

وكانو يستقسمون عند أصنامهم بالازلام : والزلم القدح الذى لاريش عليه، والازلام كانت لقريش فى الجاهلية مكتوب عليها أمر ونهى وافعل ولا تفعل، وقد زلمت وسويت ووضعت فى الكعبة يقوم بها سدنة البيت فاذا أراد رجل سفراً أونكاحاً أتى السادن فقال أخرج لى زلما فيخرجه وينظر اليه فاذا خرج قدح الامر مضى على ماعزم عليه ، وان خرج قدح النهى قعد عما أراده وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما في قرابه فاذا أراد الاستقسام أخرج أحدهما ومعنى الاستقسام بها أن يطلب الانسان ماقسم له من جهتها وكان في الكعبة صنم يمثل ابراهيم واسمعيل وبايديهما الازلام يستقسمان بها

ومع ما كان للعرب من الاصنام والاوثان فانهم كانوا يعظمون الكعبة ويجلونها فوق أجلالهم لاى معبود آخر لهم يرون انها أثر أبيهم اسماعيل وكانوا يحجونها ويرون لقريش الفضل عليهم لما أتوه من شرف القيام بامرها كانهم رؤساء دين يسمع لقولهم فكأن الكعبة هى بيت الدين الاكبر وسدنته والقوام بامره هم حفاظ الدين وهذا مركز عظيم حازته قريش ومن كان معها ممن يلى أمراً من الامور الدينية بمكة

وقد كانت قريش أرادت ان تمتاز عن سائر العرب بما يظهر فضلهم وشرفهم فقالوا نحن بنو ابراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنوها فليس لاحد العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف العرب مثل ماتعرف لنا فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم فانكم

ان فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالوا قدعظموا من الحل مثل ماعظموا من الحرم، فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها وهم يقرون ويعترفون انها من المشاعر والحج ودين ابراهيم ويرون لسائر العرب ان يقفوا عليها وان يفيضوا منها ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من سكن الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياه وكانت كنانة وخزاعه قد دخلوا معهم فى ذلك وسموا أنفسهم ومن دخل معهم الحمس ثم قالوا لاينبغى للحمس يأتقطوا الأقط ولا يسلوا السمن وهم حرم ولا يدخلوا بيتاً من شعر ولا يستظلوا ـ ان استظلوا ـ الا في بيوت من الأدم ما كانوا حرما ثم قالوا لاينبغي لاهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤا به من الحل الى الحرم اذا جاؤا حجاجاً ، أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم الا فى ثياب الحمس ، فان لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة ، فان تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها اذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً : وكانت العرب تسمي تلك الثياب اللقي فحملوا على ذلك العرب فدانت به

وقد نبه القرآن على ذلك ـ بطريق الاشارة ـ فقال عن الاول (ثم افيضوا من حيث أفاض الناس) وقال عن الثانى (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقال (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق)

المحاضرة السابعة

النسىء — الموحـدون من العرب — المولد النبوى — الحال قبـل النبوة

كان تحريم الاشهر الحرم يعلن فى مكة كما كان يعلن فيها النسىء :

والنسىء كلمة معناها التأجيل من قولهم نسأت أى أخرت وأجلت ورجل ناسىء من قوم نسأة قال فى لسان العرب : وذلك أن العرب كانوا اذا صدروا من منى يقوم رجل من كنانة فيقول انا الذي لا اعاب ولا أخاب ولا يرد لى قضاء فيقولون صدقت أنسئنا شهراً . أى اخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر واحل المحرم لانهم كانوا يكرهون ان يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها لان معاشهم كان من الغارة فيحل لهم المحرم ، فذلك الانساء قال عمير بن قيس بن جذل الطعان :

السنا الناسئين على معد ؟ شهور الحـل نجعلها حراما

وزاد عليه ابو على القالى فى اماليه فسمي الناسىء نعيم بن ثعلبة وقال فى آخر عبارة فاذا كان من السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل لهم صفراً — وروى قول الشاعر :

وكنا الناسئين على معد شهورهم الحرام الى الحليل

وقال ابن هشام في سيرته : والنسأة الذين كانو ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية فيحلون الشهر من الاشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر

من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر ففيه انزل الله تعالى (انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ماحرم الله) ومعنى ليواطئوا ليوافقوا وكان أول من نسأ الشهور على العرب ـ فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ماحرم ـ القلمس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم من كنانة ثم قام بعده ابنه عباد الى أن كان آخرهم عوف ابو ثمامة وكانت العرب اذا فرغت من حجها اجتمعت اليه فحرم الاشهر الحرم الاربعة رجب وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فاذا أراد أن يحل منها شيئاً أحل المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ليواطئوا عدة الاربعة الاشهر الحرم فاذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال اللهم إني قد أحللت لهم أحد الصفرين الصفر الاول ونسأت الآخر للعام المقبل فقال في ذلك عمير بن قيس جذل الطعان أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة يفخر بالنساة على العرب

لقد علمت معد أن قومي ‏ ‏ كرام الناس ان لهم كراما

فأي الناس فاتونا بوتر ‏ ‏ وأى الناس لم نعلك لجاما !

ألسنا الناسئين على معد ! ‏ ‏ شهور الحل نجعلها حراما

على هذا جرى سائر المفسرين من العرب الخلص لما كان يجري من النسيء قبل الاسلام الا ان بعض الفلكيين من العرب وأولهم أبو معشر الفلكي المتوفى سنة ٢٧٢ فسروا النسيء عند العرب بغير ذلك حيث فسروه بالكبس الذى استعمله العبرانيون في سنتهم القمرية فانهم يضيفون على رأس كل ثلاث سنين شهراً لتكون السنة قرية شمسية ومعنى كونها قرية أن التقويم

يعتبر بالهلال ، ومعنى كونها شمسية انها بالكبس أوهذا النسيء تكون مطردة مع دورة الشمس بحيث لايكون الشهر العربي الا فى فصل معين لاينتقل عنه ولا يتغير كما هو الحال فى الشهور الرومية والقبطية التى لارتباط لها بدورات القمر . وقد تابعه على ذلك جماعة من المؤرخين ، وفي صدرهم محمد بن احمد البيروني المتوفى سنة ٣٣٠ ومنهم المسعودى الذى قال في مروج الذهب : وقد كانت العرب فى الجاهلية تكبس فى كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله (إنما النسيء زيادة في الكفر) وكان من نتيجة هذا الخلاف بين مؤرخي العرب اختلاف بين الاجلاء من علماء المستشرقين فمنهم من اختار تفسير النسيء عند العرب بما فسره به علماء العربية وكبار المؤرخين من العرب ، ومنهم من اختار التفسير الثاني : وقد رفع اللثام عن وجه الحقيقة في ذلك العالم الفلكى محمود باشا الشهير بالفلكي فى رسالة له سماها نتائج الافهام فى تقويم العرب قبل الاسلام أبان فيها ان العرب قبل الاسلام لم تكن تستعمل في تقويمها الا السنة القمرية المحضة ولم يكن النسيء عندهم الا بالتفسير الاول وأظهر ان الخطأ فى ذلك واقع فيه لاول مرة أبو معشر (١) وتبعه البيرونى (٢) ثم من بعدهما ثم استدل على هذه الدعوى بأدلة حسابية لاتبقي مجالا للريب فليراجعها من أحب استقصاء البحث ، وقد كنت من المخدوعين بما اخطأ فيه أبو معشر ففسرت النسيء في كتابي نور اليقين بما فسره به

---

(١) هو جعفر بن محمد المعروف بأبي معشر البلخى توفي سنة ٢٧٢

(٢) هو أبو ريحان محمد بن احمد البيروني الخوارزمى المتوفى سنة ٣٣٠

ولما تبين لى وجه الحق راجعت الآية فوجدتها تخبر عن النسيء بانه زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ماحرم الله — والنسيء بالتفسير الاول نتيجة هوى نفسى وتلاعب بما كانوا يسمونه ديناً وشريعة فقد كانت أربعة الاشهر المحرمة معروفة عندهم باسمائها فلما دعتهم حاجتهم التى هي غارات وحروب الى احلال بعضها أرادوا خديعة دينهم بالوقوف عند العدد وعدم الاهتمام بالاشهر المعينة فهم يحلون أحد الاشهر عاماً ويحرمونه عاماً ليتفق التحريم مع العدد المشروع وهذه الاهواء وأمثالها جديرة بمثل هذا الذم ، أما النسيء بالتفسير الآخر فلايعدو أن يكون نظاماً ثابتاً انتهجوه في تقويمهم لبقاء الاشهر العربية متفقة مع دورة الشمس ومثل هذا ليس فيه الاحلال عاماً والتحريم عاماً لمواطأة عدة ما حرم الله وانما هو نظام ثابت لايكون مجالا لتلاعب النسأة بدينهم

ومن الغريب ان المسعودى نفسه وهو الذى زعم أن العرب كانت تكبس قال في تفسير الربيعين : انما سمى بذلك لارتباع الناس والدواب فيهما ثم قال فان قيل قد توجد الدواب ترتبع في غير هذا الوقت قيل قد يمكن ان يكون هذا الاسم لزمها في ذلك الوقت فاستمر تعريفها بذلك مع انتقال الزمان واختلافه ولو كانوا يكبسون ـ كما قال ـ لما كان هناك محل لهذا السؤال والجواب لان الشهور العربية ما كانت تختلف عن الفصول الشمسية ، فالحق أن النسيء عند العرب كان عملا يقوم به رجال الدين من أهل مكة من كنانة ويكون تابعاً للاهواء لا لنظام معين

على ذلك كانت أديان العرب جاهليتهم الا انه كان هناك أفراد منهم

لم تكن تلك العبادات تعجبهم ويرون ان هناك حقيقة غابت عنهم وان طرقهم التي هم عليها لاتوصلهم الى الله ويقولون فى أنفسهم ما معنى التوصل الى الله بحجارة لاضر فيها ولا نفع !!!

وممن اشتهر ذكره من هؤلاء أربعة نفر ـ ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم. فالقرشيون ورقة بن نوفل الاسدى من أسد بن عبد العزى بن قصى وزيد بن عمرو بن نفيل العدوى من عدى بن كعب ، وعثمان بن الحويرث الاسدى من أسد بن عبد العزى ، والرابع عبيد الله بن جحش الأسدى من أسد ابن خزيمة وأمه أمية بنت عبد المطلب اجتمعوا مرة يوم عيد لاحد أصنامهم فقالوا : تعلن والله ما قومكم على شيء ! ! لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم ! ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يضر ولا ينفع ياقوم التمسون لانفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء ؛ فتفرقوا فى البلدان يلتمسوا الحنيفية دين ابراهيم

فأما ورقة فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب

وأما زيد فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الاوثان ونهي عن قتل الموءودة وقال أعبد رب ابراهيم ونادى قومه بعيب ماهم عليه وكان يسند ظهره الى الكعبة ويقول يامعشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين ابراهيم غيرى ثم يقول أللهم لو انى أعلم أحب الوجوه اليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه ثم يسجد على راحلته وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم انه يبعث أمة وحده وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ماهو عليه من الالتباس حتى جاء الاسلام فأسلم ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة فلما قدمها تنصر وفارق الاسلام حتى مات هناك نصرانياً

وكانت لاتزال كهان العرب وذو والاسجاع منهم يهتفون بذكر نبي حان مبعثه ولا يبعد ان أخبارهم هذه انما لقفوها من أهل الكتاب فيزيدون عليها من عند أنفسهم ويحسنونها بما شاؤا من السجع الذى امتازوا به فى ذلك الوقت وكانت اليهود تنتظر في ذلك الوقت نبياً يخلصهم ويجمع شتاتهم ولا يزالون يلهجون بذلك ويقولونه لمن كان يناوؤهم من العرب كما كان يقول يهود المدينة للأوس والخزرج الذين كانوا ظاهرين عليهم وغالبين على أمرهم اذا اشتبكوا فى حرب، قد روى ذلك عن بعض الانصار

من هذا يفهم أنه كان قبل مجيء الاسلام فى حواضر الجزيرة حركة دينية مركزها العقلاء من العرب وأهل الكتاب من اليهود والكهان من العرب ، ولكنها لم تكن حركة منتجة لانها لم تؤد الى شيء مامن التغير في عبادة الاوثان ، ولا الى شيء من اصلاح أحوال العرب العامة ولكنها جعلت في الانفس شيئاً من الاستعداد لقبول الاصلاح الاسلامي

محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم

كان عبد المطلب بن هاشم كبير قريش وسيدها ، وله أولاد أشراف عظماء ، منهم أبو طالب وعبدالله وحمزة وعباس وأبو لهب وعبدالمطلب ذو السن من بيت عبدمناف الذي هو أشرف بيت من قريش

اختار لولده عبدالله آمنة بنت وهب وهي من بيت زهرة بن كلاب من

أشرف بيوت قريش فبنى بها عبدالله فى مكة وبعدقليل خرج تاجراً الى الشام فلما وصل المدينة ـ وبها أخواله من بنى النجار ـ أدركته منيته لشهرين من الحمل بابنه صلى الله عليه وسلم وانما كان بنو النجار أخواله لان منهم أم أبيه عبدالمطلب

وفي صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الاول لاول عام من حادثة الفيل ـ ولاربعين سنة خلت من ملك كسرى انو شروان . ويوافق العشرين من شهر ابريل سنة ٥٧١ حسبما حققه العالم الفلكي محمود باشا ـ ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب بنى هاشم بمكة ، ولما ولدته أمه أرسلت الى جده عبدالمطلب تبشره بحفيده فجاء مستبشراً واختار للمولود اسم محمد وهذا الاسم لم يكن معروفا عند العرب ولم يمر على نظرنا فيما قرأناه من كتب تاريخهم ودواوين انسابهم الا اسم واحد لاحد اشراف تميم وهو الاب الخامس للفرزدق التميمي الشاعر المشهور ويستنتج المؤرخون ان اختيار هذه التسمية انما كان نتيجة شعور من عبد المطلب بما لهذا المولود من المستقبل المنتظر لما كان يدور اذ ذاك على الالسنة من قرب بعثة نبي منتظر من العرب وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون

كانت العادة عند الحاضرين من العرب ان يلتمسوا المراضع لأولادهم فى البادية لامرين (الاول) انهم يبتعدون في البوادى عن أمراض الحواضر التى كثيراً ما تصيب الاطفال وهناك تقوى اجسامهم وتشتد اعصابهم لما في هواء البادية من الصفاء والابتعاد عن عفونات المدن (الثاني) انهم يتقنون اللسان العربى فى مهدهم عن البدو وهم اجهر صوتاً وأسلس عبارة

وقد اختير لمحمد بن عبد الله ١ مراة من بني سعد بن بكر من هوازن الذين هم بادية مكة واسمها حليمة بنت ابي دؤيب وزوجها هو الحرث بن عبد العزى المكنى بأبي كبشة من قومها فأقام مسترضعاً فيهم قريبا من اربع سنوات ثم ردته الى امه بعد ذلك فأقام معها بمكة

كانت لآمنة عادة مذ توفى زوجها عبد الله بالمدينة ان تذهب كل سنة لزيارة قبره بها ومعها عبد المطلب فلما كانت السادسة من عمر ولدها ذهبت لتلك الزيارة وبينما هي راجعة اذ مرضت في الطريق ثم توفيت ودفنت بالابواء بين مكة والمدينة فعاد عبد المطلب بحفيده وكان يحبه حباً جماً. قال ابن هشام كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه لا يجلس عليه احد من بنيه اجلالا له فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام صغير حتى يجلس عليه فيأخذه اعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب — اذا رأى ذلك منهم — دعوا ابني هذا فوالله ان له لشأنا ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره مايراه يصنع ولثماني سنوات من عمره توفي بمكة جده عبد المطلب وأوصي به قبل وفاته الى أبي طالب عمه شقيق أبيه فان أبا طلب والزبير وعبد الله أولاد عبد المطلب كانت أمهم جميعاً فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية ولتسع سنوات من عمره — حسب رواية ابن هشام — أوثلاثة عشرة خرج أبو طالب الى الشام تاجراً وأخرجه معه حتي وصلا بصرى وهي معدودة من الشام وقصبة حوران وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان وكان في هذا البلد على ماننقله من كلام مؤرخي العرب

راهب اسمه بحيرا فى صومعة له فكان له حديث مع ابى طالب حينما رأى معه ابن أخيه وأشار عليه أن يرجع به خوفا عليه من عدو يترصده وأخبره ان له شأناً فرجع به ابو طالب الى مكة وقد اطبق على هذه الحادثة جميع المؤرخين وحكاها ابن العبرى فى كتابه مختصر تاريخ الدول وقد نقبنا كثيراً عن اسم هذا الراهب فى كتب من عنوا بذكر أساقفة الشام وبصرى والمشهورين من رجال الدين فيهما فلم نجده

ولخمس عشرة من عمره كانت حرب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس وكان قائد قريش كلها حرب بن أمية لمكانته فيهم سناً وشرفا وكان رئيس بنى عبد المطلب وقد حضر هذه الحرب سيدنا محمد بن الله ، وكان ينبل على عمومته أى يجهز لهم النبل للرمى . وحدث بعد ذلك تداعي قريش لحلف الفضول والمتحالفون هم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزي وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد اليه مظلمته وتم ذلك الحلف فى دار عبد الله بن جدعان التيمى وشهده سيدنا محمد بن عبد الله وقال فيه بعد الرسالة لقد شهدت مع عمومتى حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب ان لى به حمر النعم ولو دعيت به في الاسلام لاجبت

ولخمس وعشرين سنة من مولده تزوج خديجة بنت خويلد الاسدية من بنى أسد بن عبد العزى وكانت سيدة محترمة في قومها ذات يسار تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه وكان سيدنا محمد بن عبد الله مشهوراً في قومه

بالامانة حتى كانوا يسمونه بالامين فعرضت اليه أن يسافر الى الشام بمالها وأرسلت معه غلامها ميسرة فذهبا حتى أتيا الشام وباعا وابتاعا وربحا ثم عاد الى مكة ويروى ابن جرير الطبرى عن ابن شهاب الزهرى ان هذه الرحلة التى ذهبت فيها بتجارة خديجة انما كانت الى سوق حباشه باليمن لا الى الشام. والرواية الاولى أشهر.

بعد هذه الرحلة عرضت السيدة على الامين ان يتزوجها فرضى وكانت سنها أربعين سنة فخطبها عمه وتم الزواج بينهما قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة اقامت معه منها خمساً وعشرين وهى أم أولاده جميعاً ماعدا ابراهيم الذى ولد له بالمدينة فانه من مارية القبطية التى كانت من قرية حفن من كورة انصنا.

وكانت خديجة من افضل نساء قومها نسبا وثروة وعقلا ولها في تاريخ الاسلام اجمل ذكر واصدقه وسيتضح بعد

ولخمس وثلاثين سنة من مولده كان هدم قريش للكعبة وتجديد بنائها فانها كانت رضيمة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وكانوا يهابون هدمها فابتدا به الوليد بن المغيرة المخزومي وتبعه الناس لما راوا انه لم يصب الوليد شيء ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا الى اساس اسماعيل ثم شرعوا فى البناء على قواعده والذى تولى البناء بناء رومي اسمه باقوم وقد قسموا العمل فيها على قبائل قريش ثم قصرت بهم النفقة الطيبة عن اتمامها على قواعد اسماعيل فدخلوا عنها من الجهة الشمالية نحو آمن ستة اذرع وصعدوا بها في الجو حتى اذا وصلوا الى مكان الحجر الاسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف

وضعه في مكانه واشتد النزاع بينهم فعرض عليهم التحكيم أحد رؤسائهم فارتضوه وكان الحكم سيدنا محمد بن عبد الله فطلب رداءاً ووضع فيه الحجر وطلب من الرؤساء أن يمسك كل رئيس بطرف منه وأمرهم أن يرفعوه حتى اذا حاذى موضعه أخذه بيده فوضعه مكانه وكان هذا الحكم موجباً لرضاهم وابتعاد الشحناء من أنفسهم وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريباً يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً وطول ضلعه الذي فيه الحجر الاسود والمقابل له ١٠،١٠م والحجر موضوع على ارتفاع ١٠،٥٠ م من أرضية المضاف والضلع الذي فيه الباب والمقابل له ١٢ م وبابها على ارتفاع مترين من الارض ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء اسفلها متوسط ارتفاعها ٢٥ ، .م ومتوسط عرضها ٠،٣٠.م وتسمى بالشاذروان وهى من أصل البيت ولكن قريشاً تركتها واستظهر محمد لبيب بك البتانونى فيما كتبه عن الكعبة فى رحلته الحجازية التى اقتطفنا منها هذه المعلومات أن هذا الاسم محدث أما في عهد ابن الزبير أو عهد الحجاج بن يوسف

وللكعبة أربعة أركان : الشمالى واسمه الركن العراقى والغربي واسمه الشامى والجنوبي واسمه اليمانى والشرقى واسمه ركن الحجر لان الحجر فيه وهو حجر صقيل بيضاوي غير منتظم ولونه اسود يميل الى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء وهي أثر لحام القطع التى كانت انفصلت منه وقطره نحو ٠،٣٠ . م والمسافة التى بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وقباله الحائط الشمالى الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه الى زاويتى البيت ويبعدان

عنها ٢،٣٦م ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه ١،٠٥ م ومسافته مابين منتصف ضلع الكعبة ١،٤٤ م وهذا الفضاء يسمونه حجر اسماعيل وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً فى بناء ابراهيم ويقال أن اسماعيل وهاجر امه مدفونان فى الحجر

السيرة الأدبية قبل النبوة

اتفق جميع المؤرخين أن سيدنا محمد بن عبد الله كان فى قومه ممتازاً بأخلاق جميلة منها صدق الحديث والامانة حتى سموه الامين وكانوا يودعون عنده ودائعهم وأماناتهم . وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب ولا يحضر للاوثان عيداً ولا احتفالا بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة . وكان يأكل من نتيجة عمله لان أباه لم يترك له من الثروة الا شيئاً قليلا وكان عمله حين شب — التجارة ولما تزوج خديجة كان يعمل بمالها ويشركها في الربح وكان يشارك غيرها احياناً ولم يكن يقرأ ولا يكتب

ولا بد لنا من ذكر مسئلة وضعها الاصوليون من علماء المسلمين في موضع البحث وهي هل كان متعبداً بشريعة قبل نبوته بعد قول الائمة منهم ان هذه مسألة من اختصاص التاريخ لا من اختصاص اصول الفقه

فقال جمهور منهم انه لم يكن مكلفاً باتباع شريعة مامن الشرائع الماضية واستدلوا بانه لو كان مكلفاً بشريعة لقضت العادة بمخالطة اهلها ووجبت تلك المخالطة ليأخذ عنهم تلك الشرائع ولكنه لم يفعل لانه لوحصل ذلك لتوفرت الدواعي على نقله ولم ينقل شيء من ذلك

وتوقف في الرأي بعض الائمة كالغزالى وشيخه امام الحرمين والآمدي لانهم لم يظفروا بما يؤهلهم للحكم فى مثل تلك المسألة ؟؟؟

وقال بعضهم أنه كان متعبداً بشريعة ولكن ماهى تلك الشريعة اختلفوا فى تعيينها فمن قائل انها شريعة آدم أو نوح أو ابراهيم أو موسى أو عيسى صلوات الله عليهم اجمعين وهو اختلاف يدل على أن أصحاب هذا الرأى ليسوا مرتكزين على دليل قوى يعضدهم وانما هي مجرد أفكار

واختار الكمال بن الهمام من الاصوليين مذهبا مبهما وهو انه متعبد بما ثبت انه شرع اذ ذاك الا أن تثبت شريعتان أمرين متضادين فبالاخير فان لم يعلم الاخير فهو متعبد بما يركن اليه منهما واستدل على ذلك بان التكليف لم ينقطع من بعثة آدم عموما وخصوصا ولم يترك الناس سدى قط فلزم التعبد كل من تأهل من العباد وبلغه ذلك المتعبد به وقال ان هذا الدليل يوجب التعبد فى غيره وتخصيصه بالبحث أمر اتفاقى والذى نراه ان التفصيل فى مثل هذه المسئلة انما هو التاريخ لامثل هذه البراهين لان مثل هذا الرأى يلزمه ان الانسان مطلوب منه ان يتطلب جميع الشرائع الماضية التى سبقت ويعبد الله بما يثبت انه منها ويرجح بين اللاحق والسابق وهذا امر لم نسمع انه عليه السلام فعله حتى كنا نقول انه ادى ما كلف به والتاريخ يثبت انه قبل نبوته رفض الاوثان وعبادتها والتقرب اليها وكان يطوف بالكعبة ويحج كما كان الناس يحجون ويلتزم مكارم الاخلاق التى فى مقدمتها الصدق والامانة والوفاء ولم يشرب الخمر وهذه كلها خصال يحمل عليها العقل الراجح وكان

يتعبد في غار حراء وهو غار صغير على جبل النور الذى على يسار السالك الى عرفه وعبادته فيه لم تكن الا فكراً فى خالق الكون الاعظم وكان يتعبد فيه عبد المطلب وقال المؤرخون انه اول من تعبد فيه

ولم يعلم عنه انه كان يراعى الطرق التفصيلية للعبادات فى الشرائع التى سبقته ولم يكن قبل نبوته وصل الى الحقيقة فى امر الخالق جل ذكره والى ذلك الاشارة فى الكتاب (وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان) وقال فى سورة الضحى مما امتن به عليه)ووجدك ضالا فهدى) والضلال الحيرة والهداية النبوة



المحاضرة الثامنة

البعثة — الوحي — الدعوة السرية — الجهر بالدعوة

ما كان من قريش — هجرة الحبشة

البعثة

الذين يختارهم الله لاصلاح الامم يلقي اليهم مايريدان يبلغوه عنه بالوحي والوحي — فى لغة العرب — أعلام مع خفاء وسرعة ومعنى السرعة أن هذه المعلومات المتلقاة لاتكون نتيجة لمقدمات تنبيء عليها تلك النتيجة بل هي أشبه شيء بالعلم الضروري الذي لايتوقف على نظر واستدلال وقد استعملت هذه الكلمة فى القرآن ، وفي لسان العرب لغير اعلام الله لانبيائه فقال تعالى (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا) وقال (واوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزني أنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) وقال مخبراً عن يوسف في صغره (واوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون) وكل هذا لايعدو معنى الالهام الذي ربما شعر به كثير من الناس

اما اعلام الله انبياءه المختارين فان العبارة العلمية تضيق عن تحديد كنهه وغاية ما يمكن الانسان هو أن يحوم حوله مستعيناً بما قاله الانبياء

أنفسهم فيما نزل على السنتهم ليقتطف منها مايقرب ذلك الى العقل الانساني هذا الاعلام له مراتب

الاولى : أن يخاطب في النوم وتلك هي الرؤيا الصادقة وقد ورد ذكرها كثيراً فى التوراة والقرآن وكتابات الرسل وتعبر التوراة عنها بمثل قولها صار كلام الرب الى ابرام في الرؤيا قائلا الخ

ويعبر عنها القرآن بمثل قوله عن لسان ابراهيم صلوات الله عليه مخاطباً لابنه الذبيح (يابنى أني أرى في المنام أني أذبحك) ومن هنا يقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا الانبياء حق ونحن معاشر الانبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا

المرتبة الثانية : أن يلقى مايراد القاؤه على قلبه من غير وساطة وهو يقظان وذلك هو المسمى بالالهام والالقاء في الروع ويسمى بعض فلاسفة المسلمين القوة التى تحدث بالخير وتلقيه فى النفس ملكا على العكس من القوة التى تحدث بالشر وتلقيه فى النفس فانه يسميها شيطاناً ولفلاسفة المسلمين غرائب في كلامهم عن الملائكة والشياطين . وقد يستروحون بقوله تعالى فى الكتاب (نزل به الروح الأمين على قلبك)

المرتبة الثالثة : أن يرسل الله اليه رسولا يخبره بما يريد اعلامه أياه وهو المسمى بالملاك فيحدثه ويصف القرآن هذا الرسول بقوله (أنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين) ويظهر هذا الملاك للانبياء في التوراة كثيراً

المرتبة : الرابعة ان يسمعه الله كلامه مباشرة كما حصل لموسى عليه السلام حينما سمع الصوت من العقلية المتقدة كما عبرت التوراة وقال القرآن عن هذه الحادثة (وهل أتاك حديث موسى اذ رأى ناراً فقال لاهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى فلما اتاها نودى ياموسى اني أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) .

هذه هى المراتب التى عرف ان الوحى يبلغ قلوب الانبياء عليها ، ولا تكاد تتباعد باعتبار نتيجتها وهي ركوز المعانى في القلب بحيث يعلم المخاطب علما ضروريا أن ذلك من الله وكان يحصل لهم وقت هذا الاعلام شدائد يحصل شيئاً من جنسها لمن فى فكرهم فى أمر أو حادثة فانك تجد من هؤلاء من يغيب عنك حتى لقد تحدثه فلا يسمع ويتصبب من جراء ذلك عرقا ولسنا نريد تشبيه الحالين بعضهما ببعض وانما نحن نستروح بما نراه ونحس به لنقرب الى الانفس مالا يحس به وليس فى مكنتها أن تدرك حقيقته : اذا كان الفناء في مسألة أو حادثة يجعل الانسان على نحو ماوصفنا لكم فكيف بالفناء فى الآله أنا لا استغرب ماقرأته فى بعض الكتب أن صوفياً لسع بعقرب فلم يتحرك ولم يتأثر، وآخر هدم بجانبه جدار فلم يحس به ! لانى أعلم أن الجندى يصاب في الموقعة بالجرح المؤلم فلا يحس به ويمضى لشأنه حتى اذا تمت الموقعة ورجعت الروح من تعلقها بما كانت فيه الى أمر جسمها أحست بالالم : كل هذا يفهمنا مايكون من الانبياء عند الوحى من غيبتهم عمن بحضرتهم من الناس حتى لا يحسون باحد

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ؟ فقال أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم عني وقد وعيت ماقال وأحياناً يتمثل لى رجلا فأعي مايقول

ومما روى انه كان يكابد من التنزيل شدته حتى انه كان يوحي اليه فى اليوم الشديدالبردفيفصم عنه وانجبينه ليتفصدعرقا

وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلا تكلم فيه على الوحي والرؤى ولكن قلما يظفر الانسان منه بطائل وفيما بيناه لكم كفاية وتقريب

كان أول مابدىء به سيدنا محمد بن عبد الله من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لايرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح : كما رواه البخارى من حديث عائشة

وبينما كان يتعبد بغار حراء حسب عادته اذ جاءه الوحي وذلك في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والاربعين من ميلاده فيكون عمره اذ ذاك بالضبط اربعين سنة قمرية وستة أشهر و٨ أيام وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة اشهر وثمانية ايام : وذلك يوافق ٦ اغسطس سنة ٦١٠ . ولا معنى للاختلاف فى تحديد اليوم بالتقويم العربي بعد ان أشار اليه الكتاب اشارة ظاهرة لا تخفي على من له إلمام بالتاريخ فقد قال (ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم بدر وكان فى صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد جعله[1] عاماً لاول يوم نزل فيه القرآن . وليلة نزول

(١) جرت العادة فى التعبير أن يجعل اليوم المعين عددمحلا لكثير من الوقائع

وليلة نزول القرآن هي التى قال فيها الكتاب (انا انزلناه فى ليلة القدر) وقال (انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منزلين فيها يفرق كل امر حكيم امراً من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم) وهذا هو السبب في تخصيص الاسلام شهر رمضان بالصيام لانه هو الشهر الذي كان يتعبد فيه الرسول بغار حراء ونزل عليه القرآن فيه لاول مرة (شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وجعلت نهايته عيداً تذكاراً لذلك الامر العظيم ووجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم وهي المسماة بصدقة الفطر : كل ذلك اذا تنبه اليه الانسان ابعده عن كثير من التعاليم التى تلقى الى العامة

وقد روى ابن هشام كيفية بدء الوحي بما اخبر به الرسول عن نفسه قال فجاءني جبريل وانا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ قلت ما أقرأ ؟

مع أنه ليس من سنة واحدة كما يقولون يوم عاشوراء فيه اهبط آدم وفيه نجت سفينة نوح وفيه نجا موسى من الغرق وليس عاشوراء من سنة واحدة بالضرورة فهذا اليوم بصفته ١٧ رمضان كان محلا لنزول الفرقان أول مرة والتقاء الجمعين ببدر وليس اليوم واحدا بالشخص وانما هو بكونه ١٧ رمضان . وتدبر الآية يبين انه لا يصح ان يراد منها غير هذا لان الذي فرق الله به بين الحق والباطل انما هو اختيار الله محمداً لان يبلغ عنه الى الناس رسالته وليس ظفر المسلمين فى موقعة مما يرتقى الى تلك الدرجة ومن هنا يعلم ماوقع فيه العالم الفاضل محمود باشا الفلكي من الخطأ حيث جعل الرسالة في ربيع الأول الذي يوافق فبراير سنة ٦١٠ والذي اوقعه فى الخطأ ما في بعض الروايات من انه عليه السلام بعث على رأس الاربعين

قال فغتني به حتى ظننت انه الموت ثم ارسلني فقال اقرأ قال : قلت ماذا أقرأ ؟ قال فغتني به حتى ظننت انه الموت ثم ارسلني فقال اقرأ قال فقلت مااقرأ مااقول ذلك الا افتداء منه ان يعود لي بمثل ماصنع بي فقال (اقرأ باسم ربك الذى خلق : خلق الانسان من علق : اقرأ وربك الاكرم : الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم)

قال فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتابا فخرجت حتى اذا كنت في الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسي الى السماء أنظر فاذ جبريل فى صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فوقفت أنظر اليه فما أتقدم أمامي وما ارجع ورائى حتى بعثت خديجة في طلبي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا اليها وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً الى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست الى فخذها مصغياً اليها فقالت ياأبا القاسم اين كنت ؟ لقد بعثت رسلي فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا ، ثم حدثتها بالذى رايت فقالت ابشر ياابن عم واثبت فوالذى نفس خديجة بيده إني لارجو ان تكون نبي هذه الامة ثم قامت فجمعت [1] عليها ثيابها ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع اهل التوراة والانجيل فأخبرته بما اخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ورقة قدوس قدوس والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني ياخديجة لقد جاءه

(١) هذه رواية ابن هشام

الناموس الاكبر الذى كان يأتى موسى وانه لنبي هـــذه الامة فقولى له فليثبت . فرجعت خديجة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبرته بما قال ورقة فلما قضي عليه السلام جواره وانصرف صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها فقال له ورقة والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الامة، ولقد جاءك الناموس الاكبر الذى جاء موسى ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ولئن أنا ادركت ذلك اليوم لانصرن الله نصراً يعلمه، ثم ادنى رأسه منه فقبل يافوخه ثم انصرف

رسول الله صلى الله عليه وسلم الى منزله

لم يبق بعد تيقنه عليه السلام مما كلف به الا ان يحمل اعباءه التى لا يحتملها الا اهل القوة والعزم من الرسل بعون من الله وتوفيقه

ومما يزيد هذا العبء ثقلا وشدة انه ابتدىء تحمله في مكة وهي مركز دين العرب وبها سدنة الكعبة والقوام على الاوثان والاصنام المقدسة عند سائر العرب فالوصول الى المقصود من الاصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عما لو كان بعيداً عنها فالامر يحتاج الى عزيمة لاتزلزلها المصائب والكوارث

كان من الحكمة تلقاء ذلك ان تكون الدعوة — الى هذا الدين — فى بدء امرها — سرية لئلا يفاجىء اهل مكة بما يهيجهم — ولنسم هذه الدعوة دعوة الافراد — فكان يدعو كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه . يعرفهم بحب الحق ويعرفونه بتحرى الصدق فأجابه من هؤلاء جمع سماهم التاريخ الاسلامى بالسابقين الاولين، وفي مقدمتهم خديجة بنت خويلد زوجه ، وزيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي، وكان قد أسر ورق فملكته خديجة ووهبته

لزوجها فتبناه حسب قواعد العرب وكان لذلك يقال له زيد بن محمد وعلى بن أبي طالب وكان يعيش فى بيت رسول الله تخفيفاً عن أبى طالب لما كثرولده وأبو بكر بن أبي قحافة عثمان التيمي ، وكان أبو بكر محبوبا فى قومه وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ودعا أبو بكر بعد ايمانه نفراً، ممن كان يألفهم ويألفونه فأجابه عثمان بن عفان الاموى والزبير بن العوام الاسدي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعدبن أبي وقاص الزهريان وطاحة بن عبيد الله التيمي ، ثم تلاهم أبو عبيدة عامر بن الجراح من بنى الحارث ابن فهر ، وأبو سلمه عبد الله بن عبد الاسد ، والارقم بن أبي الارقم المخزوميان وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب المطابي وسعيد بن زيد العدوى وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية وغيرهم وأولئك هم السابقون الاولون وهم من جميع بطون قريش، وكان الرسول يجتمع بهم ويرشدهم الى الدين مستخفياً في دار الارقم بن أبي الارم المخزومى بمكه ـ لان الدعوة كانت لاتزال فردية ، وهذه الدار لاتزال باقية بمكة ولكنها غير معتنى بها الاعتناء اللائق بمقامها التاريخي ! !

استمرت هذه الدعوة الفردية ثلاث سنين أجابه فى خلالها جماعة لهم شأن ومعهم غيرهم من المستضعفين

وبعد هذه المده أمر ان يجهر بالدعوة الى الدين بقوله تعالى في سورة الحجر (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) فاعلن لقومه الدعوة الى الله وتوحيده ، فلم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها ونسب كل من عبدها أو جعلها بنيه وبين الله الى الضلال وجر ذلك الى تضليل آبائهم

فانهم كانوا يحتجون عليه دائما بانهم يتبعون ماوجدوا عليه اباءهم وتلك هي العقبة الصعبة في سبيل كل المصلحين فكان ذلك داعية الى تهجين ماكان عليه آباؤهم فلما كان ذلك نفروا منه وبادروه بالعداوة

لم يكن هناك بد من أن تكون له حماية تمنع عنه ماعسى ان يهم به أعداؤه من الفتك به حمية لدينهم وشرف آبائهم ، وكان عمه ابو طالب سيد بيته وله الحق — بحسب أصول العربية — ان يجير ! فان فعل كان التعدى على من يجيره ويحميه كانه اعتدى على البيت بأسره . وبيت عبدمناف كان اشرف بيوت قريش على الاطلاق . فحدب أبو طالب على رسول الله وأجاره وقام دونه ومضى الرسول لشأنه في الدعوة والجهر بما يتنزل عليه من الوحي

لما رأت قريش انه صار في منعة بجوار ابى طالب مشى رجال من اشراف قريش اليه يطلبون منه ان يكف ابن أخيه عن سب الهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل ابائهم او يخلي بينهم وبينه فردهم أبو طالب رداً جميلا فانصرفوا عنه . ولما راوا ان هذه الوفادة لم تفدهم شيئاً تذمروا واوحض بعضهم بعضاً عليه ثم مشوا الى ابي طالب مرة ثانية قائلين انهم لا يصرون على هذه الحال ! ! وخيروه بين ان يكفه عما يقول او ينازلونه واياه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفساً بخذلان ابن اخيه ولكنه قال له يا ابن اخي ان قومك جاؤوني وقالوا لى كذا وكذا فأبق على وعلى نفسك ولا تحملني من الامر ما لا اطيق فظن الرسول ان عمه خاذله ومسلمه وانه ضعف عن نصرته والقيام معه فقال : والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على ان اترك هذا الامر — حتى يظهره الله او اهلك دونه — ما تركته

ثم استعبر وبكى ، فلما ولى ناداه ابو طالب فقال أقبل يا ابن اخي فلما اقبل عليه قال له اذهب فقل ما احببت فوالله لا اسلمك لشيء ابداً .

فلما رأت قريش أن أبا طالب قد أبي خذلان ابن أخيه مشوا اليه بعمارة ابن الوليد ، وقالوا له أن هذا الفتى انهد فتى فى قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك واسلم الينا ابن اخيك هـذا الذى خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومه وسفه أحلامهم فنقتله فانما هو رجل برجل : فقال لهم ابو طالب لبئس ماتسومونني اتعطوني ابنكم اغذوه لكم واعطيكم ابني تقتلونه ؟ ! ولما رأى ابو طالب تألب قريش عليه قام فى أهل بيته بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبد مناف وقد كان هاشم والمطلب من أم واحدة ، دون اخويهما عبد شمس ونوفل — ودعاهم الى ماهو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه ، فأجابوه الى ذلك مسلمهم وكافرهم حمية للجوار العربى الا ما كان من أخيه ابى لهب فانه فارقهم وكان مع قريش ، ولا ادرى افضل حميته لدينه على حميته لشرف أخيه أم كانت هناك اسباب أخرى أدت الى هذا الانفصال ؟ ولا اظن ان كونه من أم اخرى غير أم ابي طالب يدعوه الى مثل ذلك لأن هذا الاختلاف لم يكن مؤثراً هذا التأثير في قلوب العرب بين الاخوة لان العصبية للأخ كانت عندهم فوق كل شيء ، ولا يبعد عندى ان زواجه بأم جميل بنت حرب دعاه الى مثل هـذا ، لان أم جميل كانت من ألد اعداء رسول الله حتى أنها كانت تذيع عنه الاكاذيب في مجامع النساء فتشعل بتلك الاكاذيب نار العداوة فى قلوبهن : ويعبر العرب عن مثل ذلك الفعل بحمل

الحطب لانه هو الذى يؤجج النيران ، ولذلك ذكرت في السورة الحادية عشرة بعد المائة بلقب حمالة الحطب

قرب وقت الحج والعرب سترد من آفاق الجزيرة لزيارة الكعبة رأت قريش أنه لابد من كلمة يقولونها للعرب فى شأن محمد حتى لا يكون لدعوته أثر في انفس العرب فاجتمعوا يتداولون في تلك الكلمة لانهم اذا اختلفوا وكذب بعضهم بعضاً فان ذلك يضعف من قولهم عند سائر العرب . فقال واحد منهم تقول كاهن ! فقال لهم الوليد بن المغيرة وهو ذو السن فيهم ماهو بكاهن لقد رأينا الكهان ! وما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه فقال آخر نقول مجنون : فقال الوليد ماهو بمجنون ! لقد رأينا الجنون وعرفناه ماهو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسه : فقال آخر نقول هو شاعر : فقال ماهو بشاعر ! لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ! فقال آخر نقول ساحر : قال ماهو بساحر ! لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم : قالوا فما تقول انت ؟ قال والله إن لقوله لحلاوة وإن اصله لعذق وان فرعه لجناة ماأنتم بقائلين من هذا شيئاً الا عرف أنه باطل وان اقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وابيه وبين المرء واخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته فتفرقوا على ذلك وصاروا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لايمر بهم احد الا حذروه اياه وذكروا له امره وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها

ولما خشى ابو طالب دهماء العرب ان يركبوه مع قومه قال قصيدته

المشهورة التي تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد فيها اشراف اهل بيته من بني عبد شمس ونوفل ، وهو على ذلك يخبرهم انه غير مسلم رسول الله ولا تاركه لشيء ابداً وفيها يقول :

كذبتم ـ وبيت الله ـ نترك مكة ونظعن الا امركم فى بلابل
كذبتم ـ وبيت الله ـ نبزى محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن ابنائنا والحلائل

وفيها يقول :

فوالله لولا ان اجيء بسبة تجر على اشياخنا في المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة من الدهر جداً غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لامكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

لما رأت قريش أنهم لم ينالوا من أبى طالب ماأرادوا عمدوا الى الفتنة (١) فمن جهة الرسول اغروا به سفهاءهم وهم العدة في مثل هذه المواطن لكل من ضاد اصلاحاً فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، وهو مظهر لامر الله لايستخفى منه مبادلهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه اياهم على كفرهم لايبالى بما يصنع سفاؤهم معه

وأما من جهة من اتبعه فان كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالاسلام

---

(١) يقال فتنت الفضة والذهب اذا اذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد واستعملت في الابتلاء والامتحان والاختبار — والمراد بها فى لسان الدين تعذيب المتدين حتي يرجع عن دينه

انواعا من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها وهم يحملونها بصبر عجيب. ولما رأى الرسول ما يصنع باصحابه — وهو غير قادر على حمايتهم مما يسامونه من سوء العذاب - قال لهم لو خرجتم الى الحبشة فان بها ملكا لايظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ففروا إلى الله بدينهم، وهذه كانت أول هجرة فى الاسلام وكان المهاجرون أولا عشرة رجال وأربع نسوة، ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلا، ومعهم من نسائهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار . وكانوا من جميع بطون قريش

فلما وصلوا الى الحبشة اكرم النجاشي مثواهم وأعلنوا هنالك عبادتهم لايخشون شراً، فلما بلغ ذلك قريشاً لم يتركوا هؤلاء الذين فارقوهم وتركوا لهم البلاد يطمئنون في منزلهم الجديد ! ! فاختاروا رجلين منهم ليذهبا الى النجاشي ويطلبا منه ردهم الى بلادهم وأرسلوا معهما هدايا له ولبطارقته وهذان الرجلان هما عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص فلما وصلا الى بلاد الحبشة وأتحفا البطارقة والنجاشي بالهدايا قالا له ايها الملك قد ضوى الى بلادك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم وجاؤا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا انت وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم واعمامهم وعشيرتهم لتردهم عليهم فهم اعلى بهم عيناً واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ويظهر ان هذين الرسولين لم يكونا مخلصين لقومهم في هذه الرسالة فان السيدة ام سلمة إحدى المهاجرات وراوية هذا الخبر تقول ولم يكن شيء أبغض الى عبد الله بن أبى

ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهما النجاشى : فلما اديا الرسالة قال النجاشى لاها اذاً لا اسلمهم اليهما ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا في بلادي واختارونى على سواي ـ حتى أدعوهم فاسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ؟ فان كان كما يقولان اسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهم وأحسنت جوارهم ما جاورونى ؛ ثم أرسل الى جماعة المهاجرين فجاؤا فقال لهم ماهذا الدين الذي فارقتم به قومكم ولم تدخلوا في دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل فكلمه جعفر بن أبى طالب فشرح له ما كانت عليه حالهم قبل الدعوة الاسلامية وما أمر به الرسول من ترك عبادة الاوثان والرجوع الى الله وما وصاهم به من مكارم الاخلاق : ثم قال إن قومنا بغوا علينا وأرادوا فتنتنا عن ديننا فخرجنا إلى ديارك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لانظلم عندك أيها الملك فطلب منه النجاشى أن يقرأ عليه شيئا مما جاء به الرسول فقرأ له صدراً من سورة مريم وفيه حديث ميلاد المسيح فقال النجاشى هذا والذى جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا . فلا والله لا أسلمهم اليكما ولا يكادون : فلما خرجا قال عمرو بن العاص لرفيقه والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم فقال عبد الله لاتفعل ! فان لهم أرحاما وان كانوا قدخالفونا قال والله لاخبرنه انهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد . ثم غدا على النجاشى فقال أيها الملك انهم يقولون فى عيسي بن مريم قولا عظيما فسلهم عنه فطلبهم النجاشى ولما دخلوا عليه سأل المتكلم عنهم عما قال عمرو ! فقال جعفر نقول فيه الذي جاءنا به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول فضرب

النجاشى بيده إلى الارض فأخذ منها عوداً ثم قال والله ماعدا عيسى بن مريم مما قالت هذا العود ؛ فاغضب هذا القول منه بطارقته ولكنه لم يحفل بذلك وقال لمعشر المهاجرين اذهبوا فانتم شيوم — ومعنى هذه الكلمة بالحبشة امنون ، ورد على الرجلين هداياهما

وهؤلاء المهاجرون رجع بعضهم إلى مكة — قبل الهجرة الى المدينة وبعضهم أقام بالحبشة الى السنة السابعة من الهجرة وسيذكر خبرهم بعد

كان قد أسلم قبيل هذه الهجرة رجلان من كبار قريش مشهوران بالفتوة والنجدة وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب الذى كان قبل أن يسلم من أعظم المعارضين للاسلام والمنتقمين ممن أسلم

ومما يدل على شدة شكيمته على المسلمين ماروته أم عبدالله بنت أبي حتمة قالت : والله انا لنترحل الى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علي وهو على شركه قالت وكنا نلقي منه البلاء أذى لنا وشدة علينا قالت فقال انه الانطلاق يا أم عبد الله قالت فقلت : نعم والله لنخرجن فى أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله انا مخرجاً قالت فقال صحبكم الله ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد أحزنه — فيما أرى — خروجنا قالت فجاء عامر (تعني زوجها) فقالت له يا أبا عبدالله لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا ! قال أطمعت فى اسلامه ؟ ! فقلت نعم ، قال فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب ، قالت يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الاسلام

المحاضرة التاسعة

في مقاطعة قريش لبني هاشم والمطلب — هجرة الطائف — العرض على قبائل العرب واجابة الأنصار — البيعة — الهجرة

رأت قريش أن حيلهم قد نفدت فرسول الله منعه عمه وقام معه بنو هاشم والمطلب ـ مسلمهم وكافرهم ـ والمسلمون قد لاذوا ببلاد الحبشة فأمنوا بها فعمدوا الى حيلة أخرى وهي مقاطعة بنى هاشم والمطلب . فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم شيئاً ، ولما أجمعوا أمرهم على ذلك كتبوا صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم بذلك ، فانحازت بنوا هاشم والمطلب الى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه فاجتمعوا اليه وخرج منهم أبو لهب بن عبد المطلب إلى قريش فظاهرهم

أقام أبو طالب فى الشعب أكثر من سنتين وهو ومن معه يقاسون أشد الجهد من مقاطعة قريش لهم ، والرسول مع ذلك مستمر على دعوته يدعوهم ليلا ونهاراً سراً واعلاناً منادياً بأمر الله لايتقى فيه أحداً من الناس

كان في رجالات قريش من تأثر لحال بنى هاشم وبني المطلب وأعظمهم فى ذلك أثراً كان هشام بن عمرو ، من بنى عامر بن لؤى وكان ابن أخي نضله بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، وكان ذا شرف في قومه فمشى الى زهير بن أبى أمية من بنى مخزوم ، وقال له يازهير : أقد رضيت أن تأكل

الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ! أما اني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل مادعاك اليه منهم ما اجابك اليه أبداً ! ! قال ويحك ياهشام انما انا رجل واحد والله لو كان معي آخر لقمت في نقض الصحيفة حتى انقضها ، قال قد وجدت رجلا قال من هو ؟ قال أنا قال زهير ابغنا رجلا ثالثاً فذهب الى مطعم بن عدى وهو سيد بيت نوفل ابن عبد مناف فقال له مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه أما والله لئن امكنتموهم من هذه لتجدنهم اليها منكم سراعا قال ويحك ماذا أصنع فانما أنا رجل واحد ، قال قد وجدت ثانياً قال من هو ، قال أنا قال ابغنا ثالثاً قال قد فعلت ، قال من هو ، قال زهير بن أبي أمية قال ابغنا رابعاً فذهب الى أبي البختري بن هشام فقال له نحوا مما قال لمطعم واعلمه بما اتفقوا عليه : فقال ابغنا خامساً فذهب الى زمعة بن الاسود من بنى أسد ابن عبد العزى فكلمه وذكر له قرابة بنى هاشم والمطلب وحقهم ، فقال وهل على هذا الامر الذي تدعونى اليه من أحد ! قال نعم : وسمى له القوم فاتعدوا حطم الحجون ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا هناك وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير أنا أبدؤكم فلما أصبحوا غدوا الى أنديتهم وغدا زهير بن أبي أمية وعليه حلة فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال ياأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لايباعون ولا يبتاع منهم ؟ ! ! والله لاأقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة ؛ فقال أبو جهل بن هشام كذبت والله لا تشق

فقال زمعة أنت أكذب مارضينا كتابتها حيث كتبت، قال أبو البختري، صدق زمعة لانرضى ما كتب فيها ولا نقر به ، قال المطعم بن عدى صدقتما وكذب من قال غير ذلك ! نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها ، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك . فقال أبو جهل هذا أمر قضي بليل تشور فيه بغير هذا المكان وأبو طالب جالس في ناحية المسجد فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الارضة قد أكلتها الا باسمك اللهم

مكثت الحال على ذلك والمسلمون كل يوم في ازدياد من قريش ومن غيرهم ، ولا يتمكن أعداء الرسول من الاعتداء عليه حتي كانت السنة العاشرة من النبوة فأصيب الرسول بمصيبة عظيمة وهي وفاة عمه ابى طالب وزوجه خديجة بنت خويلد فى يومين متقاربين فى شهر شوال ، وكانت خديجة له وزير صدق على الاسلام يشكو اليها وكان عمه عضداً وحرزاً في أمره ومنعة وناصراً على قومه وكان موتهما قبل الهجرة بثلاث سنين فنالت قريش من أذى الرسول مالم تكن تطمع فيه فى حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا

رأى الرسول أنه لابد له من عضد يوزاره ويدفع عنه أذى قومه حتى يؤدي رسالة ربه فذهب الى الطائف ـ وبها بطون ثقيف ـ وعمد الى أشرافهم وذوي الرئاسة منهم وهم اخوة ثلاثة عنديا ليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفيون فجلس اليهم ودعاهم الى الله وكلمهم بما جاءله من نصرة الاسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فرد عليه ثلاثتهم رداً قبيحاً ، فيئس منهم وعاد عنهم فأغروا به سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه

الناس والجئوه الى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه . ولما قدم مكة أرسل الى المطعم بن عدى يخبره انه يدخل مكة في جواره فاجابه الى ذلك ثم تسلح المطعم وأهل بيته حتى أتوا المسجد ، ثم بعث الى رسول الله ان ادخل فدخل رسول الله فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف الى منزله ففي ذلك يقول حسان بن ثابت فى رثاء المطعم لما توفى

اجرت رسول الله منهم فاصبحوا عبيدك مالبى مهل واحرما

كان الرسول يقوم فى مواسم الحج داعياً من أقبل الى مكة من سائر العرب ويقرأ عليه القرآن ويطلب منهم أن يقوموا دونه حتى يؤدى رسالة ربه فكانوا لا يجيبونه الى ذلك ، ومنهم من يرد عليه رداً قبيحا : عرض ذلك على بنى عامر بن صعصعة فقال كبيرهم أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أن يكون لنا الامر من بعدك قال الامر لله يضعه حيث يشاء ، فقال له أفنهدف نحورنا للعرب دونك فاذا أظهرك الله كان الامر لغيرنا لا حاجة لنا بامرك ! وعرض ذلك على بنى حنيفة من ربيعة فلم يكن أحد اقبح رداً منهم

فى ذلك الوقت كانت نيران العداوة متقدة فى يثرب بين الاوس والخزرج وكانت الخزرج أكثر عدداً ففكر الاوس انهم يستعينون بقريش فيحالفونهم على بنى عمهم من الخزرج فأرسلوا لذلك وفداً فيهم أبو الحيسر أنس بن رافع واياس بن معاذ فلما علم الرسول بمقدمهم جاءهم فجلس اليهم وقال لهم هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا وما ذاك ، قال أنا رسول الله بعثنى إلى العباد أدعوهم الى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا وانزل على الكتاب ثم ذكر

لهم الاسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن فقال اياس بن معاذ ـ وكان غلاما حدثا أى قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ أبو الحيسر حفنة من حصباء ورمي بها فى وجه اياس وقال له دعنا منك لقد جئنا لغير هذا . فسكت إياس وقام الرسول عنهم وانصرفوا الى المدينة

كان عقب انصراف هذا الوفد أن حصل في يثرب حرب شديدة بين الاوس والخزرج ، ويسمى يومها فى التاريخ يوم بعاث : وهو آخر حروبهم وانتصرت فيه الاوس نصرا مؤزراً بعد ان انهزمت أول مرة

في الموسم الذى كان بعد هـذه الحرب أقبل الى مكة للحج جماعة من الخزرج فجاءهم الرسول ودعاهم الى الاسلام كما كانت عادته وكان في أنفسهم شيء مما كانوا يسمعونه ، وهم فى المدينة من يهودها عن بعثة نبي قرب وقت ظهوره يستظهر به اليهود عليهم ، فقال بعضهم لبعض إنه للنبي الذى توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم اليه فاجابوه الى مادعاهم بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الاسلام فقالوا له إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى ان يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم لامرك ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم وكانوا ستة نفر من الخزرج فلما قدموا المدينة الى قومهم ذكروا لهم رسول صلى الله عليه وسلم ودعوهم الي الاسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار الا وفيها ذكره

فلما كان الموسم الذي قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر — وافى الموسم

من أهل المدينة اثنا عشر رجلا . فلقوا رسول الله بالعقبة وبايعوه على الاسلام بيعة تسمى في التاريخ ببيعة النساء ، وانما سميت بذلك لانها كانت على الامور التي ورد ذكرها فى سورة الممتحنة خاصه ببيعة النساء وهي هذه الآية (ياأيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم)

وبعد أن تمت هذه البيعة بعث معهم مصعب بن عمير من بنى عبد الدار ابن قصي وامره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين ، فكان يسمي المقرىء وكان يؤمهم فى المدينة لان الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض وكان اسلام هؤلاء النفر وذهاب مصعب معهم سبباً كبيراً من أسباب دخول أشراف أهل يثرب في الاسلام فأسلم اسيد بن حضير من الأوس وكان ابوه قائد الأوس فى يوم بعاث واسلم سعد بن معاذ سيد بنى عبد الاشهل من الأوس ولما اسلم ذهب إلى قومه فى ناديهم ، فقال يابنى الاشهل ، كيف تعلمون امرى فيكم ؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأياً وايمننا نقيبة ، قال فان كلام نسائكم ورجالكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قالوا فوالله ماأمسى في دار بني عبد الاشهل رجل ولاامراة الا مسلماً او مسلمة .

وكان لأسعد بن زرارة الذى نزل عليه مصعب قدم ثابتة في دعوة أهل المدينة إلى الاسلام حتى لم تبق فيها دار الا وفيها رجال مسلمون ونساء

مسلمات إلا بعض بطون قليلة من الأوس اخرها عن الاسلام صيفي بن الاسلت المكنى بأبي قيس ، وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون منه ويطيعونه : فلما كان الموسم الأخير قدم مصعب بن عمير ، وخرج من المسلمين عدد كبير ، ومعهم حجاج من قومهم لم يزالوا على الشرك ، وأرسل المسلمون إلى رسول الله يواعدونه المقابلة عند العقبة من أوسط أيام التشريق : فلما انتهى أمر الحج ومشاعره وحان الموعد خرج المسلمون من رحالهم بعد انقضاء ثلث الليل يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة وكانت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلا وأمرأتين — هما نسيبة بنت كعب من بني مازن ابن النجار الخزرجية وأسماء بنت عمرو وإحدى نساء بني سلمة من الخزرج ، واستمروا منتظرين الرسول حتى جاءهم ومعه العباس بن عبد المطلب عمه ، وهو يومئذ على دين قومه الا أنه احب أن يحضر أمر ابن أخيه ، يتوثق له فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال : يامعشر الخزرج أن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وإنه قد أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه — بعد الخروج به اليكم — فمن الآن فدعوه فانه في عز ومنعة من قومه وبلده ، فقال المتكلم من الخزرج قد سمعنا ماقلت فتكلم يارسول الله نخذ لنفسك ولربك ماأحببت فتكلم عليه السلام فتلا عليهم القرآن ودعا إلى الله ورغب فيه ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم فأخذ سيدهم البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم و لذي بعثك

بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يارسول الله فأنا والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر فقال أبو الهيثم بن التيهان يارسول الله أن بيننا وبين الرجال حبالا وانا قاطعوها (يعني يهود المدينة) فهل عسيت : أن نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك الله — أن ترجع الى قومك وتدعنا . قال فتبسم الرسول ثم قال · الدم الدم والهدم الهدم : يعني أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم : ثم قال لهم أخرجوا لي منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس ، فقال لهم : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومي وهاهي أسماء النقباء

(١) أسعد بن زرارة من بني النجار بن ثعلبة من الخزرج

(٢) سعد بن الربيع من بنى مالك بن امرىء القيس من الخزرج

(٣) عبد الله بن رواحة « عمرو بن امرىء القيس

(٤) رافع بن مالك « زريق بن عامر من الخزرج

(٥) البراء بن معرور « سلمة بن سعد

(٦) عبد الله بن عمرو من بنى سلمة بن سعد من الخزرج

(٧) عبادة بن الصامت « غنم بن سالم »

(٨) سعد بن عبادة « ساعدة »

(٩) المنذر بن عمرو « »

(١٠) أسعد بن حضير « عبد الأشهل من الأوس

(١١) سعد بن خيثمة « كعب بن حارثة »

(١٢) أبو الهيثم بن التيهان من بنى عبد الاشهل من الاوس

وكان أول من ضرب بيده على يد رسول الله مبايعاً البراء بن معرور وبنو النجار يزعمون أن اول من بايع هو أسعد بن زرارة وبنو عبد الاشهل يقولون إنه ابو الهيثم بن التيهان : والقول الاول اثبت لان البراء بن معرور كان كبير القوم : بعد ان انتهت المبايعة امرهم رسول الله ان يعودوا الى رحالهم فذهبوا الى مضاجعهم فناموا ولما اصبحوا كان الخبر قد بلغ قريشاً فجاء رؤساؤهم الى منازل الانصار ، وقالوا يامعشر الخزرج قد بلغنا انكم قد جئتم الى صاحبنا تستخرجونه من بين اظهرنا وتبايعونه على حربنا وانه والله مامن حى من العرب ابغض الينا ان تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم فانبعث من هنالك من مشركيهم يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه وهم في يمينهم صادقون لانهم لم يعلموه وقال لهم عبد الله بن ابي سلول — وهو سيد من سادتهم لم يسلم ان هذا الامر جسيم ماكان قومي ليتفوتوا على بمثل هذا وما علمته فانصرفوا عنه

نفر الناس من منى ، وتجسست قريش الخبر فوجدوه قد كان لكن بعد ان فاتهم الانصار

بعد ذلك امر الرسول اصحابه بالخروج الى المدينة والهجرة اليها واللحوق بأخوانهم من الانصار ، وقال لهم ان الله عز وجل قد جعل لكم اخواناً وداراً تأمنون بها فخرجوا ارسالا رجالا ونساء الا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين

لما رأت قريش ان رسول الله صارت له شيعة واصحاب من غيرهم وغير

بلدهم ورأت خروج اصحابه من المهاجرين اليهم وعرفوا انه قد اجمع لحربهم فلم يبق الا أخذ الحيطة لذلك

اجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون في امره وكان بها اشراف قريش وذوو السن فيهم فقال قائل منهم الرأى ان نحبسه فى الحديد ونغلق عليه بابا ثم نتربص به ما اصاب اشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله من هذا الموت حتى يصيبه ما اصابهم فقال شيخ فيهم ماهذا لكم برأى لئن حبستموه ليخرجن امره من وراء الباب الذى اغلقتم دونه الى اصحابه فيوشك ان يثبوا عليكم فينتزعوه من ايديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبونكم على امركم: فقال آخر منهم نخرجه من بين اظهرنا فننفيه من بلادنا فاذا خرج عنا فوالله لانبالي اين ذهب ولا حيث وقع اذا غاب عنا أصلحنا امرنا والفتنا كما كانت: فقال ذلك الشيخ ما هذا لكم برأى ! ! ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به لو فعلتم ذلك ماأمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليكم ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ امركم من ايديكم ، ثم يفعل بكم ماأراد : فقال ابو جهل بن هشام إن لى لرايا فيه ماأراكم وقعتم عليه ، هو ان نختار من كل قبيلة شاباً فتى جلداً نسيباً وسيطاً فينا ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا اليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم ،

فكان رأيه هذا مقبولا عند جميعهم واتفقوا عليه وعينوا الفتيان والليلة التي ينفذون فيها ماأرادوا

علم الرسول عليه السلام بهذا الخبر ، وبما أجمع عليه أعداؤه فتوجه الى صديقه أبي بكر وأخبره أن الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه اليها ثم هيأ ءمايلزم لهذا السفر: راحلتين ودليلا خريتاً يأخذ بهما أقرب الطرق واتعدا أن يكون السير في الليلة التي اتفقت فيها قريش على الفتك به في صبحها ، وفي تلك الليلة أمر ابن عمه علي بن أبي طالب أن ينام مكانه ويتسجى ببرده لئلا يرتاب أحد في وجوده ببيته وأمره بأن يبقى بمكة حتى يؤدي عنه ودائعه وكان كل من عنده شيء يخشى عليه بمكة يضعه عنده

في الليلة التي تجمهر فيها فتيان قريش ليفتكوا به خرج الى بيت أبي بكر، وخرجا معا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمدا الى غار بجبل ثور وهو جبل بأسفل مكة فدخلاه وكان عبد الله بن أبي بكر يتسمع لهما الأخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما اذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما يأتيهما اذا أمسى في الغار ليعفى أثر عبد الله بن أبي بكر وكانت أسماء بنت أبي بكر تاتيهما من الطعام اذا أمست بما يصلحهما

أصبحت فتيان قريش تنتظر خروج الرسول عليهم وإذا بهم باتوا يحرسون علي بن أبي طالب لامحمد بن عبد الله ولما علمت بذلك قريش هاجت وأرسلت الرسل في طلبه من جميع الجهات وجعلوا لمن ياتيهم به حيا اوميتا مئة ناقة فذهبت تلك الرسل يمينا وشمالا ولكنها عادت بالخيبة

اقام الرسول وصاحبه بالغار ثلاثة ايام حتى علما ان قد سكن الطلب فجاءهم الدليل ـ حسبما اتفقا معه ـ بالراحلتين فركباهما واردف ابو بكر خلفه عامر ابن فهيرة ليخدمهما في الطريق والدليل اسمه عبد الله بن اربقط فسلك بهما الى الساحل حتى عارض الطريق اسفل من عسفان ثم سلك بهما على اسفل امج ثم عارض بهما الطريق بعد ان اجاز قديداً ثم اجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ثم ثنية المرة ثم القفا ثم مدلجة لقف ثم استبطن بهما مدلجة مجاج ثم سلك بهما مرجح مجاج ثم تبطن بهما مرجح ذى العصوين ثم بطن ذي كشد ثم اخذ بهما على الجداجد ثم على الاجرد ثم ذاسلم من بطن اعداء مدلجة تعهن ثم على العبابيد ثم اجاز بهما الفاجة ثم هبط بهما العرج وهي من منازل الجادة بين مكة والمدينة ثم سلك بهما من العرج إلى ثنية الغائر عن يمين ركوبة حتي هبط بهما بطن ريم ثم قدم بهما قباء على بنى عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين لثمان خلت من ربيع الاول لثلاث وخمسين سنة مضت من مولده وهو يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من ميلاد المسيح عليه السلام

والى هنا انتهي القسم الاول من حياته عليه السلام فنتبعه بفصلين : اولهما فى التشريعات المكية والثاني فى آثار هذه المدة



المحاضرة العاشرة

التشريع المكي –

مكث الرسول في مكة من وقت النبوة إلى أن هاجر إلى المدينة اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر و٢١ يوماً اذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول الى قباء أنزل عليه في اثنائها معظم القرآن والذى نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقى — وهو اثنتان وعشرون سورة — نزلت بالمدينة ومنها أكبر سور القرآن وهي (٢) البقرة (٣) آل عمران (٤) النساء (٥) المائدة (٨) الانفال (٩) التوبة (٢٤) النور (٣٣) الاحزاب (٤٧) القتال (٤٨) الفتح (٤٩) الحجرات (٥٧) الحديد (٥٨) المجادلة (٥٩) الحشر (٦٠) الممتحنة (٦١) الصف (٦٢) الجمعة (٦٣) المنافقون (٦٤) التغابن (٦٥) الطلاق (٦٦) التحريم (١٠٠) النصر وماعدا ذلك فهو مكى

وقد اشتمل التشريع المكي على أهم ماجاء الرسول صلى الله عليه وسلم لاجله وبين روحه قوله تعالى فى سورة الشورى ﴿ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ثم قال ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع اهواءهم وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وامرت لاعدل بينكم، الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بينناواليه المصير ﴾

امتاز التشريع المكي بما يعبر عنه أبو اسحاق الشاطبي فى الموافقات بالتشريع الكلي، وانما سماه كذلك لانه لم يتعرض فيه الى تشريع أحكام جزئية خاصة بحال دون حال أو نوع دون نوع، وكله — من الشرائع الابدية التي لايخالف فيها دين دينا ومن مصلحة العالم أجمع — فيما مضى وفيما هو آت — ان يكون متبعاً لها منقاداً لما جاء فيها ولذلك أطلق على ملته فى القرآن فى سورة الحج (ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) وأعلن انه إنما جاء مصدقا لمن سبقه من الانبياء وقال له الله عنهم ـ فى سورة الانعام ـ بعد أن قص عليه اسماءهم (أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده) الى غير ذلك

وأهم ما جاءت به الآيات المكية هو :

(١) التوحيد ورفض الاوثان والاصنام فلا يكون بين العبد وبين ربه واسطة .

معلوم أن العرب كانت عامتهم تدين بالوثنية الا قليلا منهم فلم يكن بد من مقاومة شديدة للاوثان والاصنام ، وكل ما هو منها بسبيل ، ولذلك رأينا معظم الآيات المكية على هذا النهج تثبت التوحيد وتقيم عليه وتناقش المعارضين وتذم الشرك والاوثان والاصنام وتنعي على المتوسلين بها مذاهبهم تصريحاً وتلميحاً : ضربت الامثال بالامم السابقة وما اصيبوا به من جراء شركهم بالله وتكذيبهم للانبياء والرسل ، وكررت ذلك تكراراً مؤثراً باساليب مختلفة : لان أشد مايفعل فى النفوس لاثبات التعاليم فيها إنما هو التكرار مع تنوع الاساليب . واكثر الانبياء ذكراً فى آيات الكتاب موسى صلوات الله عليه وما حاور به فرعون مصر من سؤال وجواب

لاثبات الوهية الله وما اتصف به من عظيم الصفات ثم ما كان من شأنه مع قومه حينما كانت تحن أنفسهم الى الوثنية فيتخذون العجل الذهبي معبوداً ثم ما كان من تحذيره اياهم عن الوقوع فى هذا الشرك ، وايعادهم بالشر اذا هم عادوا اليه : وقلما نرى سورة من السور المكية الكبرى خلت من اسمه . ذكرهم بما كان عليه أبوهم ابراهيم من كراهة الاوثان وتكسيرها ورفض عبادتها وضرب المثل فقال (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا احب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما افل قال لئن لم يهدنى ربي لاكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ، هذا أكبر ! فلما أفلت قال ياقوم اني بريء مما تشركون إني وجهت وجهى للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين) ضرب لهم الامثال بالامم الخالية من عرب وغيرهم كل ذلك للتأثير فى هذه الانفس التي اشربت حب هذه المعبودات الباطلة

وجر ذلك ـ بالضرورة ـ الى تحريم كل ماذبح على النصب أو جعل فيه شيء لالهتهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وغيرها وهذا من باب المقاومة كما حرمت الشريعة مالم يذكر عليه اسم الله ليكون الانسان منهم على ذكر دائم من رفض الوثن والصنم وهذه حركة مضادة لما كانوا يفعلون، فانهم كانوا يذبحون باسم أصنامهم فامروا أن يذبحوا باسم الله حتى ينسوا تاماً ما كانوا عليه، ومن هنا جاءت الشريعة طالبة بعد ذلك أن جميع الافعال التي يشرع فيها الانسان لا بد أن تفعل باسم الله لا باسم غيره من المعبودات

ومن هنا أيضاً اقفلت الشريعة عليهم باب التصوير والتمثيل لان الامر كما علمتم - يحتاج الى مقاومة شديدة فان النفس المتشبعة بالشيء الذى نهيت عنه لا يؤمن أن تعود اليه متى ظهر امامها فانها اذ ذاك تحن اليه . للحركة النفسية مداخل غريبة ولذلك قال علماء الاخلاق اذا أهمك ان تنزع نفس عن شيء تعودته وأنست به فأخفه عنها فان رؤيتها له مرة واحدة تدك معالم الاوامر والنواهى وتحدث مقاومة شديدة لما قسرت عليه النفس من اتباع الاوامر : مثلوا أمام نظركم حالة شارب الدخان اذا أمره الطبيب بتركه واقتنع بأن التدخين غير مفيد فتركه ثم رأى سيجارة بيد غيره يدخن بها لاشك أنه يحس بحركة في نفسه تذكره بذلك الألف القديم فيحتاج عند ذلك الى عزيمة قوية يغالب بها ذلك الحنين ، ولا ينسى الأمر بتاتاً الا بعد مرور زمن طويل والأمثلة على ذلك كثيرة لحماية لهذا الضعف الانساني كرهت التصاوير والتماثيل من باب الاحتياط وسد الذرائع . ولذلك لما رأى عمر بن الخطاب بعض المسلمين يتبرك بالشجرة التى بايع عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فى الحديبية أمر للحال بقطعها واعفاء أثرها

(٢) اثبات يوم آخر يجازى فيه كل أمرىء بعمله أن خيراً فخيراً وان شراً فشراً ، وقد نصت الآيات المكية على ذلك كثيراً محذرة من شره مرغبة فى خيره وكررته تكراراً عظيما يقرب مما كان في أمر التوحيد والاوثان ونصت على أن العدل سيجرى مجراه بعد أن توزن أعمال الانسان فمن غلب خيره شره فاز ومن غلبت شروره خاب اذلا يمكن أن يعقل في الوجود الانساني من هو خير محض أو من هو شر محض والموازنة بين

أعمال الخير وأعمال الشر بحسب ماكانت نتيجتها فى الناس

وقد وصف القرآن دار الجزاء وما فيها من خير وشر أوصافاً ترغب وتخيف وكرر ذلك في مواطن كثيرة منه

لم يجعل اليأس يتسرب الى النفس الانسانية بما اجترمته من الخطاياولا الآمال الكاذبة تستولى عليها فتطلب النجاة من غير وجهها بل جعل عمل الخير والشر عنواناً على مايناله صاحبه مهما دق (ولا يظلم ربك أحداً) (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) أخاف اصحاب الشر وفتح امامهم باب الرجوع الى فعل الخير واخبرهم أن الحسنة اذا تلت السيئة محتها . والذي يفهم من القرآن أن الحسنات المؤثرة فيمحو السيئات انما هي العملية

(٣) بين لهم الخصال التى تقرب الى الله والتى تبعد منه ومعظمها يرجع الى الاخلاق والملكات في معاملة الناس بعضهم مع بعض : يقول في سورة الشورى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ثم يقول (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور)

ويقول في سورة الاعراف (خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين) ويقول في الشورى (وأمرت لأعدل بينكم) ويقول فيها (قل لاأسألكم عليه أجراً إلا المودةفي القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور) وقال فى سورة فصلت (ولا تستوى الحسنة

ولا السيئة ادفع بالتى هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) جمع لهم فى سورة الاسراء وصايا جميلة بابدع أسلوب وأشده تأثيراً فيرونه يتلى كل وصية بفائدتها إقرؤا — إن شئتم — من قول الكتاب وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه ، الى قوله ذلك مما أوحي اليك ربك من الحكمة . وصف عباد الرحمن في سورة الفرقان بصفات يطلب منهم أن لايتعدوها لتكون لهم صفة عباد الرحمن وصدرها (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) ، الى آخر السورة ، واستقصاء ذلك يستدعى وقتاً طويلا وإنما نحن نشير الى ذلك ونطلب منكم مراجعته . ولا تجعلوا بينكم وبينه سداً من الاوهام حتى تعلموا بم كان يوصيهم وكيف كانوا يجيبونه ؟ ؟ فانه لاشيء أدل على سيرته وآدابه وتعاليمه من الكتاب الذى أنزل الله عليه

(٤) عبادات عملية تربطهم بالله وتوجههم نحو الخير ، والبدني منها هو الصلاة فقد ورد الامر بأدائها في كثير من الآيات المكية وقد علمه الوحي كيف يؤديها — كما ورد في الاخبار الصحيحة — والصلاة وحدها هي التى فصلت تمام التفصيل بمكة . وتفصيلها انما كان عملياً لان آيات الكتاب لم تبين بصراحة أجزاءها ولا أوقاتها وانما أخذ منها بطريق الاشارة وقد نقلت نقلا عملياً . وقد وصف القرآن تلك الصلاة التى أمر بها بأنها تنهي عن الفحشاء والمنكر واعتبر في سورة الماعون ممن يستحقون الويل (الذين هم يراؤون) وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذى فرضت فيه الصلاة : فقال بعضهم انها فرضت ليلة الاسراء حينما عرج برسول الله الى الملأ الاعلى

وقال آخرون بل قبل ذلك

ونحن نقول كلمة عن الاسراء والمعراج ثم نتبعها بما يظهر لنا . الاسراء مصدر اسرى يقال أسرى به أى جعله يسرى : والسرى هو السير ليلا ، ويراد به — في لسان المحدثين — تلك السياحة الليلية التى وصل فيها رسول الله من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ليريه الله من آياته والمعراج ماخوذ من العروج وهو الصعود ، والمعراج أداته يعنى السلم المعدله ويراد به صعود رسول الله الي الملا الاعلى

الاسراء ورد ذكره فى الكتاب في أول سورة سميت باسمه قال تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) وقد اتفق المؤرخون على وقوع الحادثة ورسول الله بمكة لان السورة مكية ولكنهم لم يعينوا وقتها بالضبط وإن رسول الله اخبر بها قومه في صبح تلك الليلة فكانت مثاراً لعجبهم وسخريتهم وصدق بها المؤمنون وفى مقدمتهم ابو بكر الذى سمى فى ذلك اليوم بالصديق — وكذب بها المشركون وبعض الضعفاء المفتونين من المسلمين حتى ان بعضا منهم ارتد

واختلف المتكلمون فى امر الاسراء : فروي عن معاوية بن ابي سفيان أن الاسراء كان رؤيا صادقة رآها رسول الله ﷺ : وروى عن عائشة ان الاسراء انما كان بروحه لان جسمه لم يزل من مكانه ونرى ان نتيجة القولين واحدة — لان الاسراء بالروح ليس معناه أن الجسم قد مات اذ لم يقل بهذا القول احد لا عائشة ولا غيرها ، وانما تلك الروح الطاهرة أطلعها الله في حالة النوم على شيء من الآيات التى هى في جهات بعيدة عن

موطنها ، والرؤيا — كما قدمنا — نوع من الوحي للانبياء ويستدل أصحاب هذا الرأى بقوله تعالى في السورة نفسها (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) وقد قال الحسن البصرى راوى حديث الاسراء فأنزل فى ذلك قوله تعالى وما جعلنا الرؤيا الخ

وجمهور المسلمين على أن الاسراء كان بجسمه ويستدلون على رأيهم بان الاسراء لو كان رؤية ماكان هناك داع لاستغراب المشركين وضعفاء المسلمين لانه ما الذى يستبعد من اطلاع انسان على أقصى ما فى الارض فى رؤيا يراها

بعض المؤرخين يميلون الى رأى عائشة ومعاوية ، لا لأنهم يحيلون أن يقع للانبياء أمر خارق للعادة ، بل لانهم لايتمسكون من هذه الخوارق إلا بما شاهده رواته عيانا وصرحوا بمشاهدته فى رواياتهم ووصل اليهم من طرق مأمونة الخطأ أو صرح به الكتاب : قالوا إن إقدام عائشة ومعاوية على القول بأن الاسراء كان رؤيا صادقة يدل على أن هذا القول لم يكن بدعا في زمنهما لانه لم ينقل الينا التاريخ ان أحداً قام في وجههما رداً عليهما رأيهما ، بل بالعكس رأينا ابن اسحق يقول فلم ينكر ذلك من قولهما القول الحسن فأنزل الله فى ذلك (وما جعلنا الرؤيا الخ). وعائشة زوج الرسول (وإن لم تكن كذلك حين وقوع الحادثة) أدرى الناس بما كان من حوادثه التي أكرمه الله بها فمن البعيد أن تكون أقدمت على هذا القول من غير توقيف منه ، والمعروف عنها أنها كانت تسأله عن مشكلات القرآن فيفسرها لها . ومعاوية كان خليفة للمسلمين فيبعد أن يظهر برأى يتفق على خلافه جمهور أمته خصوصاً فى مثل هذه الحادثة الكبرى ثم لايقوم فى وجهه الصحابة

معارضين على حين انهم كانوا يردون عليه القول رداً شديداً فى أيسر الامور فكيف بهذا الامر الجلل. لما رجع هؤلاء المؤرخون الى الكتاب فى أمر هذه الحادثة وجدوه يقول « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا » والمتفق عليه أن المراد بعبده محمد صلى الله عليه وسلم واطلاع الله نبيه فى نومه على مايريد إطلاعه عليه لايختلف شيئاً عن اطلاعه اياه في يقظته لان رؤيا الانبياء حق – تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلا يمنع هؤلاء من رأيهم اضافة الاسراء الى عبده ، والروح اذا جلى لها المسجد الاقصى تتمكن من رؤيته ومعرفة تفاصيله ومشاهدة آيات الله وعجائبه أكثر من الرؤية العينية ليلا

أما استغراب المشركين فامره ظاهراً لانهم قوم معاندون يريدون اظهار رسول الله امام الناس بما ينفرهم فيكفى – لان يجدوا فرصة لذلك – أن يسمعوا منه عليه السلام أسرى بي الليلة الى بيت المقدس ، وعند ذلك يكبرون فى أنفس الناس قوله، وقد كان يقول بعضهم لبعض – كما جاء فى الكتاب – (لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

قال ابن اسحاق بعد ان ذكر القولين والله أعلم أى ذلك كان قد جاء وعاين فيه ما عاين – من أمر الله على أى حاليه – نائما أو يقظان – كل ذلك حق وصدق اه

أما المعراج فلم يرد ذكره فى القرآن صريحا ولكن تضافرت به الاخبار ورواه جمع من الصحابة وأخرجته كتب الصحاح ولكن هذه الروايات لم تتفق فى شرح حوادثه لذلك قال بعض المحدثين أنه حصل جملة مرات منها المرة التى

كانت ليلة الاسراء وأصحاب الاسراء الروحي يقولون بالمعراج الروحي والجمهور يقولون إنه بجسمه وأكثر من فصل أحاديث الاسراء والمعراج أحمد بن محمد القسطلاني فى كتابه المسمي بالمواهب اللدنية فقد كتب فيها نحواً من ٤٥ صفحة فليراجعها من أحب زيادة التوسع ، ودافع محمد بن جرير الطبري فى تفسيره عن رأى من يقول بالاسراء الجسمي

لما كان كثير من المحدثين يرون أن الصلاة فصلت ليلة المعراج لزم أن يكون فى أوائل البعثة وقد أغرب بعض الرواة فجعله قبل أن يوحى اليه ولكنهم لم يعولوا على هذه الرواية وقد جعله ابن إسحاق بعد فشو الاسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها ولكنه سرد تاريخه قبل أن يذكر وفاة عمه أبي طالب. ويلزم من ذلك أن الرسول وأصحابه لم يكونوا فى أول الامر يصلون الصلوات الخمس، وإنما كانوا يصلون صلوات أخرى — وبذلك قال جمع من المحدثين

وخلاصة القول أن الصلاة فرضت على المسلمين من أول الدعوة وبعد ذلك بزمن لم يحدد تماماً فرضت الصلوات الخمس فعلمه الوحي أعداد ركعاتها وأوقاتها والشكل الذي تفعل به : مما فرض بمكة الزكاة فأنا قلما نجد من الاوامر المكية ذكر الصلاة الا وبجانبه إيتاء الزكاة وطلبت زكاة مايخرج من الارض في سورة الانعام (وآتوا حقه يوم حصاده) الا أن هذه الحقوق الواجبة لم تفصل بمكة فقد كان ذلك موكولا لما في النفوس من الجود وبحسب حاجة الناس

ومما يلفت النظر إلى الآيات المكية أن قارئها يحس فيها بأمر مدهش ذلك أن الرسول صلى عليه الله وسلم كان بمكة مضطهداً فى حاجة إلى من يدفع عنه أذى اعدائه الذين وقفوا في سبيل دعوته فى ذلك الحين كانت الآيات المكية

تبلغ له من الله على غاية من الشدة مما يدل على أن الرسول كان على يقين من الله تام بأن العاقبة له وهو مرة يهان من قومه الذين تمالؤا عليه ومرة يرد أقبح رد من العرب الذين يردون الموسم ، وها نحن أولاء نمثل أمامكم تلك الشدة بما نتلوه عليكم من الآيات «١» ولتعلمن نبأه بعد حين «٢» إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد « ٣ » سنريهم آياتنا في الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق « ٤ » أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ؟! أم يقولون نحن جميع منتصر ؟! سيهزم الجمع ويولون الدبر « ٥ » ولو ترى إذ فزعوا فلافوت وأخذوا من مكان قريب «٦» قل رب إما تريني مايوعدون رب فلا تجعلنى في القوم الظالمين « ٧ » فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن « ٨ » قل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها (٩) فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون (١٠) ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون (١١) فأعرض عنهم وانتظر إنا منتظرون (١٢) فارتقب إنهم مرتقبون الى غير ذلك من الآيات الشديدة الوقع وظهر نبؤها بعد حين

كان يفعل الامر ويرغب به استمالة عظمائهم لما كان عليه من الرأفة بهم وارادة الخير لهم ويكون من نتائجه أن صغيراً من المسلمين أعرض عنه فيجيئه الوحى مشتداً ومنبهاً كما حصل فى حادثة عبد الله بن مكتوم الاعمى فقد

---

(١) سورة ص (٢) سورة غافر (٣) سورة فصلت (٤) القمر
(٥) سبأ (٦) المؤمنون (٧) الشعراء (٨) النمل (٩) الروم
(١٠) السجدة (١١) السجدة (١٢) الدخان

حدث أن الرسول قابل جمعاً من هؤلاء العظماء فتلا عليهم القرآن ورجا أن تلين قلوبهم لما يدعوهم اليه ؛ فجاءه ابن أم مكتوم وقال يارسول الله علمني مما علمك الله فعبس رسول الله وأعرض عنه طمعاً في أولئك العظماء ، فجاءه الوحي بقول الله (عبس وتولى أن جاءه الاعمي وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ! أما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك أن لا يزكي ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى) وهـذه شدة أدبه الله بها كما قال : أدبني ربي فاحسن تأديبي

(٥) مما شرع في آخر أيامه بمكة الأذن له بالقتال

ولما كان هذا النوع من المشروعات يستدعي عناية كبرى في بحثه أردنا أن نقول كلمة فيه غير مقتصرين على ماشرع بمكة لأن الموضوع يلزم أن يأخذ بعضه بحجز بعض حتى لا يتجزأ فتضيع الفائدة : وبحثنا قاصر على الجهة التاريخية ، ولذلك نقتصر على ماجاء من أوامر القرآن وسنتبعه بما كان من التنفيذ الفعلي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونترك للفقهاء ماامتازوا به من دقة الاستنباط لان ذلك ليس من عملنا



المحاضرة الحادية عشر

أسباب شرعية القتال — المواثيق والعهود — أسرى الحرب — الاسترقاق — لم شرع القتال — ؟

بين الكتاب في مواضع منه السبب الذى من أجله أذن للمؤمنين بالقتال. وذلك يرجع الى أمرين (الاول) الدفاع عن النفس عند التعدي، الثاني: الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد فى سبيلها بفتنة من آمن أى باختباره بانواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه دينا أو بصد من أراد الدخول فى الاسلام عنه أو بمنع الداعى من تبليغ دعوته وهذه هي المواضع التى جاء فيها ذلك الموضوع من القرآن

الموضع الاول — جاء فى سورة الحج، وهو أول ما أنزل في أمر القتال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله! ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز، الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور)

بينت هذه الاية ان القتال اذن فيه للمسلمين ثم اعقبته ببيان السبب وهو انهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق الا قولهم ربنا الله يعنى أنهم لم

يظلموا من أهل مكة الا بسبب اعتقادهم وهذا بمثابة التفسير لآية الشورى ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ماعليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق ـ ثم بينت انه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت اماكن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله في الارض ذكر . ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال باوصاف هي في الحقيقة تنبيه لهم الى مايجب أن يفعلوه اذاهم انتصروا على من ظلموهم وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

الموضع الثانى ـ قوله في سورة البقرة المدنيـة (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتـدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ـ والفتنة أشد من القتل ـ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لاتكون فتنـة ويكون الدين لله ـ فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين ـ الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين)

بينت هذه الاية سبب القتال حيث وصفت من أمر المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم فى دينكم بما فعلوا من الاذى والظلم وجعلت لهذا القتال غاية وهى أن لاتكون فتنة ويكون الدين لله بان يكون الانسان حراً فى دينه لايدين به الا الله لاخوفا ولا طمعاً وقد بين الكتاب أن الفتنة أشد من القتل لأنها اعتداء على العقيدة والوجـدان

وذلك شر ما يكون من بني الانسان : نهت الايات عن الاعتداء وأعلنت ان الله يبغض المعتدين ، وهم الذين يبدأون غيرهم بالشر ، وبينت أن الجزاء عند الاعتداء – لاينبغي ان يتجاوز به مافعله البادىء بالعدوان (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله)

الموضع الثالث – قوله في سورة النساء المدنية « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » بينت هذه الآية سببين تحث على القتال وهما (أولا) سبيل الله . وقد بينته آية البقرة وهو الغاية التي يسعى اليها الدين أن لاتكون فتنة ويكون الدين لله (ثانياً) سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحيل بينهم وبين الهجرة فعذبتهم قريش وفتنتهم حتى تضرعوا الى الله طالبين منه الخلاص ، فهؤلاء لابد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتنيلهم الحرية فيما يدينون وما يعتقدون

الموضع الرابع – قال عن قوم مشركين لم يحبوا ان يقاتلوا قومهم ولا أن يقاتلوا المسلمين فاعتزلوا الفتن جانبا (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) على شرط أن يكون ميلهم الى السلام حقيقياً لاذبذبة عندهم فان كانوا كذلك فقد شرح حالهم بقوله (ستجدون اخرين يريدون ان يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا)

بينت هذه الايات ان لاسبيل للمؤمنين على من اعتزل الفتنة وترك القتال وألقى إليهم السلام

الموضع الخامس - قال فى سورة الانفال (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير) وهذه تؤدي ماأدته آية البقرة

الموضع السادس - قال في السورة السابقة (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم)

بينت هذه الآية أنه مأمور بالجنوح إلى السلم متى جنح أعداؤه لها لان الغرض هو تأمين الدعوة وأن لاتكون فتنة والسلام كفيل بهما ولو كان الجانحون إلى السلم يريدون به الخداع

الموضع السابع - قال في سورة التوبة المدنية (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لاأيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين)

بينت هذه الآية - بيناً لايخرج عما تقدم وهو نكث العهد والعود الى الطعن في الدين بالفتنة وذكرت المخاطبين بأنهم بدأوا بالقتال أول مرة فهم المعتدون أولا والناكثون عهدهم آخراً وأنتم قد أبيح لكم مجازاة من اعتدى عليكم

كان اليهود قد مالئوا قريشاً والمنافقين على المسلمين وأخافوا المسلمين في

غزوة الاحزاب حتى زلزلوا زلزالا شديداً بعد أن كانت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهود مكتوبة فنقضوها وأخلوا بما تقضى به تلك العهود فأمر المسلمين بقتالهم كما جاء فى سورة التوبة (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتي يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون)

كان أمر القتال أولا قاصراً على قريش ومن يمالؤهم من يهود المدينة فلما اتحد معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتاب (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) فالعلة فى هذا الامر بينها الكتاب نصاً وهي اتحادهم على المسلمين ووقوفهم فى سبيل الدعوة

هذا ماورد في الكتاب خاصاً بأمر القتال ، وكله يعلن أن القتال لم يشرع الا دفاعاً عن أنفسهم : وتأميناً للدعوة من أن تقف الفتنة فى طريقها واعلان أنه لم يجيء معتديا بنهيه عن الاعتداء وأنه يجنح الى سلم من سالمه

ومما يؤيد تلك الروح السلمية ويوضحها ماجاء في سورة الممتحنة (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك الظالمون)

العهود والمواثيق

مما اعتنى به الكتاب عناية شديدة أمر العهود والمواثيق وكراهة الاخلال بها ، وقد نص على ذلك نصوصاً مؤكدة فمنها عام ومنها خاص فمن العام : قول

الكتاب في أول سورة المائدة « ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقوله فى سورة الاسراء ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ وقوله فى سورة النحل ﴿ وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون، ولاتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربي من أمة ﴾

وأما الخاصة

فنها قوله تعالى في سورة براءة بعد أن أعلن البراءة من المشركين ﴿ الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين) وقال في السورة نفسها بعد ذلك ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾ وهذا يدل على أن البراءة انما كانت من مشركين أخلوا بعهودهم ، أو ظهرت عليهم دلائل الخيانة لان أول السورة ﴿ براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ ثم استثنى منهم هؤلاء الذين ذكرهم وهذا تنفيذ لما ورد فى سورة الانفال ﴿ واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لايحب الخائنين ﴾ والخوف انما يكون بعد ظهور مايدل عليه من أعمال العدوان لان من لم ينقص من عهده ولم يظاهر عدواً والمستقيم على عهده لاسبيل عليهم بالنص

ومنها أنه لما حضهم في سورة النساء على وجوب ابعاد المنافقين الذين يشتغلون سراً ضدهم قال (الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم

ميثاق) وهـذا نص على وجوب احترام أرض ذوي الميثاق وأنها تحمي الواصل اليها

ومنها أنه جعل فى سورة النساء قتل رجل خطأ من قوم لهم ميثاق موجباً لما يوجبه قتل مسلم خطأ فقال (وان كان ـ المقتول خطأ ـ من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) وهذا بعينه هو الذي أوجبه في قتل مسلم خطأ (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا) وجعل الدية الواجبة فى قتل المؤمن من قوم أعداء أقل من ذلك فقال (فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة)

ومنها أنه قال عن مؤمنين بأرض العدو لم يهاجروا منها (وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) فجعل حق الميثاق فوق كل حق

لم يجعل للسلم أمدا بل ذكره مطلقاً فى قوله « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »

أسرى الحرب

بين الكتاب حكم الاسرى بصراحة بقوله في سورة القتال « حتي اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فامامنا بعد واما فداءاً حتي تضع الحرب أوزارها» فجعل ماخير فيه أولياء الامور المن وهو العفو والارسال من غير شيء والفداء وهو أخذ العوض ولم نر فى الكتاب غيرهما

وأنا ملزم الآن أن أقول كلمة عما جاء فى القرآن فى امر الرقيق

كان الرقيق موجوداً بأيدي العرب حين جاء القرآن فأقرهم على ما كان بايديهم ، فقد قال في سورة المؤمنين المكية « والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم أو ماملكت ايمانهم فانهم غير ملومين » وقال مثل ذلك فى سورة المعارج المكية أيضاً اى قبل أن يحصل من المسلمين أى حرب او قتال وقال في سورة النساء المدنية « فان خفتم ان لاتعدلوا فواحدة اوماملكت ايمانكم » ثم رغبهم ترغيباً شديداً في تحرير الرقاب وازالة الرق عنها بطرق ثلاث .

الاولى ـ انه جعله في سورة البلد المكية من اول الواجبات على الانسان اذا اراد ان يشكر الله على نعمه فقال ممتنا على الانسان « الم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة وما ادراك ما العقبة فك رقبة او اطعام فى يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة او مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة ، اولئك اصحاب الميمنة » فجعل فك الرقبة في مقدمة الخصال التي بها يقوم الانسان بشكر نعم الله المتتالية .

الثانية ـ انه لما بين مصارف الزكاة جعل للرقاب سهما من ثمانية يعني ان الامام الذى يأخذ الزكاة من المسلمين يجعل ثمنها فى فك الرقاب

الثالثة ـ انه جعل تحرير الرقاب في مقدمة كفارات كثيرة عن جرائم تجترم فقال فى كفارة القتل الخطأ « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » وقال في كفارة الظهار « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا » وقال فى كفارة اليمين « فكفارته

اطعام عشرة مساكين من اوسط ماتطعمون اهليكم او كسوتهم « اوتحرير رقبة » ذلك كله فضلا عن الترغيب الكثير من صاحب الشريعة فى تحرير الرقاب والوصايا المتكررة برحمة ما كان فى ايديهم منها

هذا ما أحببنا أن نورده على أسماعكم من المبادىء التى سار عليها الكتاب غير متعرضين للاستنباط الدقيق الذي امتاز به فقهاؤنا رحمهم الله لان لذلك علماء هم أدرى به منا ومركزاً غير مركزنا التاريخى الذى يقضى علينا أن نقف عند حد لا يسمح للمؤرخ بتجاوزه

حياة المدينة

لما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قباء أقام بها أربعة أيام من يوم الاثنين الى يوم الجمعة ١٢ ربيع الاول (٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢) أسس فيها مسجد قباء وفي ذلك اليوم سار الى المدينة يحف به الانصار وصلى الجمعة بمسجد في بطن وادى رانوناء فى منتصف الطريق بين قباء والمدينة ثم سار على راحلته وكلما مر على قبيلة من قبائلهم ناداه رئيسها هلم الينا يارسول الله أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة فكان يقول لهم خلوا سبيلها فانها مأمورة (لناقته) حتى اذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت محل باب مسجده فلم ينزل ثم وثبت وسارت غير بعيد، ثم عادت الى مبركها الاول فبركت فيه ووضعت جرانها فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ههنا المنزل ان شاء الله فاخذ رحله أبو أيوب خالد بن زيد فوضعه في بيته ثم سأل عن المربد الذى بركت الناقة فيه؟ فقال له معاذ بن عفراء هو يارسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو وهما يتيمان لى

وسأرضيهما منه(١) فاتخذه مسجداً فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجداً ونزل على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه ، فانتقل من بيت أبي أيوب اليها

ثم تلاحق المهاجرون فلم يبق بمكة منهم أحد الا مفتون أو محبوس أما المدينة فعم أهلها الاسلام الا قليلا منهم

ومن أول الاعمال التي عملها عليه السلام أنه كتب كتابا بين المهاجرين والانصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط لهم وقد جاء فيه « وان من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » وفيه وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم الا من ظلم فانه لا يوقع الا نفسه واهل بيته : وهكذا قال عن غير يهود بني عوف وفيه وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وان الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره وانه لا تجار قريش

---

(١) روى من طريق آخر أنه قال يا بنى النجار ثامنوني بحائطكم فقالوا لا والله لا نطلب ثمنه الا الى الله . ويروى انه ابى الا بالثمن والذى اخترناه هو رواية ابن اسحاق وهى توافق رواية مسلم و بعض روايات صحيح البخاري

ولا من نصرها وان بينهم النصر على من دهم يثرب وآذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه

ثم آخى بين المهاجرين والانصار فكان يأخذ بيدي المهاجرى والانصارى ويقول تآخوا فى الله أخوين

و بعد ان تم ذلك بدأت الاعمال العظيمة التي كان لها اكبر النتائج ولكيلا يكون هناك تشويش في التاريخ قسمنا أعمال المدينة الى ثلاثة أقسام نذكرها غير مختلطة : الاعمال الحربية — التشريع ـ الاخلاق التي ساس بها أمته



المحاضرة الثانية عشر

ودان ـ بواط ـ العشيرة ـ بدر الكبرى ـ بنى قينقاع

الاعمال الحربية

كانت قريش أمة معادية آذت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم بعد أن فعلت بهم الافاعيل واستولى مشركو مكة على ماتركه المسلمون فيها بعد أن بارحوا أوطانهم مرغمين فكان ذلك داعياً إلى أن يصادر عليه السلام تجارتهم التي يذهبون بها الى الشام والتي يجلبونها منه فبعد أن أقام بالمدينة اثنى عشر شهراً خرج في صفر من السنة الثانية الى ودان (١)

وكان يريد قريشاً وبنى ضمرة من كنانة فوادعته بنو ضمرة، ثم رجع ولم يلق كيداً: أقام بالمدينة بقية صفر وصدراً من ربيع الاول. وفي مقامه هذا بالمدينة بعث عبيدة بن الحارث فى ستين راكباً من المهاجرين حتى وصل ماء بالحجاز بأسفل ثنية (٢) المرة فلقى بها جمعاً من قريش، فلم يكن بين الفريقين قتال: ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية. وبعث في هذه

(١) سمى المؤرخون ماخرج فيه النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة حارب فيها ام لم يحارب وماخرج فيه أحد قادته سرية وودان من ناحية الفرع بينها وبين الابواء ثمانية اميال قريبة من الجحفة التي هي على اربع مراحل من مكة وست من المدينة

(٢) ثنية فى شمال قديد من بادية مكة

المدة حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص (١) في ثلاثين راكبا فلقي أبا جهل بن هشام في ذلك الساحل في ٣٠٠ راكب من أهل مكة فحجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهنى وكان موادعاً للفريقين فانصرف بعض القوم عن بعض

بواط (١)

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الاول يريد قريشاً حتى بلغ بواط من ناحية رضوى ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها إلى جمادى الاولى

العشيرة (٢)

فى جمادى الاولى خرج حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى الاولى وليالى من جمادى الثانية ووادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ثم عاد الى المدينة ولم يلق كيداً : وفى مقامه بالعشيرة بعث سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الخرار (٣) من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيداً

سفوان

أقام عليه السلام بالمدينة قليلا بعد قدومه من العشيرة فعلم أن كرز

(١) مكان على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها الى الشام

(٢) موضع قرب جبل رضوى : و رضوى على مسيرة يوم من ينبع . و من المدينة على سبع مراحل وهناك طريق يختصره العرب الى الشام (٤) واد قريب من ينبع

(٣) واد بالقرب من مكة قريباً من قديد

ابن جابر الفهرى أغار على سرح المدينة فخرج فى طلبه حتى بلغ وادياً يقال له سفوان (١) من ناحية بدر فلم يدركه فعاد إلى المدينة وأقام بها إلى رمضان وفي مقامه هذا أرسل عبد الله بن جحش ـ ومعه ثمانية رهط من المهاجرين ـ بامر غير مفتوح ـ وأمره أن يفتحه بعدأن يسير يومين ولما فتحه وجدفيه (اذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم) فمضى وسلك الحجاز حتى اذا كان بنخلة مرت به عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمى حليف لقريش فأتمر بهاعبدالله هو ومن معه (ولم يكن هذا ما بعثوا له) وصمموا على أخذها وكان ذلك آخر يوم من رجب فلم يحفلوا باليوم الحرا فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر اثنان وهرب رابعهم فأخذوا العيروالاسيرين وقدموا بهما الى المدينة فلما رآهم الرسول وعلم بما فعلوا استاء منهم! وقال ماأمرتكم بقتال فى الاشهر الحرم ووقف العير والاسيرين فقط فى أيدى القوم وعنفهم المسلمون بما صنعوا! وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا الدم الحرام وأخذوا فيه الاموال وأسروا الرجال

ولما كثر الكلام في ذلك جاءه الوحي بقول الله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال !؟ فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عندالله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) يعنى إن كنتم قتلتم في

(١) وادمن ناحيه بدر

الشهر الحرام فقد فعلوا ماهو أشنع . صدوا عن سبيل الله وكفروا به وبالمسجد الحرام وأخرجوكم منه وأنتم أهله وفتنوا الناس في دينهم والفتنة أكبر من القتل ! ثم هم مقيمون على أشد من ذلك وأعظم غير تائبين ولا هائبين . وفي هذا قطع لاعتراضاتهم لان المتلبس بكثير من الشرور ليس له أن يكثر الكلام في زلة قد ارتكب هو أشنع منها . ولما نزل القرآن بهذا الامر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض عليه السلام العير والاسيرين ثم ردهما بعد إلى قريش بعد أن دفعوا فديتهما

بدر الكبرى

خرجت عير من مكة يقدمها أبو سفيان بن حرب ومعه ثلاثون أو أربعون رجلا من قريش فذهبت إلى الشام وباعت وابتاعت وحينما عادت العير علم بها الرسول ، فندب إليها أصحابه، وقال هذه عير قريش فاخرجوا اليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل آخرون لأنهم لم يكونوا يظنون أن الرسول يلقى حرباً وكانت عدة من خرج معه ٣١٤ رجلا ٨٣ من المهاجرين و٦١ من الاوس و ١٧٠ من الخزرج

كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يسير محترساً أمامه العيون فاخبر — وهو يسير — أن محمداً قد استنفر أصحابه للعير فحذر واستأجر رجلا يذهب إلى مكة يستنفر قريشاً الى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض العير في أصحابه فخرج ذلك الرجل حتى أتى مكة وصرخ ببطن الوادي — يامعشر قريش : اللطيمة اللطيمة ، يامعشر قريش أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث — فتجهز الناس

سراعاً وكانوا بين رجلين اماخارج واماباعث مكانه رجلافكانت عدتهم بين التسعمائة والالف ولم يزالوا في سيرهم حتى نزلوا بالعدوة القصوى من وادي بدر .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه خرج من المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من رمضان (أو ٩ منه حسب تقويم محمد مختار باشا المصرى ٥ مارس سنة ٦٢٤) حتى اذا كان قريباً من الصفراء بعث العيون الى بدر لاستطلاع أخبار العير ، حتى اذا قارب بدراً جاءته الاخبار عن قريش بأنهم نفروا لحماية عيرهم فاستشار الناس بعدأن أخبرهم فتكلم أبو بكر وعمر فأحسنا ، وقال له المقداد بن عمرو امض يارسول الله لما أمرك الله فنحن معك ! والله لانقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا اناهاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد (١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له الرسول خيراً ثم قال أشيروا علي أيها الناس وانما كان يريد الانصار، لان العدد فيهم ولم تكن بيعتهم الا على أنهم يمنعونه مادام في ديارهم وكان يتخوف أنهم لايرون نصرته الا على من دهمه فى المدينة من عدوه ، وليس عليهم أن يسير بهم الى عدو خارج ديارهم ، فقال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ، قال أجل فقال له سعد قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ! فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل

(١) موضع أقصى أراضى هجر .

واحد وما نكره ان تلقي بنا العدو غداً انا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك مناماً تقر به عينك فسر بنا على بركة الله فسر عليه السلام بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال سيروا وأبشروا فان الله قد وعدني احدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر الى مصارع القوم ثم ارتحل عليه السلام حتي اذا وصل قريباً من بدر بلغه أن أباسفيان قد نجا بالعير وان قريشاً وراء وادي بدر — وكان ابو سفيان قد ساحل بالعير فنجا ، وارسل الى قريش يخبرهم ويطلب منهم العودة الى مكة لنجاة العير فأبى ذلك ابو جهل وقال والله لانرجع حتى نرد بدراً (وكان بدر موسما من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم فيه ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا وبجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا : ولما رأى الاخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة تشدد ابي جهل من غير داعية اشار على حلفائه من بني زهرة ان يرجعوا ، فتبعوا مشورته وعادوا فلم يشهد بدراً في صفوف المشركين زهري ، وكذلك لم يشهد من بني عدى احد : مضت قريش حتي نزلت بعدوة الوادي الدنيا ، ونزل المسلمون على اول ماء من بدر فجاء الحباب بن المنذر الى رسول الله وقال له يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال بل هو الرأى والحرب والمكيدة ! : قال يارسول الله فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتي تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور

ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال له لقد أشرت بالرأي وفعل كما قال

ثم ان سعداً قال للرسول يارسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ؟ ثم نلقي عدونا فان أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وان كانت الاخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يانبي الله مانحن باشد لك حباً منهم ولو ظنوا أنك تلقي حربا ماتخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك فأثنى عليه الرسول ودعا له بخير وأمر ببناء العريش فبنى له

تراءى الجيشان : فلم يكن بد من الحرب فى صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢ (١٣ مارس سنة ٦٢٤) ابتدأت الحرب بالمبارزة ـ حسب القواعد العربية ـ فخرج من صفوف المشركين ثلاثة : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وابنه الوليد وأخوه شيبة فطلبوا من يخرج اليهم فبرز لهم ثلاثة من الانصار فقال لهم القرشيون لا حاجة لنا بكم نطلب أكفاءنا من بنى عمنا فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعلى بن أبي طالب فكان عبيدة بازاء عتبة وحمزة بازاء شيبة وعلي بازاء الوليد فاما حمزة وعلي فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما — وأما عبيدة وشيبة فاختلفا ضربتين كلاهما أثبت من صاحبه فحمل على وحمزة على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة وهو جريح الى صفوف المسلمين : ثم بدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل الحرب في ذلك النهار ، فان الهزيمة حلت بصفوف قريش ، بعد أن قتل جمع من صناديدهم فيهم أبو جهل بن هشام رأس هذه الفتن كلها وأسر من قريش نحو

السبعين وهرب الباقون : ولما أنهت الموقعة أمر عليه السلام بدفن القتلى من قريش ومن المسلمين ، وكانت هذه عادته فى حروبه . ثم أمر بجمع الغنائم فجمعت ثم أرسل بشيرين الى أهل المدينة يبشرانهم بالفتح أحدهما ـ وهو عبد الله بن رواحة الى أهل العالية والآخر — زيد بن حارثة —الى أهل السافلة

ثم عاد عليه السلام الى المدينة وفى عودته قتل رجلين من الاسرى أحدهما النضر بن الحارث لانه كان غالياً فى عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاهم ويعلم القيان الشعر الذى يهجو به المسلمين ليغنين به ، والثاني عقبة بن أبي معيط وهو مثله فكان لقتلهما سبب خاص ولم يقتل من الاسرى غيرهما .

ولما أقبل بالاسرى فرقهم بين أصحابه ، وقال استوصوا بهم خيراً قال أبو عزيز بن عمير : كنت في رهط من الانصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدم غداءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز الا نفحني بها ؛ قال فأستحي فاردها على أحدهم فيردها على ما يمسها وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر

ثم استقر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ان استشار أصحابه على قبول الفداء من قريش فى الاسرى ، وكان بعض الصحابة ـ ومنهم عمر وسعد بن معاذ ـ يريدون قتلهم ، وكان رأى أبى بكر وأكثر الصحابة لا يريدون ذلك ، ويريدون قبول الفداء (وذلك كله قبل أن تنزل آية القتال) فرضى عليه السلام رأى أبى بكر ، ولما لم يكن ذلك عن أمر من الله خصوصا أنه لم يسبق لنبي أن أكل شيئا من الغنائم ، فان موسى عليه السلام كان يحرقها ولا

يبقى شيئا منها لذلك كان هذا القرار سببا لعتاب الله سبحانه بقوله (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم) وقد كان من رأى سعد حين القتال أن المسلمين لا يأسرون ثم أمره الله أن يتلطف بهؤلاء الاسرى فقال له (يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم من الاسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم)

علمت قريش بما كان فارسلت فى فداء أسراها فمن حضر فداؤه أرسل ومنهم من منّ عليه بغير فداء ومنهم أبو عزة الجمحي الشاعر بعد أن تعهد أن لا يكون ضد المسلمين بشعره وكان فداء بعض الاسرى الذين يكتبون أن يعلم عشرة من صبيان المدينه الكتابة

نزل فى هذه الغزوة من القرآن سورة الانفال بأسرها وهي السورة الثامنة ، وقد بدأت بامر الانفال وانها صارت لله والرسول يقضى فيها الله بما شاء ، ثم قضى فيها بان الخمس لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فالباقي ـ وهو أربعة أخماسها ـ للغانمين : وقد خص عليه السلام سهم ذى القربى ببنى هاشم والمطلب ابنى عبد مناف ولم يعط منه بنى نوفل وعبد شمس ، ثم قص فى السورة خروج المسلمين الى هذه الحرب وانه ثبتهم فيها وأيدهم بالملائكة بشرى لهم ولتطمئن به قلوبهم وأنه أوحى إلى الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا . وتكلم فيها عن قريش وما فعلوه من الاذى والفتنة والصد عن سبيل الله : وتكلم فيها عن السلم والجنوح اليها متى جنح لها أعداء

المسلمين وعن امر الاسرى الى غير ذلك من الاحكام

وأمر هذه الغزوه مما يلفت النظر الى حال المسلمين وما أودع الله فيهم من القوة والطمأنينة فان عددهم كان ٣١٤ رجلا ليس معهم سوى ثلاثة أفراس وسبعين بعيراً يعتقبونها ، وقريش كانت بين التسعمئة والالف وعندهم من العدة ماليس مع المسلمين ، وهؤلاء عرب وأولئك عرب عنصرهم واحد وعند قريش من الغيرة على دينهم والحفيظة على شرفهم ما لايخفى مكانه، ومع كل هذا ظهر من رجحان المسلمين على أعدائهم ما يستغرب فان الحرب لم تستمر اكثر من نصف نهار قتل فيها من قريش نحو السبعين وأسر نحو السبعين ، وانهزمت بقيتهم لاتلوى على شيء فلا بد لذلك من سبب آخر غير امر العدد والعدد ، ذلك ان المسلمين كانوا يحاربون وهم واثقون بالظفر، لما اخبرهم به عليه السلام من ان الله وعده احدى الطائفتين ،وقوله : والله لكأني انظر الى مصارع القوم وزادهم الله تثبيتا حين الموقعة بما ايدهم به من الملائكة تثبت قلوبهم وتفيض عليهم الطمأنينة والثقة ، كانوا يرون انفسهم فى موقف يدافعون فيه عن اعز شيء في الوجود وهو رسول الله الذى بين اظهرهم فلا يهم الواحد منهم ان تحين منيته لانه واثق بما بعدها فهو يعد الشهادة إحدى الحسنيين وكل هذا للمحارب بمثابة امدادات يراها متوالية الورود

وقد قيل فى هذه الغزوة كثير من الشعر قاله شعراء المدينة وشعراء مكة ومن أرق ماقيل منه ماقالته قتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث

يارا كباً إن الاثيل مظنة من صبح خامسة وأنت موفق

أبلغ بها ميتاً بأن تحية ... ماإن تزال بها النجائب تخفق
مني اليك — وعبرة مسفوحة ... جادت بواكفها وأخرى تخفق
هل يسمعني النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق؟
أمحمد ولدتك خير نجيبة ... في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... منَّ الفتى وهو المغيظ المحنق ؟
أو كنت قابل فدية فلينفقن ... بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم — ان كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق
صبراً يقاد إلى المنية متعباً ... رسف المقيد وهو عان موثق

فيقال والله أعلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال — لما بلغه هذا الشعر — لو بلغني هذا قبل قتله مننت عليه

وكان الفراغ من هذه الغزوة في عقب شهر رمضان

الكدر

لم يقم بالمدينة الا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بني سليم فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليال ، ثم رجع الى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها بقية شوال وذا القعدة ، وفي مقامه هذا فدى جل أسارى بدر

السويق

كان أبو سفيان حين رجع فل قريش من بدر نذر ألا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً فخرج في مئتي راكب من قريش ليبر بيمينه حتى —

كان من المدينة ـ على نحو بريد ، ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل فأتى حي بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يقبله فانصرف عنه الى سلام بن مشكم سيد بنى النضار المعاهدين لرسول الله وللمسلمين ففتح له بابه وأكرمه وأعلمه أبو سفيان بخبره ثم خرج فى عقب ليلته ، حتى أتى أصحابه فبعث رجالا منهم فأتوا ناحية يقال لها العريض فحرقوا نخلها ووجدوا رجلين من الانصار فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس فخرج عليه السلام في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعاً وقد فاته ابوسفيان ، وسميت بغزوة السويق لكثرة ماطرح المشركون من أزوادهم التي أكثرها السويق حتى يتخففوا للنجاة وقال ابو سفيان عند منصرفه لما صنع به سلام بن مشكم

وانى تخيرت المدينة واحداً ... لحلف فلم أندم ولم أتلوم
سقانى فروانى كميتاً مدامة ... على عجل منى سلام بن مشكم
ولما تولى الجيش قلت ـ ولم أكن ... لافرحه ـ أبشر بغزو مغنم
تأمر فان القوم سر وانهم ... صريح لؤي لاشماطيط جرهم
وماكان الا بعض ليلة راكب ... أتى ساعياً من غير خلة معدم

ذى أمر

لما رجع عليه السلام من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذى الحجة أو قريباً منها ثم غزا نجداً يريد غطفان فأقام بنجد صفراً كله أو قريباً من

ذلك ولم يلق كيداً ثم رجع الى المدينة فلبث فيها شهر ربيع الاول كله أو الا قليلا منه

الفرع

خرج عليه السلام في أواخر ربيع الأول يريد قريشاً حتى بلغ بحران — وهو معدن بالحجاز من ناحية الفرع فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم رجع ولم يلق كيداً

أمر بنى قينقاع

كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا عهودهم — كما قاله ابن اسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة — وظهر منهم بعد بدر ما كان خافيا من أعدائهم اذ انهم قالوا له يامحمد لايغرنك انك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصة والله لئن حاربناك لتعلمن انا نحن الناس وقد ابتدأ الشر بينهم وبين المسلمين ظاهراً بحادثة وقعت فى سوق بني قينقاع، سببها تعدى رجل من اليهود على امرأة من العرب تعديامعيباً فصاحت مستغيثة فأغاثها رجل من المسلمين فقام الي اليهودى فقتله ،وقامت اليهود على المسلم فقتلوه ، وبذلك وقع الشر واستحكم العداء بين الفريقين فخرج اليهم رسول الله وحاصرهم فى ديارهم خمس عشرة ليلة في آخرها نزلوا على حكمه فأجلاهم عن المدينة فخرجوا منها الى اذرعات بالشام وأقاموا فيها

كان من نتيجة بدر أن قريشا حذرت طريقها المعتاد فسلكوا

طريق العراق فخرج ابو سفيان ومعه تجار واستأجروا رجلا من بكر بن وائل يدلهم على الطريق فعلم بذلك عليه السلام وأرسل اليهم زيد بن حارثة فلقيهم على القردة - ماء من مياه نجد - فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال فقدم بالعير على رسول الله صلى الله عليه وسلم

أمر كعب بن الاشرف

كان كعب بن الاشرف يهودياً من طيء ثم من بني نبهان وأمه من بني النضير ، فلما انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد بن حارثة وعبدالله ابن رواحة يبشران أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش ، قال كعب والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الارض خير من ظهرها ولما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي فأنزلته امرأته وأكرمته وجعل يحرض على رسول الله ويقول الاشعار ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر فقال :

طحنت رحا بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لاتبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من ابيض ماجد ... ذي بهجة تأوي اليه الضيع
طلق اليدين اذا الكواكب أخلفت ... حمال أثقال يسود ويربع
ويقول أقوام أسر بسخطهم ... إن ابن الاشرف ظل كعباً يجزع
صدقوا : فليت الارض ساعة قتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
صار الذى أثر الحديث بطعنة ... أو عاش أعمى مرعشاً لايسمع

نبئت أن بني المغيرة كلهم   خشعوا لقتل أبي الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه   مانال مثل المهلكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم   في الناس يبني الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وانما   يحمي على الحسب الكريم الاروع

ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فارسل له عليه السلام نفراً من الانصار فقتلوه جزاء خيانته العهد



المحاضرة الثالثة عشر

أحد

لما أصيب يوم بدر من قريش من اصيب ورجع فلهم الى مكة ورجع ابو سفيان بعيره مشى عبد الله بن ابي ربيعة وعكرمة بن ابي جهل وصفوان ابن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وابناؤهم واخوتهم يوم بدر فكلموا ابا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا يامعشر قريش ان محمداً قد وتركم وقتل خياركم فاعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن اصاب منا ففعلوا واجتمعت قريش لحرب المسلمين بأحابيشها ومن اطاعها من قبائل كنانة واهل تهامة وكان ابو عزة الجمحى الذى من عليه الرسول ببدر طلب منه صفوان بن امية ان يخرج معهم فقال له ان محمداً قد من علي فلا اريد ان اظاهر عليه قال فأعنا بنفسك فلك الله على ان رجعت ان اغنيك وان اصبت ان اجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما اصابهن من عسر ويسر ، فخرج ابو عزة يسير في تهامة ويدعو كنانة ودعا جبير بن مطعم غلاما له حبشيا يقال له وحشي يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطىء بها فقال له اخرج مع الناس فان قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة فانت عتيق فخرجت قريش بحدها وجدها واحابيشها ومن تبعها من كنانة واهل تهامة وخرجوا معهم بالطعن التماس الحفيظة وان لا يفروا فاقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادى مقابل المدينة

لما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنزولهم استشار أصحابه أنخرج اليهم أم يقيم فى المدينة ؟! فقال له عبد الله بن أبي بن سلول — وكان رأساً فى الانصار الا أنه كان يضمر نفاقاً — نرى أن نقيم بالمدينة وندعهم حيث نزلوا فان أقاموا أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها وكان ذلك رأى رسول الله لكن كان رأى جمهورهم أن يخرج الى العدو فدخل عليه السلام الى بيته فلبس لامته وذلك يوم الجمعة لاربع عشرة خلت من شوال(١) حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك ، فلما خرج عليهم قالوا استكرهناك يارسول الله ولم يكن ذلك لنا فان شئت فاقعد فقال عليه السلام ماينبغي لنبي اذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل فخرج عليه السلام فى ألف من الصحابة حتى اذا كان بالشوط انخذل عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس ، وقال أطاعهم وعصاني ماندرى علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس ! فرجع بمن اتبعه من قومه وهم أهل نفاق وريب ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادى الى جبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال لايقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال . ثم تعبى عليه السلام للقتال وهو فى ٧٠٠ رجل وأمر على الرماة عبد الله بن جبير وقال له انضح الخيل عنا بالنبل ، لايأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لانؤتين من قبلك ، وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير . وتعبت قريش وهم ثلاث آلاف رجل ومعهم مئتا

---

(١) حسب تقويم مختار باشا المصرى كان أول شوال الاحد فالجمعة ١٣ منه (٢٩ مارس سنة ٦٢٥)

فرس قد جنبوها ، وكان على ميمنة خيلهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل ، وقال أبو سفيان لاصحاب اللواء من بني عبد الدار يابني عبد الدار انكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فاصابنا ماقد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، اذا زالت زالوا فاما أن تكفونا لواءنا وإما ان تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه ، فهموا به وتواعدوه ، وقالوا نحن نسلم اليك لواءنا ستعلم غداً اذا التقينا كيف نصنع وذلك ما أراد أبو سفيان

التقى الناس ودارت رحا الحرب واشتهر باعظم عمل فرسان معلومون من المسلمين منهم حمزة بن عبد المطلب وأبو دجانة سماك بن خرشة الساعدي وعلي ابن أبي طالب وغيرهم فأبلى المسلمون بلاء حسناً فأنزل الله عليهم نصره وصدقهم وعده فحسوا عدوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها — الا أن الرماة لما رأوا المشركين انكشفوا ملوا الى العسكر وخلوا ظهور المسلمين للعدو فالتفت خيلة المشركين بقيادة خالد بن الوليد حتى جاءتهم من خلفهم وبعضهم مشتغل بأخذ الغنيمة فاختلت صفوفهم وأخذت لواء المشركين عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا به وتراجعوا لما رأوا الخلل في صفوف المسلمين حتى دهشوا ، ومما زاد في دهشتهم وأضعف عزائمهم أن رجلا قتل مصعب بن عمير وأذاع عند قتله أن محمداً قد قتل فكان هذا الخبر شديداً على أنفس كثير منهم فانكشفوا فاصاب فيهم العدو ، وكان يوم بلاء وتمحيص حتى خلص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى رمي بالحجارة ووقع لشقه فاصيبت رباعيته وشج وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ووقع في حفرة من الحفر التي حفرها

أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فاخذ علي بن أبي طالب بيده ورفعه طالحة بن عبيد الله حتى استوى قائما ولما غشيه القوم قام دونه خمسة نفر من الانصار يردون عنه العدو ، ثم فاءت فئة من المسلمين فاجهضوهم عنه وقاتلت فى ذلك اليوم أم نسيبة بنت كعب وهي ممن بايع بيعة العقبة وكانت في أول النهار تسقي الماء فلما رأت هزيمة المسلمين انحازت إلى رسول الله وباشرت القتال وصارت تذب عنه بالسيف وترمي عن القوس وجرحت فى ذلك اليوم جرحا شديداً ، وقد امتاز جماعة من الانصار والمهاجرين بوقوفهم دون رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبو دجانة وكان النبل يقع فى ظهره وهو منحن على رسول الله حتى كثر فيه النبل ومنهم سعد بن أبي وقاص وكان راميا ومنهم عبد الرحمن بن عوف

كان بعض المسلمين ترك الموقعة لظنه قتل الرسول حتى عرفه كعب ابن مالك أحد الانصار فنادى بأعلى صوته يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله فأشار عليه السلام أن أنصت ولما علم بذلك بعض من انهزم عادوا اليه ونهض معهم نحو الشعب معه كبار أصحابه وذوو الأثر الصالح فى هذه الموقعة فلما أسند ظهره الى الشعب أقبل أبي بن خلف وهو يقول أين محمد لانجوت ان نجا فتناول عليه السلام الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً وخدش فى عنقه فاحتقن الدم وكان ذلك سببا لموته وهو عائد الى مكة وهو الرجل الوحيد الذي قتل بيده عليه السلام

ولما انتهى الى فم الشعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس فجاء به الى الرسول ليشرب منه فوجد له ريحاً فعافه فلم يشرب منه فغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه . وبينا هو بالشعب معه أولئك النفر من أصحابه يمنعونه اذ علت عالية من قريش الجبل فذهب اليهم من المسلمين من أنزلهم عنه

يظهر أن قريشاً رأت بما فعلت أنها قد شفت أنفسها مما تجد من علو بدر فاكتفت به وعولت على الانصراف فصعد أبو سفيان ربوة ونادى باعلى صوته — بحيث يسمعه من فى الشعب — وقال أنعمت فعال : ان الحرب سجال يوم بيوم بدر ، أعل هبل ، فقال عليه السلام قم ياعمر فاجبه فقل الله أعلى وأجل لاسواء : قتلانا فى الجنة وقتلاكم في النار ، فلما سمع أبوسفيان صوت عمر قال له هلم الى ياعمر ، فقال له الرسول ائته فانظر ماشأنه فجاءه فقال له ابو سفيان أنشدك الله ياعمر أقتلنا محمداً ؟ قال عمر اللهم لا وانه ليسمع كلامك الآن ، قال أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر ثم نادى ابو سفيان انه كان في قتلاكم مثل والله مارضيت وما سخطت وما أمرت وما نهيت ، ثم نادى ان موعدكم بدر للعام المقبل فامر عليه السلام من يقول له نعم هو بيننا وبينك موعد

وكان الذى يهم الرسول صلى الله عليه وسلم في موقفه أن يعلم ذات نفس قريش ، أيريدون المدينة أم ينصرفون الى مكة فارسل على بن أبي طالب فقال اخرج فى أثر القوم فانظر ماذ يصنعون ؟ وما يريدون ، فان كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الابل فانهم يريدون مكة وان ركبوا الخيل

وساقوا الابل فانهم يريدون المدينة ، والذى نفسي بيده لئن أرادوها لاسير ن اليهم فيها ثم لاناجزنهم فخرج على في أثرهم فرآهم جنبوا الخيل وامتطوا الابل ووجهوا الى مكة

فرغ المسلمون الى قتلاهم فدفنوها ، وكان منهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشى ومثلت به هند بنت عتبة زوج ابى سفيان

ثم انصرف عليه السلام راجعاً الى المدينة فلقيته في الطريق حمنة بنت جحش فنعى اليها أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت فقال عليه السلام ان زوج المرأة منها لبمكان لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها . ومر بامرأة من بنى دينار من الانصار وقد أصيب زوجها واخوها وابوها فلما نعوا لها قالت فما فعل رسول الله ؟ قالوا خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين قالت اورنيه حتى أنظر اليه ؟ فأشير لها اليه حتى اذا رأته قالت كل مصيبة بعدك جلل — تريد صغيرة

في غد ذاك اليوم وهو يوم الاحد ١٦ شوال او ١٠ منه اذن مؤذن رسول الله بطلب العدو ، واذن مؤذنه ان لا يخرج معنا الا من حضر يومنا بالامس ، وانما فعل ذلك ليرهب قريشا وليبلغهم انه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة وان الذى اصابهم لم يوهنهم عن عدوهم فخرجوا بما هم عليه من التعب والجراح حتى بلغوا حمراء الاسد — وهي من المدينة على ثمانية اميال فأقام بها الاثنين والثلاثاء والاربعاء وقد مر به معبد بن أبي معبد

الخزاعي وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح للمسلمين بتهامة صفقتهم معه لايخفون عنه شيئاً كان بها ومعبد يومئذ مشرك ، فقال يامحمد : والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم ثم تركه بحمراء الاسد وسار حتى لقي أبا سفيان وأصحابه بالروحاء ،وقد جمعوا الرجعة فانهم قال بعضهم لبعض أصبنا أحد أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل ان نستأصلهم لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم فلما رأي أبو سفيان معبداً قال له ماوراءك يامعبد ؟ قال محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ماضيعوا فيهم من الحنق عليكم – شيء لم أر مثله قط قال ويحك ماتقول قال والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه

والذي اعترض به القرشيون على أنفسهم يرد بخاطر كل انسان حينما يمر بتلك الموقعة فقد كان لهم النصر في نهاية اليوم باحد وقتلوا كثيراً من المسلمين ، وانهزم عنهم كثير ثم علموا أن الرسول بالشعب هو وجمع قليل من الحماة يدافعون عنه ومع ذلك لم يخطر ببالهم أن يتمموا هذا الانتصار بالوقوف عليهم ، ثم لما ظهر لهم النصر وانصرفوا عن أحد لم يعرجوا على المدينة ليقال ان النصر قد تم لهم لم يفعلوا هذا ولا ذاك حتى اذا كانوا على نحو يومين من المدينه خطر لهم خاطر الرجوع

والظاهر أن القوم كان عندهم شيء من الحذر لانهم كانوا يعلمون أن كثيراً من الانصار تخلف عنه بالمدينة نخافوا أن يعلم المتخلفون ان إخوانهم

أصيبوا فيسرعوا إلى نجدتهم فيكون ماتكره قريش فاكتفوا بما أصابوا من الدماء التى رأوها سائلة في وادي أحد وكانت القتلى تقرب من قتلام فى يوم بدر فاشتفت أنفسهم ، وهذا كل ما كانوا يريدون ومما يدل على ذلك أن أبا سفيان كان يريد أن يعرج على المدينة عقب انصرافه من أحد فقال له صفوان بن أمية بن خلف لاتفعلوا فان القوم قد حاربوا وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذى كان فارجعوا فرجعوا

وعند انصراف الرسول من حمراء الاسد ظفر بابي عزة الجمحي الذى من عليه بعد بدر ، فقال له أقلنى يامحمد فقال عليه السلام والله لاتمسح عارضيك بمكة بعدها تقول خدعت محمداً مرتين : لايلدغ المؤمن من جحر مرتين ثم أمر بضرب عنقه

والذين استشهدوا باحد من المسلمين ٧٠ رجلا أربعة من المهاجرين وباقيهم من الانصار والذين قتلوا من المشركين ٢٢ رجلا

أنزل الله في هذا اليوم ستين آية من القرآن : في سورة آل عمران وهى السورة الثالثة من أول قوله تعالى « وإذغدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم » الى قوله فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم

وقد جمعت هذه الآيات أموراً (١) أجمل تعزية لهم على ما أصابهم يوم أحد (٢) إن صفة الصبر وعلو النفس لايتبين أثرهما الا عند النكبات (٣) توبيخ لهم بالطف إشارة على ما كان من ضعفهم حينما أشيع أن محمداً قتل (٤) بيان الاسباب الحقيقية لما كان يوم أحد (ولقد صدقكم الله وعده

إذ تحسونهم باذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون) وكل هـذه متى حصل أمر منهـا فى جيش فقـد النظام والروح التى بها يستحق الظفر وهي الفشل والتنازع والعصـيان (٥) ما كان منهم حين الانصراف عن الموقعة وكيف كان يدعوهم إلى الثبات والصـبر (٦) التنديد بجماعة المنـافقين الذين أكثروا من غمز المسـلمين والشماتة بهم (٧) اعلان العفو عن المنهزمين (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم) (٨) الثناء على شهداء الموقعة والاخبار أنهم (أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) وأخيراً أشار إلى ما كان من خروجهم ثاني يوم أحد بعد أن أصابهم القرح ووعد الذين أحسنوا منهم واتقوا أجراً عظيما

وقد قيل في هذه الموقعة كثير من الشعر العربي قالته قريش والمسلمون نقله ابن هشام في سيرته

يوم الرجيع

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعـد أحد رهط من عضـل والقارة وهما بطنان من خزيمة بن مدركة فقالوا يا رسول الله ان فينا إسلاما فلو أرسلت معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في ديننا ويقرءوننا القرآن ويعلموننا الاسلام فبعث معهم ستة من أصحابه أمـيرهم مرثد بن أبي مرثد الغنوى فخرجوا معهم حتى إذا كانوا بالرجيع غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا

فلم يوع القوم في رحالهم الا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوهم فقالت لهم هذيل انا لا نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نغدر بكم فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم فقاتلوا حتى قتلوا وأجاب إلى العهد الثلاثة الآخرون فقتل أحدهم بالطريق والآخران بيعا بمكة فقتلا هناك وقال ابو سفيان لأحدهم وهو زيد بن الدثنة — حين قدم ليضرب عنقه — أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك يضرب عنقه وأنك في أهلك قال والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي فيقول أبو سفيان ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً

حديث بئر معونة

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفر من السنة الرابعة أبو براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الاسنة العامرى فعرض الرسول عليه الاسلام فلم يسلم ولم يبعد ، وقال يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل نجد فدعوهم الى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال عليه السلام إني أخشى عليهم أهل نجد : فقال أبو براء أنا لهم جارفا بعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك فبعث عليه السلام أربعين رجلا عليهم المنذر بن عمرو الساعدى فخرجوا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بنى عامر وحرة بني سليم فلما نزلوها بعثوا أحدهم بكتاب رسول الله الى عامر بن الطفيل فلما جاءه الكتاب لم ينظر فيه حتى عدا على الرجل فقتله ثم استصرخ عليهم بنى عامر

فأبوا أن يخفروا جوار أبي براء فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم : عصية ورعل وذكوان فاجابوه الى ذلك فخرج بهم حتى غشوا القوم فى رحالهم فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ماعدا رجلين : عمرو بن امية الضمرى لانه كان في الرحال وكعب بن زيد فانه ترك بالمعركة جريحاً قد ظن موته فارتث من بين القتلى وقد كان عمرو اسر لما ذهب يتفقد القوم ثم اطلقه عامر بن الطفيل فعاد الي المدينة وبينما هو عائد قابله رجلان من بنى عامر فاغتالهما وكان معهما عقد من رسول الله لم يعلم به عمرو

فلما وصل إلى المدينة واخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بخبر القوم والقتيلين قال هذا عمل ابى براء قد كنت لهذا كارها متخوفا ثم قال لعمرو لقد قتلت قتيلين لأدينهما



المحاضرة الرابعة عشرة

اجلاء بنى النضير — ذات الرقاع — بدر الآخرة — الخندق وقريظة — بنى المصطلق

اجلاء بنى النضير

خرج عليه السلام الى بنى النضير يستعينهم فى أمر ذينك القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية وكان بين بني النضير وبين بنى عامر عقد وحلف فلما جاءهم وطلب منهم المعاونة قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (وكان جالساً الى جنب جدار من بيوتهم) فمن رجل يعلو هـذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه فانتدب لذلك أحدهم فصعد ليلقي الصخرة كما قال ـ ورسول الله فى نفر من اصحابه ـ فجاءه الوحي بما عزم عليه القوم فقام وخرج راجعاً الى المدينة وأخبر أصحابه الخبر بما كانت اليهود ارادت من الغدر به وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير اليهم وكان ذلك في شهر ربيع الاول سنة ٤ فتحصنوا منه فى الحصون فأمر بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه ان يامحمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيب على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها

أرسل جماعة من منافقى اهل المدينة الى بنى النضير ان اثبتوا وتمنعوا

فانا لن نسلمكم ان قوتلتم قاتلنا معكم وان أخرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا واشتد بهم الخوف فطلبوا ان يجلوا ويكف عن دمائهم على أن لهم ماحملت الابل من أموالهم الا الحلقة فرضى الرسول بما طلبوه فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل وخرجوا الى خيبر ومنهم من سار الى الشام

ونزل فى أمر بنى النضير من القرآن سورة الحشر وهي السورة الستون من القرآن قص فيها الحادثة وما كان من المنافقين الذين راسلوا بنى النضير ثم عين حكم الاموال التى تركوها وسماها فيئاً وجعل أمرها لرسول الله يضعها حيث أمره الله (لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم) ثم عذر المسلمين على مافعلوه من قطع بعض نخيلهم بانه لم يكن المقصود منه الفساد ، وانما كان باذن الله ليضعف به أمر العدو ثم أمر المسلمين بالتقوى وان تنظر النفس ماقدمت لغد

ذات الرقاع

خرج عليه السلام من المدينة في جمادى الاولى من سنة ٤ يريد بني محارب وثعلبة من غطفان حتى اذا نزل نخلا لقي بها جمعاً عظيما من غطفان فتقارب الناس ولم يكن حرب وقد خاف بعضهم بعضاً حتى صلى الرسول باصحابه صلاة الخوف ثم انصرف بالناس

بدر الآخرة

جاء شعبان من السنة الرابعة وفيه سوق بدر وهي موعد أبي سفيان فخرج عليه السلام باصحابه حتى نزل بدراً واقام ينتظر ابا سفيان أما هذا

فانه خرج بقريش حتى بلغ مجنـة أو عسفان ثم بداله فقال ايهـا الناس إنه لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وان عامكم هذا عام جدب وانى راجع فارجعوا فرجع الناس ، وكان ذلك مما أخذه الناس على أبي سفيان لعدم وفائه ولكنها الحروب ولقاء الموت تحمل الناس كثيراً على ما يكرهون

الخندق

خرج نفر من اليهود ثم من بني النضير الذين أجلاهم رسول الله الى خيبر ومعهم جماعة من بنى وائل حتى قدموا مكة على قريش فدعوهم الى حرب رسول الله وقالوا انا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش يامعشر يهود انكم أهل الكتاب الاول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فسر ذلك قريشاً ونشطوا لما دعوهم اليـه فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر حتى أتوا غطفان فدعوهم الى مثل مادعوا اليه قريشاً وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وأن قريشاً قدتابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفـان وقائدهم عيينة بن حصن في بنى فزارة والحرث بن عوف فى بنى مرة ومسعر بن رخيلة في بنى أشجع بن أريث

لما سمع رسول الله بما أجتمعت عليه قريش وأحزابها ضرب الخندق على المدينة باشارة سلمان الفارسى وقاسى المسلمون في حفره متاعب شديدة وما زالوا حتى أحكموه

ثم جاءت قريش ومن معها حتى نزلوا بمجمع الاسيال من دومة بين الجرف وزغابة فى عشرة آلاف وجاءت غطفان حى نزلوا بذنب نعمى الى جانب احد وخرج رسول الله والمسلمون حتي جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين وضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين العدو وأمر بالنساء والذراري فجعلوا فى الآطام

خرج حيي بن أخطب النضيرى حتى اتى كعب بن اسد القرظي سيد بنى قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم وكان عاقد رسول الله وعاهده على أن ينصره اذا أصابته حرب كما تقدم فضرب عليه حتى الباب فأغلقه دونه فما زال يكلمه حتى فتح له بابه ثم قال له — انى قد جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتي انزلتهم بذنب نعمي وقد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه فقال له كعب جئتنى والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء ويحك ياحيي فاني لم أر من محمد الاصدقاً ووفاء فلم يزل حيي بكعب يفتلة في الذروة والغارب حتي نقض كعب بن أسد عهده وبرىء مما كان بينه و بين المسلمين فلما انتهى الخبر إلى الرسول والى المسلمين بعث سعد ابن معاذ سيد الاوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ليعلماله خبر بنى قريظة وكان أمرهم يهمها كثر مما يهمه امر قريش وغطفان لان هؤلاء فى بلده والخيانة منهم تؤثر كثيراً في مركز جيشه فلما انتهي السعدان الى بنى قريظة وجدوهم على اخبث ما بلغهم عنهم نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا من رسول الله لا عهد بيننا و بين محمد ؟! فشاتمهم سعد بن معاذ وكان رجلا فيه حدة فقال له سعد

ابن عبادة دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم اربى من المشاتمة ثم جاء السعدان الى رسول الله وأعلموه بما عليه القوم فعظم عند ذلك البلاء عند المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين

أقام المسلمون على ذلك الحال بضعا وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب الا المراماة بالنبل والحصار . ولما اشتد بالناس البلاء رأى عليه السلام أن يفعل أمراً يفرق به كلمة الاحزاب فبعث الى عيينة بن حصن الفزارى والحرث ابن عوف المرى وهما قائدا غطفان فراوضهما ان يعطيهما ثلث ثمار المدينة على ان ينصرفا بجيوش غطفان فقبلا ولكنه قبل ان يبرم الامر أرسل الى السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فيما رأى فقالا يارسول الله أمراً نحبه فنصنعه ام شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ام شيئا تصنعه لنا قال بل شيء أصنعه لكم فقال له سعد بن معاذ يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الاوثان لانعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون ان يأكلوا منها ثمرة الا قري أو بيعاً أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا والله مالنا بهذا من حاجة والله مانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال عليه السلام أنت وذاك فرجع رئيسا غطفان واستمر الامر كما كان وقد استفزت النعرة بعض الشبان من قريش فاقتحموا الخندق بأفراسهم فمنهم من وقع فيه واندق عنقه ومنهم من برز له شجعان من المسلمين فقتلوه ومنهم من فر

جاء ذات يوم نعيم بن مسعود الاشجعي فقال يارسول الله اني أسلمت

ولم يعلم قومي باسلامي فرني بما شئت فقال له عليه السلام انما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت، فان الحرب خدعة فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديما في الجاهلية فقال يا بني قريظة قد علمتم ودي اياكم وخاصة ما بيني وبينكم وان قريشا ليسوا مثلكم البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدروا أن تتحولوا منه الى غيره وان قريشاً وغطفان قد جاؤا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم واهلهم ونساؤهم بغيره فان رأوا نهزة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به ان خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتي تأخذوا رهنا من أشرافهم يكونون بايديكم ! قالوا لقد اشرت بالرأي ثم خرج حتي اتي قريشا فقال لابي سفيان بن حرب – ومن معه من رجال قريش – قد عرفتم ودى لكم وفراق لمحمد وانه قد بلغني أمر قد رأيت على حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم. إن معشر يهود قد ندموا على ماصنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا اليه إنا قد ندمنا على مافعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيهم لك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل اليهم ان نعم فان طلبت منكم يهود أحداً من أشرافكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحداً، ثم جاء غطفان فلعب بعقولهم بمثل ذلك

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة ٥ أرسلت قريش وغطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من القبيلتين فقالوا لهم انا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً فقالوا لهم ان

غداً السبت ، وهو يوم لا نفعل فيه شيئاً ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا فلما رجع عكرمة ومن معه بتلك الرسالة تأكدت قريش وغطفان من خبر نعيم بن مسعود وأرسلوا إلى بني قريظة انا والله لا ندفع اليكم أحداً من رجالنا فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فتأكدت قريظة حينئذ مما قال لهم نعيم وامتنعوا من القتال حتى يأخذوا الرهائن فأبوا عليهم ودب حينئذ الى القلوب الفشل والرعب وهما كافيان لخذلان أعظم جند وصادف أن جاءتهم ريح في ليلة شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم

لما علم عليه السلام بما حصل بين الأحزاب من الخلاف أرسل حذيفة بن اليمان ليعلم له خبر القوم فجاء معسكرهم في ذلك الليل فاذا ابو سفيان يقول لهم لينظر امرؤ من جليسه قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذي كان الى جنبي فقلت له من أنت ؟ قال أنا فلان بن فلان ثم قال ابو سفيان يامعشر قريش إنكم والله ماأصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ماترون ماتطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فاني مرتحل ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث ماأطلق عقاله الا وهو قائم فتبعته قريش وسمعت غطفان بما كان فانشمروا راجعين الى بلادهم

وبذلك أزيحت هذه الغمة الثقيلة التي علمتهم كيف يخندقون على ديارهم اذا جاءهم عدو أكثر منهم عدداً فكأن يوم أحد كان درساً لهم استفادوا منه الأناة في ملاقاة الاعداء واضطروا ـ بحكم ماهم فيه من الشدائد ـ أن

يستعينوا بالخدع التى تفرق بين الاعداء الذين اعتدوا عليهم وعرفوا أن من عاقدوهم من بنى قريظة لاعهد لهم ولا رادع عما استكن فى أنفسهم من العداء الشديد فلم يكن هناك بد من جزائهم جزاء شديدا يناسب ذلك الجرم الفظيع

لذلك أمر عليه السلام ـ بعد انصراف الاحزاب ـ أن يتوجه المسلمون الى بنى قريظة ليعاقبوهم عقوبة الخائن الغادر فذهب المسلمون اليهم وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم فحكم عليهم حكماً يناسب جرمهم وهو قتل مقاتلهم فنفذ الحكم فيهم وكان الاوس يريدون من سعد أن يحكم فيهم بما حكم به عبد الله بن أبى فى مواليه من قينقاع باجلائهم فلم يرض

ومن الغريب أن اخوانهم بالشام فى هذه الآونة كانت تدور عليهم تلك الكأس المرة من يد هرقل بعد غلبته كسرى من جراء مافعلوه بنصارى الشام حينما كان الظفر لفارس فكانوا في الجهتين أعداء للطرفين

ذكر الله قصة الاحزاب في سورة سميت باسمهم وهي السورة الثالثة والثلاثون وأولها قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذا زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) والذين كانوا من فوقهم بنو قريظة والذين كانوا أسفل منهم قريش وغطفان، ثم بين حال المنافقين ومثل ما كانوا عليه من الخوف أحسن تمثيل

ثم بين حال المؤمنين حينما رأوا الاحزاب (ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا إيمانا وتسليما) ثم ذكر أمر بنى قريظة الذين ظاهروا الاحزاب فى عدوانهم والآية تدل على أن القتل لم يعمهم (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا)

واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة نفر من المسلمين منهم سعد بن معاذ أصابه سهم في ذراعه فقطع أكحله وقد مات بعد حكمه على بني قريظة وقتل من المشركين ثلاثة نفر

وبعد الانصراف من الاحزاب انضم الى صفوف المسلمين قائدان عظيمان من قواد قريش وهما عمرو بن العاص السهمي وخالد بن الوليد المخزومي وذلك يدل أن الحرب قد شرعت تضع أوزارها بين الفريقين وقد كان ذلك فانه لم تحصل مواقف مهمة بين الفريقين بعد ذلك

بنى حيان

أقام عليه السلام بالمدينة — بعد الخندق — الى جمادى الاولى سنة ٦ وفيه خرج الى بنى لحيان يطالب باصحاب الرجيع فسار حتى نزل بغران وهو واد بين أمج وعسفان ينزله بنو لحيان فوجدهم حذروا وتفرقوا وتمنعوا في رءوس الجبال فعاد الى المدينة

ذى قرد

لم يقم بالمدينة الا ليالى قلائل حتى اغار عيينة بن حصن — فى خيل من غطفان — على لقاح رسول الله بالغابة وفيها رجل من غفار وامرأته فقتلوه

الرجل واحتملوا المرأة فنذر بهم سلمة بن عمرو بن الاكوع الاسلمي فاشرف في ناحية سلع وصرخ واصباحاه ثم خرج يشتد في أثر القوم وكان رامياً مجيداً فصار يرميهم بالنبل ويقول خذها وأنا ابن الاكوع فاذا انعطفت عليه الخيل انطلق هاربا ثم يعود فيفعل كما كان يفعل وكان قصده أن يؤخرهم ريثما يلحقهم جند المدينة . بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح ابن الاكوع فصرخ بالمدينة الفزع الفزع ! فترامت اليه الخيول فلما اجتمعوا أمر عليهم سعد بن زيد وقال له اخرج في أثر القوم حتى ألحقك فخرجوا يشتدون في أثر القوم حتى أدركوهم فناوشوهم حتى لحقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنقذوا منهم بعض اللقاح وهربت غطفان بالباقي وأقام المسلمون بذى قرد يوما وليلة ثم عادوا قافلين الى المدينة وقتل منهم رجل واحد .

بنو المصطلق

أقام عليه السلام بالمدينة الى شعبان وفيه خرج يريد بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة وكان بلغه انهم يجمعون له ، وقائدهم الحرث بن ضرار فلما سمع عليه السلام بهم خرج اليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال لهم المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فانهزمت خزاعة وحاز المسلمون أموالهم وأبناءهم ونساءهم فقسم السبي فى المسلمين وفيه جويرية بنت الحرث رئيس القوم

ويظهر انه عليه السلام كان يميل الى المن على السبي وإطلاقه فتزوج جويرية بنت الرئيس فخرج الخبر الى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج

جويرية بنت الحرث فقال الناس أصهار رسول الله وأرسلوا ما بأيديهم

قالت عائشة فلقد اعتق بتزوجه إياها مئة أهل بيت من بنى المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها

الحديبية

أقام عليه السلام بالمدينة الى ذى القعدة من سنة ٦ وفيه خرج يريد مكة معتمراً لا يريد حربا وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه انما خرج زائراً لهذا البيت ومعظما له وكان قد أراه الله في منامه أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين : فسار بهم حتى بلغ الحديبية وكانت قريش قد سمعت بمسيره الى مكة فتأهبوا للذود عنها

ولما اطمأن به المقام جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة يسألونه عن سبب مجيئه ؟ فاجابهم انه لم يأت يريد حربا وانما جاء زائراً للبيت معظما له فرجعوا إلى قريش واعلموهم بذلك فاتهمتهم قريش وجبهتهم وقالوا وإن كان جاء لا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تتحدث بذلك عنا العرب !! ثم بعثوا اليه رسولا آخر من بنى عامر فأخبره عليه السلام بمثل ما أخبر به بديلا ثم بعثوا اليه الحليس بن علقمة الكناني سيد الاحابيش فلما رآه عليه السلام قال هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى رجع الى قريش ولم يصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاما لما رأى فقال لهم ذلك فقالوا إجلس فانما انت اعرابى لا علم لك فغضب الحليس عند ذلك وقال يامعشر قريش ما على هذا حالفناكم أيصد عن البيت من جاء معظما له ؟ والذي نفس الحليس

بيده لتخلن بين محمد وبين ماجاءله أو لنفرن بالاحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له مه - كف عنا ياحليس حتى نأخذ لانفسنا مانرضى به . ثم بعثوا له عروة ابن مسعود الثقفي وأمه سبيعة بنت عبد شمس فخرج حتى جاءه، وقال له يامحمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم الى بيضتك لتفضها بهم إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك . ولما كانت هذه الكلمة شديدة لايحتملها المسلمون نال منه أبو بكر ثم كلمه عليه السلام بما كلم به أصحابه واخبره انه لم يأت يريد حربا وقد هال عروة مارآه من شدة احترام المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبتهم له فرجع الى قريش وقال لهم يامعشر قريش قدجئت كسرى في ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله مارأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه. ولقد رأيت قوما لايسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك عمر بن الخطاب ليرسله الى قريش حتي يبلغهم عنه ما جاء من أجله فقال عمر يارسول الله اني أخاف قريشا على نفسي وليس بمكة من بنى عدى أحد يمنعني وقدعرفت قريش عداوتى لها وغلظتي عليها ولكني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان فدعا عليه السلام عثمان فبعثه الى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم انه لم يأت الحرب وانما جاء زائراً لهذا البيت ومعظما له فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص ابن أمية حين دخل مكة فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى يبلغ الرسالة فبلغها ثم قالوا له إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف

رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبست قريش عندها عثمان فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل ، فلما بلغت تلك الاشاعة رسول الله قال لانبرح حتى نناجز القوم ثم دعا أصحابه إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان ـ تحت الشجرة ـ على أن لايفروا ثم تبين بعد ذلك بطلان تلك الاشاعة

بعثت قريش بعد ذلك سهيل بن عمرو العامري وقالوا له إئت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه الا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لاتتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً : فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه عليه السلام قال أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فجاء سهيل وتكلم مع الرسول في أمر الصلح واتفقا على قواعده وهي هذه :

(١) إن الرسول يرجع من عامه فلا يدخل مكة ، واذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً معهم سلاح الراكب السيوف في القرب بعد أن تخرج منها قريش

(٢) وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض

(٣) من أتى محمداً من قريش من غير اذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه

(٤) من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب بذلك فأملى عليه بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل اكتب باسمك اللهم فأمره عليه السلام بذلك ثم أملى هذا ما صالح

عليه محمد رسول الله فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله ماقاتلتك ولكن أكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه السلام أكتب هذاماصالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . ولما كتبت الصحيفة دخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلت بنو بكر فى عهد قريش

وبينما الكتاب يكتب اذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده قد انفلت الى المسلمين فلما رأى سهيل ابنه قام اليه وأخذ بتلابيبه وقال يامحمد قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا قال صدقت وأبو جندل ينادى يامعشر المسلمين أأرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ولم تكن هناك حيلة الا أن يرد أبو جندل - عملا بوثيقة الصلح - عملا بالآية الكريمة (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق)

كانت حال بعض المسلمين عند ما انتهى الصلح شديدة لما رأوه من رجوعهم دون أن يطوفوا بالبيت ، وقد كانوا لايشكون فى ذلك لمكان رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لما رأوه من هذه الشروط التى رضيها عليه السلام وظن بعضهم أنها لاتليق بالمسلمين حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يا رسول الله ألست برسول الله ؟ قال بلى قال أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى قال أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى قال فعلام نعطي الدنية فى ديننا قال أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى

لم يبق بعد ذلك الا أن يتحلل المسلمون من عمرتهم بنحر الهدى وحلق الرءوس أو تقصيرها فنحر عليه السلام وحلق فتواثبوا الى هديهم ينحرون

ثم حلقوا رؤوسهم : أنزل الله فى هذه الحادثة سورة الفتح بأسرها

وقد سميت فى أولها هذه الحادثة فتحاً مبيناً وذلك واضح فان الناس أمن بعضهم بعضاً بسببها وأمن طريق الدعوة التى ما كانت كل هذه الحروب الا لتأمينها فتفرغ عليه السلام لمكاتبة الملوك ورؤساء العشائر يذهب رسله ويؤوبون وهم آمنون من شر قريش ومن شر حلفائهم والذى ضحي في نيل ذلك انما هو شيء قليل جداً ولكن الناس لايصبرون — ثم ذكر فى السورة البيعة فجعل الذين يبايعونه انما يبايعون الله ووعد الموفى وأوعد الناكث ، ثم تكلم عن أمر الاعراب الذين تخلفوا عنه حينما خرج الى الحديبية وأبان ماسيعتذرون به ووبخهم على مافعلوا لانه لم يقبل اعتذارهم ثم أعلن رضاه عن أصحاب بيعة الشجرة ، ثم بين للناس الاسباب التى من أجلها امتنع الرسول عن الحرب — ثم تكلم عن رؤيا رسول الله فقال (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) ثم ختم السورة بوصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمثيلهم أحسن تمثيل

بهذه الهدنة أمن المسلمون شر قريش وصارت لهم الحرية يسيرون حيث شاءوا الا أنهم كان لهم عدو بالقرب منهم يتربص بهم الدوائر وذلك العدو هم أهل خيبر الذين لاينسون ماحل بهم وباخوانهم فصمم عليه السلام على المسير اليهم والاستراحة منهم

فخرج فى محرم السنة السابعة حتى حل بساحتهم ونازل حصونهم وصار

يفتحها منهم حصنا حصنا حتى جاء على آخرها وصالح أهلها على أن يبقوا فيها ويدفعوا نصف مايخرج من ارضهم واذا شاء المسلمون أخرجوهم وبعد أن انتهى من خيبر ذهب إلى وادى القرى فحاصر أهله ليالى ثم عاد الى المدينة بعد أن صالحه أهل فدك على مثل صلح أهل خيبر

وفي يوم فتح خيبر قدم على رسول الله صلي الله عليه وسلم من الحبشة بقية من كان بها من المهاجرين ، وفى مقدمتهم جعفر بن أبي طالب وكان قدومهم على أثر بعث الرسول الى النجاشى عمر بن أمية الضمرى يطاب توجيههم اليه فارسلهم النجاشى على مركبين وكانوا ستة عشر رجلا معهم من بقي من نسائهم وأولادهم وبقيتهم جاءوا الى المدينة قبل ذلك

ولما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام باصحابه الذين صدوا في العام الماضي ليقضوا تلك العمرة التى فاتتهم حسب عهدة الحديبية فوصل اليها في ذي القعدة من السنة السابعة وحينئذ خرج منهـا أهل مكة ودخلها المسلمون ، وكانت قريش تتحدث أن أصحاب محمد في جهـد وشدة ووقفوا إمام دار الندوة مصطفين ينظرون حال المسلمين فلمادخل عليه السلام المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى وقال رحم الله أمرأ أراهم اليوم قوة من نفسه ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى اذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الحجر الاسود ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها .

ثم أقام عليه السلام بمكة ثلاثا ثم انصرف الى المدينة في ذي الحجة

مؤتة

كان من ضمن رسل النبي عليه السلام الحارث بن عمير الازدى ، وكان رسولا الى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني فكان ذلك شديداً على رسول الله فجهز تلك السرية للقصاص ممن قتله وكان عدتها ثلاثة آلاف نفر وكان رئيس السرية زيد بن حارثة ، وقال لهم عليه السلام إن قتل زيد فرئيسكم جعفر بن أبى طالب ، فان أصيب فرئيسكم عبد الله بن رواحة ، فخرجوا فى جمادي الاولى سنة ٨ حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغ الناس أن هرقل (١) قد نزل مآب من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم وانضم اليهم من عرب الشام مثلهم فأقام المسلمون ليلتين فى معان ثم شجعوا أنفسهم على الهجوم على ذلك العدو ، وهم فى العدد القليل ، فساروا حتى اذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف فانحاز المسلمون الى قرية يقال لها مؤتة ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل فاخذ الراية جعفر بن أبى طالب فقاتل حتى قتل فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فما زال يقاتل حتى قتل فاخذ الراية رجل من المسلمين وطلب منهم أن يصطلحوا على أمير لهم فاتفقوا على خالد بن الوليد ، وفى ذلك الوقت أظهر مهارته فى تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه ، وصار يتأخر بهم قليلا قليلا — مع حفظ نظام جيشه ولم يتبعه الروم لانهم ظنوا أنه يخدعهم حتى

---

(١) فى تاريخ هرقل أنه قدم أورشليم ٦٢٩ ميلادية بعد انتصاره على الفرس ليشكر الله على ماقيضه له من النصر ورد الخشبة المقدسة التى كان الفرس قد استلبوها وطرد اليهود من أورشليم ولعله علم حينذاك بورود المسلمين فسار اليهم أو أنفذ لهم بعض قواده ليردوهم

يرمي بهم في الصحراء ثم عاد خالد بذلك الجيش الى المدينة . وعندنا أن تلك الاعداد التي يذكرها المؤرخون لجنود الروم والعرب الذين معهم مبالغ فيها لان غاية ماراه المسلمون أنهم رأوا عدداً كثيراً امامهم ولا يمكن بحال ان يعطوه قدره الحقيقي له وثلاثة آلاف عدد قليل جداً فى جانب مئتى ألف لا تمكنهم المقاومة بحال والمؤرخون اذ عدوا من قتل في هذه الموقعة لا يزيدون عن اثنى عشر رجلا ومن المحال أن يصدم جيش عظيم القدر بجيش نسبته اليه ضئيلة ثم لا يقتل فى الميدان الا اثنا عشر نفراً

فتح مكة

كانت بطون خزاعة قد دخلت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم — كما قدمنا — وبكر دخلت في عهد قريش وكان بين الحيين في الجاهلية دماء ، فلما كانت الهدنة اغتنمتها بنو الديل من بنى بكر وأرادوا ان يصيبوا من خزاعة ثأرهم فخرجوا وقائدهم نوفل بن معاوية الديلى ورفدتهم قريش بالسلاح ، وخرج منهم نفر يساعدون بانفسهم فانضموا الى صفوف بنى بكر وقاتلوا خزاعة حتى تحرموا منهم بالحرم بعد ان اصابوا فيهم فخرج من خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على الرسول بالمدينة فوقف عليه وهو جالس فى المسجد فانشده شعراً يخبره فيه بنقض قريش لعهدهم ومظاهرتهم لبنى بكر على خزاعة ، ويطلب منه النصح وفاء بالعهد ، ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة حتى أتوا رسول الله فاخبروه بما نقضت قريش من العهد ، ثم انصرفوا راجعين الى المدينة . أحست قريش بما فعلت وعلمت أن الخبر لا بد أن يصل الى المسلمين فرأى أبو سفيان

أن يسير الى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة فلم ينجح ، وكان مجيئه ـ على هذه الصورة ـ مما أكد الخبر عند رسول الله والمسلمين فامرهم أن يتجهزوا الي مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ ولم يكن يحب أن تعلم قريش بمسيره فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا الى أهل مكة يخبرهم بمسير المسلمين وأرسله مع امرأة فعلم بذلك عليه السلام فارسل اليها من جاء بالكتاب منها وسأل حاطبا عن سبب كتابة هذا الكتاب فاعتذر وقبل عذره وكانت عدة من خرج فى هذا الجيش عشرة آلاف رجل وكان خروجهم لعشر مضين من شهر رمضان سنة ٨ (أول يناير سنة ٦٣٠) فساروا حتى نزلوا بمر الظهران قريباً من مكة

كانت قريش محسة بأنه لابد من شيء بعد أن فعلت ما فعلت ولكن عميت عليهم الاخبار فلم يعلموا بشيء من مسير المسلمين اليهم. وبينما المسلمون بمر الظهران خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الاخبار فظفرت بهم جنود المسلمين . وكان أول من لقي أبا سفيان العباس ابن عبد المطلب فاردفه على عجز بغلته وسار به سيراً حثيثاً ليستأمن له الرسول وخاف ان يسرع اليه من يبغضه فيهلكه فلما وصل العباس وابو سفيان الى خيمة الرسول وجد عمر قد سبقه وهو يطلب أن يأمر بقتل أبى سفيان فقال العباس يارسول الله قد أمنته فقال للعباس اذهب به إلى رحلك فاذا أصبحت فأتنى به فذهب به حتى اذا كان الصباح غدا به فقال الرسول لابي سفيان ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله الا الله؟ قال بأبي انت وأمى ما أحلمك وأوصلك وأكرمك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره

لقد أغنى عنى شيئاً بعد قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك ان تعلم أني رسول الله ؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه فان في النفس منها حتى الآن شيئا ، وبعد كلام وحوار أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق فقال العباس يارسول الله إن أباسفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فقال عليه السلام من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ثم أطلق فذهب الى مكة مسرعا ونادى باعلى صوته يامعشر قريش محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم وأعلن لهم كلمة الرسول فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد ، ثم سار عليه السلام بجنوده حتى دخل من أعلى مكة ولم يحصل بين المسلمين وقريش الامناوشات لاتستحق الذكر ، فلما نزل مكة واطمأن الناس سار الى البيت فطاف به سبعا على راحلته ثم أخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة اليشبي ثم وقف على باب الكعبة وقال لا إله الا الله وحده لاشريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى به فهو تحت قدمي هاتين الاسدانة البيت وسقاية الحاج ثم قال يامعشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء : الناس من آدم وآدم من تراب . ثم قال يامعشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال

اذهبوا فانتم الطلقاء

ثم رد مفتاح الكعبة الى سادنها فهي في أعقابه الى اليوم . ثم دخل البيت فأزال مابه من الصور والتماثيل المختلفة

وأمر حين — دخوله مكة -- بقتل أفراد ذوي جرائم خاصة بهم فقتل أكثرهم ودخل في الاسلام في هـذا اليوم معظم قريش لم يتخاف منهم الا القليل ثم أسلموا بعد: يعتبر فتح مكة حداً فاصلا بين المدة السابقة عليه وبين مابعده فان قريشاً كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره والعرب في ذلك لهم تبع لخضوع قريش يعتبر القضاء الأخـير على الدين الوثني في جزيرة العرب

أمر حنين

الا أن بطون هوازن رأت من نفسها عزاً وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع فاجتمعت الى مالك بن عوف النضرى ودخل معهما في ذلك بطون ثقيف وكلهم من قيس عيلان وأجمعوا أمرهم على المسير الى حرب المسلمين، فلما سمع بهم رسول الله خرج اليهم ومعه اثنا عشر ألفاً وهو أكثر جنـد خرج به فلما استقبلوا وادي حنين وشرعوا ينحدرون فيه كانت هوازن وثقيف قد كمنوا فى شعابه فشدوا على المسلمين شدة رجـل واحد قبل أن يهيء هؤلاء صفوفهم فانشمر الناس راجعين لايلوى أحد على أحد فانحاز عليه السلام جهة اليمين وهو يقول هلموا الى أيها الناس أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله ولم يبق معه فى موقفه الاعدد قليل ! فقال للعباس عمه وكان جهير الصوت أصرخ يامعشر الانصار يامعشر أصحاب السمرة فأجابوا لبيك لبيك فيذهب الرجل ليثنى بعيره فلايقدر عليه فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخـلى سبيله فيؤم الصوت حتى اذا اجتمع اليه منهم مئة استقبلوا الناس فاقتتلوا ثم تلاحق بهم من كانوا تركوا الموقعة

وكانت حدة العدو قد انكسرت فلم تكن الا ساعات قلائل حتى هزموا عدوهم هزيمة منكرة وقتل من ثقيف - وحدهم - نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن

ولقد أنزل الله فى هذه الموقعة فى سورة التوبة « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين »

وبعد انتهاء حنين سار عليه السلام إلى ثقيف بالطائف فحاصرهم مدة، ثم عاد عنهم بدون أن يفتح الطائف فسار حتى نزل الجعرانة فأتاه هنالك وفد من هوازن مسلمين فقالوا يارسول الله انا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك فمن علينا منّ الله عليك وقال له رجل من هوازن انما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ولو أنا ملحنا للحارث بن أبي شمر الغسانى أو للنعمان بن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذي نزلت رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين فقال لهم عليه السلام أبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم فقالوا أخيرتنا بين أموالنا وأحسابنا بل ترد الينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب الينا فقال لهم أما ما كان لى ولبني عبد المطلب فهو لكم واذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا انا نستشفع برسول الله الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم فلما صلى الظهر قاموا فتكلموا بمثل ماقال لهم فقال لهم

عليه السلام أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم فقال المهاجرون والانصار ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلك رد عليه السلام الى هوازن أبناءهم ونساءهم ثم وفد عليه بعد ذلك مالك بن عوف فرد عليه أهله وماله وأعطاه فوق ذلك مئة من الابل لحسن اسلامه واستعمله عليه السلام بعد ذلك معتمراً من الجعرانة فأدى العمرة وانصرف بعد ذلك راجعاً الى المدينة بعد أن ولى على مكة عتاب بن أسيد وكان رجوعه الى المدينة لست ليال بقيت من ذى القعدة

تبوك

أقام عليه السلام بالمدينة الى رجب من السنة التاسعة وفيه أمرهم أن يتجهزوا لغزو الروم الذين سبقت منهم وقعة زيد بن حارثة ومن أصيب معه فى مؤتة ويسمي هذا الجيش بجيش العسرة لأن التأهب لها كان فى زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاء وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم فيه فتجهز الناس وأنفق الكرام مايتجهز به ضعفاء الحال ولما تجهز الجيش خرج بهم عليه السلام حتى وصل تبوك وهناك جاءه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح الرسول وأعطاه الجزية واتاه اهل جرباء واهل اذرح فأعطوه الجزية فكتب ليحنة (بسم الله الرحمن الرحيم هذه امنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة واهل ايلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من اهل الشام واهل البحر فمن احدث منهم حدثاً فانه لايحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن اخذه من

الناس وانه لايحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر »
ثم بعث وهو بتبوك خالد بن الوليد الى أكيدر دومة فذهب اليه وأسره وجاء
به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحقن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى
سبيله فرجع الى قريته وأقام المسلمون بتبوك بضع عشرة ليلة ثم انصرف قافلا
الى المدينة وحديث هذه الغزوة وما كان فيها قصه الله فى سورة التوبة

وهذه الغزوة آخر مرة خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم محاربا

التشريع فى المدينة

بينا فيما سبق أن الذى نزل بالمدينة من القرآن احدى وعشرون سورة
وهو يبلغ نحو ثلث القران

ويمتاز المدنى من القرآن عن المكي منه بامرين (الاول) مافيه من قصص
الغزوات وأسبابهـا وما كان فيها مما يصح أن يكون درساً نافعا المسلمين
(الثاني) ما تناول من الشرائع الاجتماعية والدينية ونعنى بالدينية ماشرعه
ليكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الشرائع الدينية

(١) الصلاة لم يزد الكتاب فى تفصيلها شيئاً إلا أنه شرع صلاة الجمعة
فى اليوم الذي اختير ليكون خاصاً بالمسلمين وقد ورد ذكر هـذه الصلاة في
سورة سميت بالجمعة وشرع صلاة الخوف في حال تقابل الصفوف وقد بينها
فى سورة النساء: ثم زاد المسلمين حثاً على اقامة الصلاة والمحافظة عليها

(٢) الصيام شرع فى المدينة في السنه الثانية وميز به رمضان لانه الشهر
الذى نزل فيه القرآن لاول مرة وقد بين ذلك فى سورة البقرة

(٣) الحج شرع فى المدينة في السنة السادسة وقد بين الحج فى موضعين من سورة البقرة (الاول) في قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم) (الثانى) فى قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) إلى قوله (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم اليه تحشرون) وذكره في سورة آل عمران من قوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا)

وقد بين في سورة الحج المكية شيء من تاريخ الحج والغاية منه (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام) الآيات

ولم يحج عليه السلام الا فى السنة العاشرة من الهجرة وتسمى حجته بحجة الوداع لانه ودع فيها الناس وقال لهم لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا وأوصاهم فيها بكثير من الوصايا وبين لهم تفاصيل الحج عملا

(٤) الزكاة لم يرد في تفصيلها فى الكتاب شيء جديد وانما بينتها السنة وبين القرآن مصارفها في سورة التوبة

الشرائع الاجتماعية

كنا نحب أن نجعل فى مقدمتها الزكاة والحج ولكن لما كان فقهاؤنا يعدونها من العبادات لم نستجز أن نخالفهم والا فواضح انهما من الشرائع الاجتماعية لان الغرض من الزكاة إعانة الاغنياء للفقراء فهي أمر مالى محض والمقصد من الحج أن يكون موفداً عاماً يشهد فيه المسلمون منافعهم ويذكرون اسم الله

ماورد فى الكتاب من الشرائع الاجتماعية ثلاثة انواع

الاول — مايتعلق بالبيوت وتكوينها ونظامها وهو الذى يسميه الناس الآن أحوالا شخصية وهذا الاسم ترجمة حرفية للفظ الافرنجي ولكنا لانستجيز اطلاق هذا الاسم عليه لأن نظام البيوت ليس بالامر الشخصي الذي ترجع أوامره ونواهيه الى الشخص وحده وانما هو أمور اجتماعية عامة وهي أليق المشروعات باسم الاحوال الاجتماعية العائلية ان رضى لنا أهل اللغة باسم العائلة والا سميناها الاحوال البيتية لأنها ترجع الى تكوين البيت ونظامه

الثاني — مايتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الثالث — مايتعلق بالقصاص والحدود

نظام البيوت

(١) الزواج : شرع القرآن الزواج وسمي عقدته (ميثاقا غليظاً) وامتن على الناس بأن جعل بين الزوجين (مودة ورحمة) وجعل كلا من الزوجين لباساً للآخر (هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ) ومعنى هذا أنكم تسكنون اليهن ويسكن إليكم كما قال جعل لكم الليل لباساً أي تسكنون فيه

(٢) حرم التزوج بنساء بينهن فنهي في البقرة عن تزوج المشركات وتزويج المشركين ونهي في سورة النساء عن تزويج نساء بينهن من أول قوله تعالى ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء الآيات

وأجاز في سورة المائدة تزوج المحصنات من أهل الكتاب

أباح التزوج بأكثر من واحدة الى أربع ولكنه اشترط لذلك أن

لايكون المتزوج خائفاً من عدم العدل فهو اذاً مأمور بالاقتصار على الواحدة والاسلوب الذي جاءت به آية إباحة التعدد مما يلفت نظر الانسان الى التنبه جيداً لا مر العدل والاحتراس من التورط حتى لايقع فيما نهي عنه الشارع فانهم بعد أن أمرهم بالمحافظة على أموال اليتامى كانوا يخافون من أمرهم والوصاية عليهم فقال لهم إن خفتم أن لاتقسطوا فى اليتامى فكذلك خافوا أن لاتعدلوا فى النساء فلا تنكحوا من تخافون معه من عدم العدل وعبر عن ذلك المعنى بقوله (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) يعني إن أمنتم أن تعدلوا فانه قال بعد (فان خفتم أن لاتعدلوا فواحدة) ومما يلفت النظر أنه قال فى السورة نفسها (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة)

(٣) أمر باعطاء النساء مهراً عند التزوج (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) ولكنه لم يجعل هذا المهر حداً معيناً يبتدىء به ولا ينتهي اليه

(٤) العشرة : كثر فى القرآن وصاية الرجل بالمعروف فى معاشرة امرأته (فامساك بمعروف) البقرة ٢٢٩ (فأمسكوهن بمعروف)البقرة ٢٣١ والطلاق ٣ وجعل للرجل الرياسة فى البيت (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) وهذه الرياسة لاتجعل له امتيازاً فى الحقوق فان الكتاب يقول (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) فهذه تسوية واضحة توجب على الرجل أن يؤدى لها من الحقوق مثل الذى يطلب منها من الواجبات وله درجة الرياسة جمع ذلك فى جملة وجيزة هي أساس كبير لكل نظام يكون لحياة الزوجين

اهتم الكتاب كثيراً بأمر عقدة الزواج حتى لاتنحل بسبب مايحصل بين الزوجين من النفور فأول الامر شكك الزوج فى وجدانه اذا أحس من نفسه بكراهة لزوجته فقال مخاطباً الازواج (وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) وأي زوج لايتأثر مما ذكره الله بشكل توقع فانه توقع الخير الكثير ممن يكرهها الرجل ثم أباح للرجل أن يؤدب الزوجة إن بدا منها النشوز وتعدت الحدود المشروعة

ثم خاطب المسلمين أنهم ان خافوا شقاقا بين الرجل وزوجه أن يبعثوا حكما من اهلها وحكما من أهله للسعي في التوفيق حتى لاتنفصم عروة الزوجية وضمن التوفيق بين الزوجين اذا كان الحكمان يريدان اصلاحا فقال (وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما)

واذا لم يقف بعد ذلك الزوجان عند الحدود المشروعة كان الطلاق أمراً لا بد منه لئلا تكون المعيشة تنغيصاً عليهما (وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته) وشرع في الكتاب نظاما للطلاق لو اتبع كما جاء لافاد المسلمين وأزال عنهم وصمات شائنة هي لاصقة بهم ماداموا على حالهم

بين ذلك النظام في سورتين من الكتاب احداهما البقرة وقد جعل فيها الطلاق مرتين يخير الانسان بعدهما بين الامساك بالمعروف والتسريح بالاحسان ثم الثالثة تكون بعدها الفرقة المؤبدة لان ذلك دليل على عدم ائتلاف القلوب وزوال السعادة مع تلك الحياة فتنتظر المرأة زوجاً غيره فربما

رضيته ورضيها فان حصلت فرقة بين الزوجة وزوجها الثاني وظنت هي وزوجها الاول ان في امكانهما أن يقيما حدود الله فلا جناح عليهما إذا تراجعا (فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله)

جعل للطلاق مدة تحصل الفرقة الفعلية بعدها ان لم يبد للزوج أن يعود الى عشرة زوجته باحسان (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك ان أرادوا اصلاحا) وحتم أن هذه المدة تقيمها المرأة في بيتها الذي كانت تعيش فيه مع زوجها لا تخرج ولا تخرج الا أن كانت بذيئة اللسان وذلك هو المراد بالفاحشة المبينة. اقرؤا ان شئتم سورة الطلاق وتأملوا قوله في حكمة بقائها في بيتها (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) ثم قال (فاذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله)

لم يكتف الشارع بذلك بل أمر للمرأة اذا طلقت بمتعة عوضا عما يكون قد نالها من الاذى بسبب هذه الفرقة فقال (ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) وقال (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) وقال « فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا» وقال « وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً واثما مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ؟»

فلا نرى الكتاب اهتم بامر كما اهتم بالمحافظة على العشرة الزوجية بما وضعه من هذا النظام

«٥» فصل الكتاب أمر الميراث وجعل للنساء منه نصيبا مفروضا بعد

ان كانت العرب لاتورث النساء فهدم قاعدتهم بقوله « للرجال نصيب مما ترك الولدان والاقربون وللنساء نصيبا مما ترك الولدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) ثم بين تلك الانصباء بيانا تاما في سورة النساء

(٦) اهتم الكتاب بامر اليتامى فامر بالمحافظة على أموالهم ونهى عن اكلها وجعل الذين يأكلونها إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وبين الوقت الذى يؤتون فيه أموالهم كل ذلك مبين فى أول سورة النساء كما بين أموال السفهاء الذين لا يمكنهم ان يحسنوا التصرف في أموالهم

بذلك وبامثاله وضع لهم اساس نظام عائلى قوي فالذين يقولون ليس فى الاسلام اعتناء بذلك النظام نراهم ابتعدوا جداً عن معرفة ما اشتمل عليه الكتاب



المحاضرة السادسة عشرة

المعاملات ـ الحدود ـ الدعوة ونتائجها

المعاملات

جمع الكتاب أساس المعاملات في مواضع من كتابه

(١) أمر أمراً عاماً بالوفاء بالعقود وهي كلمة تشمل جميع الالتزامات التي يلتزمها الانسان للانسان

(٢) نهي عن أكل أموال الناس بالباطل والادلاء بها إلى الحكام وأباح الربح من التجارة (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم)

(٣) نهى عن أكل الربا أشد نهى ومثل آكليه أشنع تمثيل كما تروونه في سورة البقرة

(٤) بين شكل التعامل في أطول آية من القرآن وهي آية الدين أمر فيها أمراً مؤكداً بكتابة الدين والاستشهاد عليه وقال فيها (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها) ثم جعل الرهن وثيقة بما في الذمة ان لم يجدوا كاتباً ثم وكلهم الى أنفسهم وذممهم إن أمن بعضهم بعضاً وأمر من اؤتمن أن يؤدى أمانته

هذه هي الاصول العامة التى اعتنى الكتاب بوضعها

وقد نبه بعد ذلك على آداب اجتماعية منها:

(١) آداب الاستئذان وقد بينها في سورة النور في موضعين (الاول) (ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ماتبدون وماتكتمون) (الثاني) فى آخر السورة حيث يقول (ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات) الى آخر الآيتين.

(٢) نهي النساء عن أن يبدين زينتهن الا ماظهر منها وهو ما كان على الاعضاء الظاهرة وأمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن وقد أباح ابداء الزينة بحضر أقاربهن سماهم في سورة النور وأمرهن في الاحزاب بأدناء الجلباب ليكون شعاراً للحرائر حتى لايتعرض لهن أحد في طريقهن كما يفعل ذوو الدعارة.

(٣) أمر في التحية أن يحيا الانسان باحسن تحية أو بمثلها الى غير ذلك من الاداب الخلقية التى بها يتم تعاطفهم وإلفهم.

الحدود والقصاص

شرع الكتاب القصاص ، واثبت في سورة الاسراء أن من قتل مظلوما قد جعل الدين لوليه السلطان ونهاه أن يسرف في القتل وكان ولى

الدم عند العرب اقرب عاصب للانسان (ويتولاه الآن ذو الولاية العامة فهو الذى صار له الحق ان يقيم دعوى القصاص وغيرها لان العصبية العربية لم يعد لها أثر) وبين في البقرة أن كتب القصاص فى القتلى وان القصاص لاينبغي أن يتجاوز القاتل فالحر يقتل بالحر ولا يقتل به غيره مهما تكن قيمة القاتل والعبد يقتل بالعبد ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك الى ساداته والانثى بالانثى ولا ينبغى أن يتجاوز ذلك الى رجالها أو عصبتها ولم يمنع العفو ممن ثبت له الحق فى القصاص وهو الولى وذكر الكتاب ان من الشرائع التى كتبها على قوم موسى القصاص فقال «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص»

أما الحدود فقد ذكر منها ثلاثة «الاول» حد الزانى وقد جعله الكتاب مائة جلدة «الثاني» حد القذف وقد جعله الكتاب ثمانين جلدة وهذان الحدان في سورة النور «الثالث» حد السارق وقد جعله الكتاب قطع اليد « الرابع » حد قطاع الطريق وهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فساداً أن يقتلهم الامام أو يصلبهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفيهم من الارض ، وقد ذكر الكتاب تلك العقوبات على شكل التخيير ولكن الفقهاء وزعوها على جرائم مختلفة وعلى كل حال فان الكتاب قال فان تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم وهذان الحدان في المائدة

هذه جملة صغيرة من النظام الذي شرعه الله فى هذا الدين ليكون أساساً

لاعمال المسلمين وقد قصدنا بذلك ان ترجعوا الى هـذا الكتاب لتتوسعوا فيما أشرنا اليه

الدعوة ونتائجها

هاجر عليه السلام من مكة والذين دخلوا في دينه جمع من قريش ومن حلفائهم ومواليهم وقليل غيرهم من سائر العرب ثم جماعة الاوس والخزرج من سكان يثرب وهم الذين سموا بالانصار وكان الاسلام يعمهم لولا توقف عدد قليل منهم تشابهت عليهم الطرق أو خافوا على سيادتهم أن يزيلها الاسلام فوقفوا وتبعهم فريق ممن لهم الرياسة عليه الا انهم كانوا فى الظاهر مشاركين المسلمين في الاسلام وأضمروا خلاف ما أظهروا فسماهم المؤمنون باسم المنافقين ، ويظهر لى أن هذا الاسم من المحدثات الدينيـة فاني لم أر العرب تستعمل النفاق بهذا المعنى قبل الاسلام وكان الرسول يترفق بهؤلاء الناس حتى تخلص قلوبهم حتى انه لما مات عبد الله بن أبى بن سلول رأسهم صلى عليه وكفنـه في قميص له ونزل فى قبره مع أنه كان سببا عظيما فى مصائب كثيرة ولكن الرسول كان يتألف قلوب القوم ويودلو يكون باطنهم كظاهرهم لان فى هذه قوة كبرى

ودخل في الاسلام قليل من يهود المدينة كعبد الله بن سلام ومن سار على رأيه : كان عليه السلام يدعو الناس من سائر العرب يرسل اليهم الرسل ويكتب اليهم الكتب ولكن لم تكن النتيجة كبيرة قبل أن ينتهي الحال مع قريش ، ومما يزيد التردد عندهم أن الحرب كانت بين الفريقين سجالا فان انتصر المسلمون ببدر فقد انتصرت قريش بأحد ولم يظهر المسلمون في

الخندق بمظهر من يقدر على مساواة قريش والوقوف أمامها وجهاً لوجه كل ذلك كان مما يجعل الدعوة في سائر العرب واقفة عند حد لا تتعداه

فلما كان صلح الحديبية أمن المسلمون شر قريش وما كانوا يتظاهرون به من الطعن في الدين الاسلامي فكان ذلك سبباً مهماً من أسباب النجاح لأن القرآن كان يهاجم عقولهم باسلوبه البديع فيؤثر فيها وليس هنالك ما يعارض هذا الأثر . حتى اذا فتحت مكة ودخلت قريش في الاسلام ثبت عند سائر العرب أن المسلمين لهم قوة تؤيدهم فان الظفر ببيت الله الحرام واكتساب السيادة فيه أمر عظيم في نظر العرب لم يكن ينال الا بمعونة من الله القادر الذي يعبده كل منهم فلانت شكيمتهم بعد الاباء وشرعوا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفواجاً قد دانوا بالاسلام ورضوا بما يوجبه عليهم من الفرائض العملية والمالية وتسمي السنة التاسعة سنة الوفود

فمن وفد عليه ثقيف . بعد أن انصرف عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون رأوا أن الاسلام عم من بجانبهم فأرسلوا عنهم وفداً يبايع الرسول على الاسلام وفى مقدمة الوفد عبد ياليل بن عمرو فلما قدموا عليه ضرب لهم قبة فى ناحية مسجده ثم حادثوه فيما يريدون من الاسلام وطلبوا منه أشياء أباها عليهم وأشياء أعطاهم اياها طلبوا اليه أن يعفيهم من الصلاة فقال لا خير في دين لا صلاة فيه وطلبوا منه أن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فأعفاهم من ذلك وبعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم طاغيتهم (اللات) وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص منهم وكان أحدثهم سناً لانه كان أعلمهم وأوصاه قبل رحيله بقوله ياعثمان تجاوز فى الصلاة وأقدر

الناس بأضعفهم فان فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجه وكانت ثقيف من أصدق القبائل إسلاما

وممن وفد عليه بنو تميم وفد عليه أشرافهم منهم عطارد بن حاجب بن زرارة والاقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم وقيس بن عاصم ولما قدم هذا الوفد الى المسجد نادوا من وراء الحجرات أن اخرج الينا يامحمد وفيهم نزل أول سورة الحجرات ولما خرج عليه السلام استأذنوه لخطيبهم أن يتكلم فخطب مفتخراً بقومه وعشيرته فأجابه على خطبته قيس ابن شماس خطيب المسلمين وقد أثنى فى خطبته على المهاجرين والانصار ثناء دينياً . ثم قام شاعرهم فالقى كلمة يفتخر - وأولها

نحن الكرام فلا حى يعادلنا   منا الملوك وفينا تنصب البيع

فقام حسان بن ثابت شاعر المسلمين وأجابهم بقصيدة ربما كانت أحسن ماقال حسان وأولها

إن الذوائب من فهر وإخوتهم   قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته   تقوى الاله وكل الخير يصطنع
قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم   أوحاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة   ان الخلائق فاعلم شرها البدع

ولما فرغ حسان قال الاقرع بن حابس وأبي أن هذا الرجل لمؤتى له لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولاصواتهم أحلى من أصواتنا ولما فرغ القوم اسلموا واجازهم عليه السلام

وممن وفد من قيس : بنو عامر فيهم عامر بن الطفيل واربد بن قيس

وكان بنو عامر قالوا لابن الطفيل ياعامر إن الناس قد أسلموا فأسلم قال والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي أفأنا أتبع هذا الفتى من قريش ؟! ثم سار اليها مضمراً غدراً فلم يفز برغبته ولم يسلم ومات بالطاعون وهو عائد

وقدم عليه وفد بني سعد بن بكر وكان وافدهم ضمام بن ثعلبة وكان رجلا جلداً أشعر ذا غديرتين فلما دخل المسجد والرسول بين أصحابه قال أيكم ابن عبد المطلب فقال عليه السلام أنا ابن عبد المطلب قال أمحمد قال نعم قال يا ابن عبد المطلب انى سائلك ومغلظ عليك في المسئلة فلا تجدن على في نفسك قال لاأجد فى نفسى فسل عما بدالك قال أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك الينا رسولا ؟ قال اللهم نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولانشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الانداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال اللهم نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك ان نصلى هذه الصلوات الخمس؟ قال اللهم نعم ثم جعل يذكر فرائض الاسلام فريضة فريضة : الزكاة والصيام والحج وشرائع الاسلام كلها حتى اذا فرغ قال فانى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدي هذه الفرائض واجتنب مانهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص ، ثم خرج حتى أتى قومه فما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة الا مسلماً بعد ان علمهم الاسلام وشرائعه

وممن وفد عليه من ربيعة بنو عبد القيس رئيسهم الجارود بن بشر بن

المعلي وكان نصرانياً فأسلم هو ومن معه وكان الجارود من أشد الناس تمسكا بالاسلام

وممن وفد عليه من ربيعة بنو حنيفة ، ومنهم مسيلمة بن حنيفة الذى لقب بالكذاب لادعائه النبوة بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم فاسلموا وأجازهم الرسول ولما عادوا إلى بلادهم ارتد مسيلمة وادعى النبوة وصار يسجع لهم أسجاعاً يحاكى بها القرآن

وممن وفد عليه من قحطان زيد الخيل يقدم وفد طيء فأسلموا وحسن إسلامهم وقال عليه السلام فى زيد ماذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى الا رأيته دون ماقيل فيه إلا زيد الخيل فانه لم يبلغ كل ما كان فيه ثم سماه زيد الخير وأقطعه فيداً وأرضين معه ، ثم وفد عليه من طيء عدى بن حاتم الطائي فاسلم وحسن اسلامه والسبب فى وفادته أخته

ثم أقبل عليه وفود من مراد وزبيدة وكندة وقدمت عليه رسل ملوك حمير باسلامهم وهم الحارث بن عبد كلال وأخوه نعيم والنعمان قيل ذى رعين ومعافر وهمدان وبعث اليه زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوي باسلامهم ومفارقتهم الشرك واهله فكتب اليهم الرسول عليه السلام كتابا بين لهم فيه فريضة الزكاة وأرسل مع الكتب رسلا من اصحابه يفقهون الناس فى الدين

وممن كتب اليه باسلامه فروة بن عمرو الجذامي وكان عاملا للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان من ارض الشام فلما بلغ الروم إسلامه اخذوه فحبسوه ثم قتلوه ولما قدموه ليقتل قال

بلغ سراة المسلمين بانني سلم لربي اعظمي ومقامي

ثم قدم عليه وفد بنو الحرث بن كعب مع خالد بن الوليد مسلمين ولما سألهم عليه السلام بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية؟قالوا له كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم ثم قدم عليه رفاعة بن زيد الجذامي وافداً عن قومه وقدم وفد همدان يتقدمهم ذو المشار المكنى بأبى ثور

وهكذا دخل النـاس في الدين أفواجاً حتى كان رسول الله فى حجة الوداع آخر سنة عشر من الهجرة أكثر من مئة الف كلهم دانوا بهذا الدين فى حياته صلى الله عليه وسلم والذين لم يكونوا معه فى هذه الحجة أكثر منهم أضعافاً مضاعفة الا أنه لا يمكننا القول إن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم لانه كان فى وسطهم كثير من الاعراب الجفـاة الذين اسلموا تبعاً لساداتهم ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد ماتأصل فيها من الميل إلي الغارات ولم تكن تعاليم الاسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب وقد وصف القرآن بعضهم بقوله فى سورة التوبة «الاعراب أشد كفراً ونفاقا واجـدر ان لا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم» (ومن الاعراب من يتخذ ماينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم) وقد اثنى على آخرين منهم فقال «ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الاخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول الا انها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته ان الله غفور رحيم»

اما الحاضرون منهم فى المدينة ومكة وثقيف وكثير من اليمن والبحرين فقد كان الاسلام فيهم قويا ومنهم كبار الصحـابة وسادات المسلمين ولما كانت رسالة محمد بن عبـد الله صلى الله عليـه وسلم عامة بنص القرآن لم

يقتصر فى دعوته على الجزيرة العربية بل ارسل كتبه ودعاته الى الملوك ورؤساء الامم الى الدين حتى لايكونوا ممن يصد عن الاسلام أو يقف في سبيل دعوته ومعلوم بالبداهة ان الدعوة فى تلك الازمنة وتلك الحكومات لابد ان تبدأ بالكبراء وذوى الزعامة لانهم لايمكن ان يتركوا لداعية حريته اذا كانوا مخالفين له

اختار من اصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة وارسلهم الى الملوك فاختار دحية بن خليفة الكلبي رسولا الى ملك الروم وكتب له كتابا هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى اما بعد اسلم تسلم واسلم يؤتك الله اجرك مرتين وإن تتول فان إثم الاكارين عليك)

وننقل هنا مارواه ابن عباس عن ابي سفيان بن حرب قال كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى انهكت اموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم نأمن ان لانجد امنا فخرجت فى نفر من قريش تجاراً الى الشام وكان وجه متجرنا منها غزة فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس واخرجهم منها وانتزع له منهم صليبه الاعظم. وكانوا قد استلبوه اياه . فلما بلغ ذلك منهم وبلغه ان صليبه قد استنقذ له وكانت حمص منزله خرج منها يمشى على قدميه متشكراً لله حين رد عليه ماورد ليصلي فى بيت المقدس تبسط له البسط وتلقي عليه الرياحين فلما انتهى الى إيليا وقضى فيها صلاته ومعه بطارقته واشراف الروم اصبح ذات غداة مهموما يقلب طرفه الى السماء فقال له

بطارفته والله لقد اصبحت ايها الملك الغداة مهموماً قال اجل رأيت في هذه الليلة ان ملك الختان ظاهر قالوا له ايها الملك مانعلم امة تختتن الا يهود وهم في سلطانك وتحت يدك فابعث الى كل من لك عليه سلطان فى بلادك فمره فليضرب اعناق كل من تحت يديه من يهود واسترح من هذا الهم فوالله انهم لفى ذلك من رأيهم يدبرونه اذ اتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادى الاخبار بينها فقال ايها الملك ان هذا الرجل من العرب من اهل الشاء والابل يحدث عن امر حدث ببلاده عجب فسله عنه

فلما انتهى به الى هرقل رسول صاحب بصرى قال هرقل لترجمانه سله ما كان هذا الحدث الذى كان ببلاده فسأله فقال خرج بين اظهرنا رجل يزعم انه نبي قد اتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك فلما اخبر الخبر قال جردوه فاذا هو مختون فقال هرقل هذا والله الذى رايت لاماتقولون اعطوه ثوبه ثم قال لصاحب شرطته قلب لى الشام ظهراً وبطنا حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل قال ابو سفيان فوالله انا لبغزة اذ هجم علينا صاحب شرطته فقال انتم من قوم هذا الرجل الذى بالحجاز قلنا نعم قال انطلقوا بنا الى الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا اليه قال انتم من رهط هذا الرجل قلنا نعم قال ايكم امس به رحما قال ابو سفيان انا فقال ادنه ادنه فاقعدني بين يديه واقعد اصحابي خلفي ثم قال إنى سأسأله فان كذب فردوا عليه فوالله لو كذبت ماردوا على ولكنى كنت امرأ سيداً اتكرم عن الكذب

وعرفت أن أيسر ما فى ذلك ان أنا كذبته أن يحفظوا على ذلك ثم يحدثوا به عني فلم أكذبه فقال أخبرني عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعي ما يدعى قال فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره وأقول له أيها الملك مايهمك من أمره ان شأنه دون مايبلغك فجعل لايلتفت الى ذلك ثم قال أنبئنى عما أسألك عنه من شأنه كيف نسبه فيكم قلت محض أوسطنا نسباً قال هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل مايقوله فهو يتشبه به قلت لا قال فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه قلت لاقال فاخبرني عن اتباعه منكم من هم قال قلت الضعفاء والمساكين والاحداث من الغلمان والنساء وأما ذوو الاسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منه أحد قال فاخبرني عمن تبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه قلت ماتبعه رجل ففارقه قال فاخبرني كيف الحرب بينكم وبينه قلت سجال يدال علينا وندال عليه قال هل يغدر فلم أجد شيئا لما سألني عنه أغمزه فيه غيرها قلت لا ونحن منه في هدنة ولا نأمن غدره فوالله ما التفت اليها مني ثم كر على الحديث قال سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً وكذلك يأخذ الله النبي اذا أخذه لايأخذه الا من أوسط قومه نسبا وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول قوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت أن لا وسألتك عن اتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والاحداث والنساء وكذلك اتباع الانبياء في كل زمان وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه وكذلك حلاوة الايمان لاتدخل قلبا فتخرج منه وسألتك هل يغدر فزعمت

أن لا فلأن كنت صدقتني ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين ولوددت أني عنده فاغسل قدميه انطلق لشأنك قال فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدى على الاخرى وأقول اي عباد الله لقد أمر أمر ابن ابي كبشة أصبح ملوك بني الاصفر يهابونه في سلطانهم بالشأم . وقدم عليه اذ ذاك دحية بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ترجمه لقيصر جمع بطارقته وعرض عليهم الكتاب واستشارهم في اتباعه فاظهروا كراهة ذلك ولما رأى نفورهم قال إنما قلت ماقلت لاختبر صلابتكم في دينكم ومن هنا نفهم السبب في احتشاد الروم والعرب لمحاربة المسلمين حينما بلغهم مجيء زيد بن حارثة ومن تبعه وكانت وقعة مؤتة كأنهم أرادوا ان يستأصلوا الامر قبل استفحاله

وبعث عليه السلام شجاع بن وهب من بنى اسد بن خزيمة الى المنذر ابن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق وكتب اليه (سلام على من اتبع الهدى وآمن بي اني ادعوك الى ان تؤمن بالله وحده لاشريك له يبقى لك ملكك) ولما وصله الكتاب قال من ينزع ملكي مني انا سائر اليه ولم يسلم

وبعث عمرو بن امية الضمرى إلى النجاشي بكتاب يدعوه فيه إلى الاسلام ويطلب منه ان يرسل جعفراً ومن معه من مهاجرى الحبشة ففعل النجاشي ماطلب منه فارسل جعفراً واجاب الى الاسلام كما اعلن بكتابه ولما بلغ الرسول وفاته صلى عليه بالمدينة

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ومعه كتاب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع

الهدي وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله الا الله وأنى رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حياً اسلم تسلم فان أبيت فانما عليك اثم المجوس) فمزق كسرى كتابه ولما بلغ ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم قال مزق الله ملكه ثم كتب كسرى الى باذان عامله على اليمن ابعث الى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به فاختار باذان رجلين ممن عنده بكتاب الى رسول الله يأمره أن ينصرف معه الى كسرى فلما قدما المدينة وقابلا النبي صلى الله عليه وسلم قال أحدهما إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب الى الملك باذان يأمره ان يبعث اليك من يأتيه بك وقد بعثني اليك لتنطلق معي وقالا قولا تهديديا . فى ذلك الوقت كان شيرويه بن كسري قد قام على أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه وعلم رسول الله الخبر من الوحى فأخبرهما بذلك فقالا هل تدرى ما تقول إنا قد نقمنا عليك ماهو أيسر من هذا أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك قال نعم أخبراه ذلك عنى وقولا له ان ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي الي منتهى الخف والحافر وقولا له ان اسلمت اعطيتك ماتحت يدك وملكتك على قومك من الابناء فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فاخبراه الخبر وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لابيه وقال له شيرويه فى كتابه انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبى اليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري وكان ذلك سببا في اسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن وهم الابناء

وبعث حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعد وهو الذي بعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية أم ابراهيم فكان بذلك الرحم التى بين العرب واهل مصر

وبعث سليط بن عمرو العامرى الى هوذة بن على الحنفي وبعث العلاء ابن الحضرمي الى المنـذر بن ساوى صاحب البحرين وعمرو بن العاص الى جيفر وأخيه عباد الازديين

بذلك كان عليـه السلام قد بلغ الدعوة الى اكثر ملوك الارض يعلنهم بدعوته ويطلب منهم اتباعه وكان هذا الاعلان سبباً فى اجابة بعض وشاغلا لفكرة الاخرين فلم يلحق بربه الا ومعظم الجزيرة العربية قد اتبعته وانقادت لدينه وفي غيرها عرف اسمه ودينه وعلم به الرؤوس والسادات



المحاضرة السابعة عشرة

صفة الرسول وأخلاقه وبيته — ختام القرآن — الوفاة

صفته وأخلاقه وبيته

ومما كان سبباً كبيراً في نجاح الدعوة الاسلامية على يدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ماامتاز به من جمال خلقه وكمال خلقه وقد كان بعض المدعوين لايحتاج الى دليل على صدقه فوق ماهو معروف عنه من الفضائل فقد قالت له خديجة ـ حينما أخبرها بامره أول مرة ـ ما كان الله ليخزيك أبداً انك تحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق. الاخلاق الفاضلة في الداعي ملاك أمره كله ألا ترى الله سبحانه يقول (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وهذا واضح فانه يستحيل أن ينال بالشدة قلب لهذا رأينا أن نوضح لكم ما كان عليه الرسول من الاخلاق والعادات حسبما اتصل الينا

النظافة الظاهرة — مما يروى عنه عليه السلام بني الدين على النظافة وكان قد خص من النظافة بما لم يكن لغيره وكان يحب الطيب حتى أنه لم يكن يمر في طريق فيتبعه أحد الا عرف أنه سلكه من طيبه وكان يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها

العقل والذكاء ـ لامرية أنه عليه السلام كان أعقل الناس وأذكاهم

ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصة فضلا عما أفاده من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لم يشك في رجحان عقله وثقوب فهمه لاول بديهة ساس تلك الامة الجافية حتى كان أحب الى أفرادها من آبائهم وأبنائهم وفدوه بانفسهم وذلك محتاج — بعد معونة الله وتوفيقه — إلى أكمل عقل وأرجحه

فصاحة اللسان وبلاغة القول — كان عليه السلام من ذلك بالمحل الافضل والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف اوتى جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب يخاطب كل قبيلة بلسانها ويحاورها بلغتها ليس كلامه مع قريش والانصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المشعار الهمداني وطهفة النهدى وغيرهما من قحطان وقد كتب كثير من المؤرخين في المأثور من كلامه الجامع ومنه مالا يوازى فصاحة ولا يبارى بلاغة نحو قوله (لاخير في صحبة من لا يرى لك ماترى له — الناس معادن — ماهلك امرؤ عرف قدره — المستشار مؤتمن وهو بالخيار مالم يتكلم — رحم الله عبداً قال خيراً فغنم اوسكت فسلم ان احبكم إلى واقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم اخلاقا الموطئون اكنافاً الذين يألفون ويؤلفون — ذو الوجهين لايكون وجيها عند الله — اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن — الظلم ظلمات يوم القيامة) وهذا قليل من كثير . قال له اصحابه يوما مارأينا الذى هو افصح منك قال وما يمنعني وانما انزل القرآن بلساني لسان عربي

مبين وقال مرة أخرى أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت فى بني سعد فجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة الفاظ الحاضرة ورونق كلامها إلى التأييد الآلهي الذى مدده الوحي والحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره صفات أدبه الله بها فقال له (خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين) وقد بين له الوحي معناها بقوله أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال له (واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الامور) وقال له (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وقال (ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور) ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله . كل حليم قد عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة وهو لايزيد مع كثرة الاذى الا صبراً وعلى اسراف الجاهل الا حلما قالت عائشة ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرين قط الا اختار أيسرهما مالم يكن إثماً فان كان إثما كان أبعد الناس عنه وما انتقم لنفسه الا أن انتهك حرمة الله فينتقم لله بها ولما حصل له بأحد ماحصل قيل له لو دعوت عليهم فقال انى لم ابعث لعاناً ولكنى داعيا ورحمة اللهم اهد قومي فانهم لايعلمون فلم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم اشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم ولما قال له الرجل اعدل فان هذه قسمة ما أريد بها وجه الله لم يزده في جوابه ان بين له ماجهله ووعظ نفسه وذكرها بما قال له فقال ويحك فمن يعدل ان لم أعدل خبت وخسرت ان لم اعدل ونهي من أراد من أصحابه قتله . لم يؤاخذ عبدالله بن ابى واشباهه من المنافقين بعظيم مانقل عنهم في جهته قولا وفعلا بل قال لمن اشار بقتل بعضهم (لا لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) والحديث

عن حلمه وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن نأتي عليه وحسبك صبره على قسوة قريش وأذي الجاهلية ومصابرته الشدائد الصعبة منهم فلما أظفره الله عليهم وحكمه فيهم مازاد على أن قال اذهبوا فانتم الطلقاء أقول كما قال أخي يوسف لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين وكان عليه السلام أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا

الجود والكرم ـ كان عليه السلام في هذا الخلق لايبارى ، بهذا وصفه كل من عرفه قال جابر ماسئل عليه السلام عن شيء فقال لا وقال ابن عباس كان أجود الناس بالخير وأجود مايكون فى شهر رمضان وكان اذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة. وعن أنس أن رجلا سأله فاعطاه غنما بين جبلين فرجع الي بلده وقال أسلموا فان محمداً يعطي عطاء من لايخشى فاقة وأعطي غير واحد مئة من الابل وهذه كانت حاله قبل النبوة وحمل اليه تسعون الف درهم فوضعت على حصير ثم قال اليها بقسمها فارد سائلا حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ماعندى شيء ولكن ابتع على فاذا جاءنا شيء قضيناه فقال له عمر ما كلفك الله ما لاتقدر عليه فكره النبي ذلك فقال رجل من الانصار يارسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا فتبسم صلى الله عليه وسلم وعرف البشر فى وجهه وقال بهذا أمرت

الشجاعة والنجدة ـ كان عليه السلام منهما بالمكان الذى لايجهل حضر المواقف الصعبة وفر عنه الكماة والابطال غير مرة . وهو ثابت لا يبرح ومقبل لايدبر ولا يتزحزح وما شجاع الا وقد احصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه . وقف يوم حنين على بغلته والناس يفرون عنه وهو يقول أنا النبي لا

كذب . أنا ابن عبد المطلب : فما رؤي أحد يومئذ كان أشد منه وكان اذا غضب لا يغضب الا لله لم يقم لغضبه شيء وقال علي كنا اذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب الى العدو منه . فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعاً وقد سبقهم الى الصوت واستبرأ الخبر على فرس عرى والسيف في عنقه وهو يقول لن تراعوا

الحياء والاغضاء ـ كان عليه السلام أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات اغضاء قال ابو سعيد كان عليه السلام أشد حياء من العذراء في خدرها وكان اذا كره شيئاً عرفناه في وجهه وكان لطيف البشرة رقيق الظاهر لايشافه أحدا بما يكره حياء وكرم نفس وقالت عائشة (كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا بلغه عن أحد مايكرهه لم يقل مابال فلان يقول كذا ولكن مابال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهي عنه ولا يسمى فاعله وروى أنه كان من حيائه لايثبت بصره في وجه أحد وأنه يكني عما اضطره الكلام اليه مما يكره)

حسن العشرة والادب وبسط الخلق مع أصناف الخلق — قال علي في وصفه كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة . وقال قيس بن سعد بن عبادة زارنا رسول الله صلى الله عليه فلما أراد أن ينصرف قرب له سعد حماراً وطأ عليه بقطيفة فركب ثم قال سعد ياقيس إصحب رسول الله قال قيس فقال له عليه السلام اركب فابيت فقال اما ان تركب وأما أن تنصرف فانصرفت وكان يؤلفهم ولاينفرهم ويكرم كريم

كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى أحد منهم بشره ولا خلقه ، يتفقد أصحابه ويعطي كل جاسائه نصيبه لا يحسب جليسه ان أحداً اكرم عليه منه من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده الا بها أو بميسور من القول قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم ابا وصاروا عنده في الحق سواء وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤنس منه وكان يجيب من دعاه ويقبل الهدية ويكافيء عليها وقال أنس خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى اف قط ! ! وما قال لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته وكان يمازح اصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويجيب دعوة الحر والعبد والامة والمسكين ويعود المرضى في اقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ اصحابه بالمصافحة يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التى تحته ويعزم عليه فى الجلوس عليها إن ابى ويكنى اصحابه ويدعوهم باحب اسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على احد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بانتهاء او قيام ويروى انه كان لا يجلس اليه احد وهو يصلى الا خفف صلاته وسأله عن حاجته فاذا فرغ عاد الى صلاته وكان اكثر الناس تبسما واطيبهم نفسا مالم ينزل عليه قرآن او يخطب

الشفقة والرأفة والرحمة ـ وصفه الكتاب بذلك (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) . روي أن اعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال أحسنت اليك يا اعرابى قال

الاعرابي لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا اليه فأشار اليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل الى الاعرابي وزاده شيئاً ثم قال أحسنت اليك قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال له النبي صلى الله عليه وسلم إنك قلت ماقلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء فان أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدى حتى يذهب مافي صدورهم عليك فلما كان العشى جاء فقال عليه السلام ان هذا الاعرابي قال ماقال فزدناه فزعم أنه رضى أ كذلك؟ قال الاعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه السلام مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزدها الا نفوراً فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي فانى ارفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الارض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها واني لو تركتكم حيث قال الرجل ماقال فقتلتموه دخل النار وروى عنه عليه السلام أنه قال لايبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً فاني أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر. كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز فى صلاته

الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم ـ قال عبد الله بن أبي الحمساء بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فاذا هو في مكانه فقال يافتى لقد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك. وقال أنس كان عليه السلام اذا أتى بهدية قال اذهبوا بها الى بيت فلانة انها كانت صديقة لخديجة انها كانت تحب خديجة. دخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها

فلما خرجت قال انها كانت تأتينا أيام خديجة . وكان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم وقال ان آل أبي فلان ليسوا لى باولياء غير أن لهم رحماً ماسة سأبلها ببلالها ولما قدم وفد النجاشى قام عليه السلام بنفسه يخدمهم فقال له أصحابه نحن نكفيك فقال انهم كانوا لاصحابنا مكرمين واني أحب أن أ كافئهم . وكان يبعث الى ثويبة مولاة أبي لهب مرضعته بصلة وكسوة فلما ماتت سأل هل بقي من قرابتها أحد فقيل لاأحد

التواضع — كان عليه السلام أشد الناس تواضعاً وأقلهم كبراً . عن أبى امامة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئاً على عصا فقمنا له فقال لاتقوموا كما تقوم الاعاجم يعظم بعضهم بعضاً وكان يعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين اصحابه مختلطا بهم حيثما انتهى به المجالس جلس.وكان يدعى الى خبزالشعير والاهالةالسنخة فيجيب وحج على رث وعليه قطيفة لاتساوي اربعة دراهم فقال اللهم اجعله حجا لارياء فيه ولا سمعة هذا وقد اهدى فى حجه ذلك مئة بدنة . ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد تمس قادمته تواضعا لله تعالى . ومن تواضعه قوله لاتفضلوني على يونس ابن متى ولا تفضلوا بين الانبياء ولا تخيرونى على موسى . ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له هون عليك فانى لست بملك انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد

العدل والامانة والعفة وصدق اللهجة — كان عليه السلام آمن الناس

واعدلهم واعفهم واصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محاوروه واعداؤه وكان يسمى قبل نبوته الامين وقال الربيع بن خثيم كان يتحاكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية قبل الاسلام وروى عن على ان ابا جهل قال له انا لانكذبك ولكن نكذب بما جئت به وفى ذلك قال الكتاب (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وسأل هرقل ابا سفيان فقال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال قال لا وقال النضر بن الحارث لقريش قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ارضاكم فيكم واصدقكم حديثا واعظمكم امانة حتى اذا رايتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر !! لاوالله ماهو بساحر . وفى حديث على فى وصفه اصدق الناس لهجة وعن الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايأخذ احداً ولا يقرف احد ولا يصدق احداً على احد اى لايسمع وشاية الواشين

وقال خارجة بن يزيد كان النبي صلى الله عليه وسلم أوقر الناس في مجلسه لايكاد يخرج شيئاً من أطرافه وكان كثير السكوت لايتكلم في غير حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل وكان ضحكه تبسما وكلامه فصلا لافضول ولا تقصير وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به ، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة لاترفع فيه الاصوات ولاتؤبن فيه الحرم اذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير

وعلى الجملة فقد كان عليه السلام محلى بصفات الكمال أدبه ربه فأحسن تأديبه وقد أثنى عليه الكتاب فقال مخاطباً له (وإنك لعلى خلق

عظيم) وكانت هذه الخلال مما قرب اليه النفوس وحببه الى القلوب وألان من شكيمة قومه بعد الاباء وجعلهم يدخلون في دين الله أفواجاً مناصرين موازين ولو لم يكن له الا ذلك مما يثبته التاريخ وتؤيده الحوادث لكان أعظم شاهد على صدقه فضلا عما أيده الله به من المعجزات وقد أفاض القول فيها كتاب السير

البيت النبوي

كان البيت النبوى في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه السلام ومن زوجه خديجة بنت خويلد الاسدية من قريش وهي أول من تزوجه من النساء ولم يتزوج غيرها في حياتها . وقد كان له منها أبناء وبنات فأما الابناء فلم يعش منهم أحد فانهم توفوا بمكة وهم القاسم الذي كان يكنى به عليه السلام وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر . وأما البنات فكن أربعا زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة — فاما زينب فقد تزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وهو على دينه واستمرت معه حتى هاجر عليه السلام وبقيت هي بمكة فلما كانت وقعة بدر وأسر ابو العاص أرسلت زينب في فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ومالا فلما رأى الرسول القلادة رق لها رقة شديدة وقال ان رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا فرضي بذلك المسلمون وأخذ عليه السلام عهداً على أبي العاص أن يترك زينب تهاجر فلما عاد أبو العاص الى مكة سرح زينب حتى اذا كان قبل الفتح خرج ابو العاص تاجراً الى الشام وكان رجلا ماموناً بمال له وأموال لرجال من قريش

أبضعوها معه فلما فرغ من تجارته عاد الى مكة بعد خطب طويل ورد للمال الى أهله ثم عاد الى المدينة مسلما فرد النبي صلى الله عليه وسلم اليه زوجه زينب ويقول المؤرخون إنه لم يحدث زواجاً جديداً وانما ذلك بالعقد الاول. وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان الواحدة بعد الاخرى وأما فاطمة فقد تزوجها على بن أبي طالب ومنها كان الحسن والحسين وزينب. وبعد موت خديجة تزوج عليه السلام بعدة زوجات كان يتألف منهن بيته بالمدينة .

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ممتازاً عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات لاغراض كثيرة سنبينها بعد أن نذكرهن

كان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة منهن تسع مات عنهن واثنتان توفيتا فى حياته احداهما خديجة واثنتان لم يدخل بهما وها هي أسماؤهن

(١) سودة بنت زمعة بن الاسود من بنى عامر بن لؤى من قريش وكانت قبله عند ابن عمها السكران بن عمرو

(٢) عائشة بنت أبي بكر الصديق وكانت بكراً ويقال انهما كانت وقت العقد عليها بنت ست سنين وبنى عليها بعد الهجرة وهي بنت ثمان أو تسع وفى النفس شيء من تقدير هذا السن

(٣) حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي

(٤) أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة من بني مخزوم وكانت قبله عند عبد الله بن جحش

وهؤلاء الخمس كلهن من قريش يضاف اليهن خديجة فتكون القرشيات ستاً من هـذه البطون — عبد مناف — أسد بن عبد العزي — مخزوم بن يقظة — تيم بن مرة — عدي بن كعب — عامر بن لؤي،

(٦) زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمة ومن حلفاء بني أمية وهي بنت عمته وكانت قبله تحت يد زيد بن حارثة الذى كان معتبراً ابنا للنبي صلى الله عليه وسلم وقد ارادت الشريعة هدم قاعدة التبني فامر الرسول ان يتزوج زينب زوج زيد ليعلم الناس انه لم يعد للتبني حرمة وكان عليه السلام يخشى اعتراض اعدائه عليه لان عمله هذا يخالف ما اطبقت عليه عامة العرب فاخفى في نفسه ما امر به من هذا الزواج ولذلك كان هناك في الخطاب نوع شدة (وإذ تقول للذى انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان امر الله مفعولا) فبينت الآية انه كان يقول لزيد امسك عليك زوجك واتق الله وكان النزاع اشتد بينهما فاحب ان يفارقها — وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وهو الامر بتزوجها بعد ان يطلقها زيد وهذا هو الذى ابدته الآية — وتخشى الناس والله احق ان تخشاه — تخشى الناس ان يعيروك فيقولون تزوج زوج ابنه — ثم ابدى ما امر به وهو قوله فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها وبين العلة في ذلك بما ذكر بعد. ولقد

هدم قاعدة التبنى قولا كما هدمها فعلا فقال ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله وقال ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين

(٧) جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة وهي التى عتق بسبب زواجها هذا من كان أسراً و سبي من قومها وأسلم أبوها

(٨) ميمونة بنت الحارث من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزى من بنى عامر بن لؤي

(٩) صفية بنت حيي بن أخطب من بنى اسرائيل ، وكانت قبله عند كنانة بن أبى الحقيق وهؤلاء التسع هن اللاتى توفى عنهن

(١٠) زينب بنت خزيمة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف وهذه توفيت فى حياته

هؤلاء احدى عشر سيدة تزوج بهن الرسول ، بنى بهن منهن ست من قريش وخمس من سائر العرب

وهناك اثنتان لم يبن بهن. وتسرى بمارية القبطية التي أهداها له المقوقس فأولدها ابنه ابراهيم الذي توفى صغيراً بالمدينة في حياة أبيه وكان يقال لزوجاته أمهات المؤمنين سماهن بذلك الكتاب فقال (وأزواجه أمهاتهم)

يظهر لنا انه كان للنبي صلى الله عليه وسلم رأى في ان يجمع في نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهن فان الصهر كان عند العرب باباً من ابواب التقرب بين البطون المختلفة وقد كان زواجه بخديجة وهو بمكة اكبر مساعد له ومبعداً له اذى كثيراً من اعدائه فلما كان بالمدينة

صاهر اكبر القبائل من قريش واقوى البطون من سائر العرب وبني اسرائيل وقد كانت هناك ظروف خصوصية لبعض من تزوجهن كما في جويرية وزينب وصفية

وكان لامهات المؤمنين فضل كبير في نقل أحواله المنزلية للناس خصوصا من طالت حياته منهن كعائشة فانها روت عنه كثيراً من أفعاله وأقواله ويجدون في سورة الاحزاب كثيراً من أحوال بيته وفيها يقول الكتاب (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)

ختام القرآن

اعلن القرآن ان نزوله قد انتهى فى يوم الحج الاكبر من السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهر حيث انزل عليه (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً) وكانت آياته قد رتبت وسوره قد تمت وكان هناك من اصحابه من يحفظه كله ومنهم من يحفظ بعضه وكانت آياته وسوره مكتوبة الا انها لم تجمع فى مصحف واحد فى حياته وقد تم ذلك فى خلافة ابي بكر (راجع خطابنا الذى القيناه بنادى العلوم في سنة ١٩١٠ ونشر بصحيفة النادى فى تلك السنة)

الوفاة

فى أواخر صفر من السنة الحادية عشر ابتدأ عليه السلام بشكواه وكان مرضه الحمى فاستأذن نساءه أن يتمرض في بيت عائشة فاذن له ولما رأى شدة المرض خرج الى اصحابه فصعد المنبر وقال (يامعشر المهاجرين استوصوا

بالانصار خيراً فان الناس يزيدون وان الانصار على هيئتها لا تزيد وانهم كانوا عيبتي التي اويت اليها فأحسنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم) وامر ابا بكر ان يصلي بالناس فصلى بهم مدة مرضه

ولما كان يوم الاثنين ١٣ ربيع الاول سنة ١١ (٨ يونيه سنة ٦٣٢) لحق عليه السلام بالرفيق الاعلى وقد اعلن الصحابة بوفاته ابو بكر حيث قال لهم وهم مجتمعون ايها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن يعبد الله فان الله حي لا يموت ، ثم تلا هذه الآية (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين)

وحينذاك خرج اصحابه الى سقيفة بني ساعدة يأتمرون فيمن يخلفه حتى بويع ابو بكر فأقبلوا على جهازه عليه السلام يوم الثلاثاء فغسل في قميصه وكفن في ثلاثة اثواب ووضع على سريره ثم دخل الناس يصلون عليه افراداً دخل الرجال اولا ثم النساء ثم الصبيان وقد انتهوا من صلاتهم وسط ليلة الاربعاء وكان قد صنع له لحد في الموضع الذى مات فيه وهو صفة حجرة عائشة التي كانت في الجهة الشرقية الشمالية من مسجده ودفن بها

وكانت سنه عليه السلام ثلاثا وستين سنة قمرية



المحاضرة الثامنة عشرة

— الخلافة —

الخلافة

قد كان للرسول صلى الله عليه وسلم وظيفتان يؤديهما لامته (الاولى) التبليغ عن الله بحكم الرسالة التى اختير ليقوم باداًها فهو بذلك مشرع عن الله (الثانية) كونه إماماً للمسلمين تجتمع اليه كلمتهم يوجههم الى الخير ويبعدهم عن الشر واليه القضاء في مشكلاتهم بحسب ما يوحي اليه من الشريعة ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الاحكام

والوظيفة الاولى انتهت بموته عليه السلام بعد تشريع ما اراد الله تشريعه فلم يكن بعد ذلك لاحد الا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها وهذه الخلافة التشريعية ان ساغ لنا ان نسميها كذلك موعدنا بها الوقت المناسب لها

والوظيفة الثانية هي التى اختصصنا بها محاضرتنا هذه

لم ير المسلمون بداً من إقامة من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافة المسلمين . ولم يوجد بين هذه الامة شيء تشعبت فيه الآراء واختلفت الكلمة بمقدار ما كان منها في الخلافة ومدار البحث كان في أمرين (الاول) البيت الذي يكون منه الخليفة (الثانى) الشكل الذي به ينتخب الخليفة

بيت الخلافة

من المحقق أن الكتاب لم يشر أي اشارة الى تعيين بيت أو بطن أو شعب يكون منه خليفة المسلمين وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فروى عنه (الأئمة من قريش) كما أثر عنه اسمعوا وأطيعوا وان تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة

لم يدفن النبي صلى الله عليه وسلم حتى كانت هناك فكرتان (الاولى) عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت (الثانية) تخصيصها . وهذه الفكرة ذات شعبتين (الاولى) تخصيصها بالبيت القرشي على اختلاف بطونه (الثانية) تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أقرب الناس اليه وقت موته من أعمامه العباس بن عبد المطلب ومن بني عمه علي وعقيل إبنا أبي طالب ويمتاز علي من بينهم بسبقه الى الاسلام وشهوده مشاهد رسول الله وتزوجه بأبنته فاطمه ويمتاز العباس بأنه العاصب الوحيد له ان كان هناك ارث

رأى عدم التخصيص كان للانصار فانهم كانوا يريدون أن يكون الخليفة منهم لما كان لهم من فضيلة النصر والايواء والمساعدات العظيمة التي قاموا بها وان لم يتيسر ذلك كان منهم أمير ومن المهاجرين أمير وأخذ بهذا الرأى من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء في أزمنة مختلفة ومنهم من كان يتسمى بامير المؤمنين كقطرى بن الفجاءة وليس من قريش وانما هو رجل من تميم وهؤلاء كانوا يرون أن القصد من امامة المسلمين انما هو توجيههم الى الصلاح وابعادهم عن الشر والسير فيهم بأوامر دينهم غير ناظرين فى ذلك الى بيت أو قبيلة بل الى ما فى الشخص من

المقدرة والكفاءة ويستندون فى رأيهم الى قاعدة وضعها القرآن وهي (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

ورأى التخصيص بقريش كان في ذلك الوقت رأيا للجمهور لما رواه لهم أبو بكر من ذلك الحديث المتقدم ذكره وقد بين أبو بكر طرفاً من علة هذا التخصيص بقوله إن هذا الأمر ان تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس ولا تدين العرب الا لهذا الحي من قريش . ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون استنتاجه أن السر فى تخصيص قريش بالخلافة انما هو ما كان لهم من العصبية والتقدم على سائر بطون العرب بهذا يعترف لهم الناس ولا ينكره عليهم أحد فاذا كان الخليفة منهم لاينتظر أن يعارضه أحد من القبائل الاخرى مهما يكن قدره عظيماً وبنى على ذلك انه لما كانت العلة هي العصبية التي بها يكون اجتماع الكلمة وكانت عصبية قريش جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها حتى لم تعد قادرة على حماية البيضة والدفاع عنها وكانت الشريعة مبنية على العلل والحكم فى كل زمان بحسبه كان من الممكن أن تكون الخلافة فى غير قريش ممن فيهم تلك القوة والعصبية المجتمعة

ورأى التخصص بالقرابة القريبة كان لعلى بن ابى طالب ومن شايعه وكان يرى نفسه احق بالخلافة من سواه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح بذلك فى حديث مع ابى بكر ولما لم يكن له مساعد يساعده على نيل ذلك الحق الذى رآه لنفسه اذعن لرأى الجمهور

مكث الرأى الأوسط سائداً والاخير خامداً لايجد له محركاً حتى كان

آخر عهدعثمان فقام بالحواضر الاسلامية دعاة له ينبهون الناس اليه ويقبحون من خالفه اذ كيف يحرم خلافة الرسول قرابته وهذا موضع من الامةشديد الاحساس فسرعان ماتنبه وقد كان تنبهه سبباً لخطوب طويلة ومصائب عظيمة ذهب فى سبيلها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ومع هذا فلم يصف الامر للخليفة الرابع على بن أبى طالب لانه قام في وجهه نصف الامة قادما اليه من الشمال غير متأثر من تلك الدعوة التى قصد منها اقرار الامر فى نصابه من بيت النبوة وكان هناك تصادم بين الرأيين وقد غلبت القوة واحسان السياسة رأى عدم التخصيص بالقرابة حيث انتهى الحال بظفر معاوية بن أبي سفيان بالخلافة وهو من بنى أمية وليس من بنى هاشم

عادت فكرة الشيعة الى الخمود ولكن السيوف وان تكن تغلبت فى الظاهر عليها فقد استكنت فى النفوس تهيج وقتاً اذا لاح لها بارق الامل وتكمن حيناً انتظاراً للمستقبل

مازال أبناء على يرون هذا الحق لهم ارثا لاينازعهم فيه الا ظالم وتتمنى قلوب شيعتهم أن ينالوا هذا الحق فيحملون الواحد منهم بعدالواحد على الخروج فيخرجون ثم تكون العاقبة قتلاوتمثيلا الا ان هذا الظفر كان مما يزيد النار تأججاً والقلوب تأثراً لانه كان يعطي الشيعة قوة يحركون بها القلوب ويبكون منها العيون فما كان ا كثرمايقولونه من الشعرالمأثور فى تمثيل الحسين معفراً بدمائه بكربلاء بعد ان اذيق من العطش الكروب واهل بيته يساقون سبايا الى قاعدة ملك الظالمين ثم تمثيل من بعده ممن خرجوا على بنى امية حتى ينقاد الناس الى من يدعوهم للقيام الى رد الحق لاهله

لم يكن أحد من الناس يفاضل بين بنى على وبنى العباس في استحقاق الخلافة بل كان بنو على يرون الحق لهم خالصاً لما لأبيهم من الامتيازات الكثيرة ولكن بنى العباس جدت عندهم فكرة الدعوة إلى أنفسهم بعد وفاة أبى هاشم بن محمد بن على عن غير عقب فزعموا أنه أدلى بالامر إلى محمد بن على ابن عبد الله بن عباس مع اضافتهم إلى ذلك أن العباس أولى بميراث رسول الله من على لأن الاول عم والثاني ابن عم فاشتغلوا في الامر بمهارة حيث كان لهم دعاة يدعون الناس اليهم سراً فى دولة بنى أمية واتصل بهم ذلك الزعيم المقدام أبو مسلم الخراساني فتمم لهم الامر ورد اليهم الخلافة بعد أن أسقط بنى أمية من تلك العروش السامية ومن المؤكد أنه كان يدعو الناس الى الرضا من أهل البيت ولا يصرح باسمه ولا بنسبه مما يدل على أن الامة كان توجهها الى على وأهل بيته أكثر من توجهها الي بنى العباس فلما تم له الامر أعلن اسم عبد الله السفاح بن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس

عاد الاصطدام حينئذ بين البيتين العلوى والعباسي ، فكان نصيب آل على في خلافة بنى هاشم أشد وأقسى مما لاقوه فى عهد خصومهم من بنى أمية فقتلوا وشردوا كل مشرد ، وخصوصاً فى زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بنى العباس وكان اتهام شخص فى هذه الدولة بالميل الى واحد من بنى على كافيا لاتلاف نفسه ومصادرة ماله وقد حصل ذلك فعلا لبعض الوزراء وغيرهم

الا أن ذلك كله لم يذهب بفكرة استحقاق على وأهل بيته للخلافة وأنهم قد ظلموا وسلب حقهم فصاروا يخرجون على بنى العباس كما كانوا

يخرجون على بنى أمية والعاقبة القتل والتشريد : وحينئذ بدت لبعضهم فكرة الخروج إلى أرض لاتنالها قوة العباسيين ومن بقى منهم بالشرق سكت على مافى نفسه

ذهب الفارون الى أفريقية بعد أن سبقهم دعاتهم فأسسوا بها دولا علوية لها كبير ذكر فى التاريخ كالدولة الفاطمية ودولة الادارسة وغيرهما ممن سيأتى ذكرهم بعد والباقون بالمشرق كانت لهم شيعة تكرمهم وتميل اليهم فى السر حتى كان شيء من ذلك فيما يقال سبباً من أسباب سقوط الدولة العباسية فان ابن العلقمى وزير المستعصم كان من غلاة الشيعة فساعد على مجيء التتر الى بغداد وهم الذين أزالوا الخلافة العباسية من بغداد وكان أعظم سلطان — اذذاك فى الممالك الاسلامية — لمصر وملوكها فساعدوا على اعادة الخلافة العباسية ليستمدوا منها العهد اليهم حتى يكون سلطانهم مقبولا لا يتكلم الناس فيه وجاءت على أثرهم الدولة العثمانية فاستمدت من آخر خلفائهم بمصر عهد الخلافة

هذا كان شأن الاختلاف فى البيت الذى يكون منه خليفة المسلمين

شكل الانتخاب

لم يرد فى الكتاب أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم الا تلك الاوامر العامة التى تتناول الخلافة وغيرها مثل وصف المسلمين بقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) وكذلك لم يرد فى السنة بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة الا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق كأن الشريعة أرادت أن تكل هذا الامر للمسلمين حتى يحلوه

بأنفسهم ولو لم يكن الامر كذلك لمهدت قواعده وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرهما . ولننظر ماسار عليه المسلمون فى ذلك وهاهي طرائقهم

(١) الطريقة الاولى : طريقة الانتخاب الاستشارية وقد حصلت فى انتخاب أبي بكر حيث اجتمع المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة بالمدينة وتشاوروا فى الامر ثم انتخبوا أبا بكر — بعد حوار وجدال — ولكن انتخاب أبي بكر كان امراً يحتاج الى السرعة فى البت حذر الاختلاف والفشل ويظهر أن المجتمعين فى السقيفة لم يكن فيهم احـــد من قريش يتطلع للخلافة دون ابى بكر اول رجل سبق الى الاســـلام وحضر المشاهد النبوية بأسرها ورافق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فضلا عما عرفه الصحابة من تقديم الرسول إياه ليصلي بالناس نيابة عنه فى وقت مرضه ولذلك لما اقترح أبو بكر أن يكون الخليفة واحداً من اثنين عمر بن الخطاب او أبا عبيدة عامر بن الجراح اراد عمر ان ينهى الامر بسرعة فمد يده الى ابى بكر فبايعه الناس وقد أثر عن عمر انه قال عن بيعة ابى بكر كانت فلتة وقى الله شرها قال ذلك لما عـــلم ان بعض الناس قال لو ان امـــير المؤمنين مات لبايعت فلانا : مضت هـــذه البيعة من غير ان يتبين للناس البيئة التي لها الحق فى انتخاب الخليفة إلا انها سنت الانتخاب من حيث هو

(٢) الطريقة الثانية : ان يعهد الخليفة الموجود الى شخص آخر بعده الخلافة وهي الطريقة التي كان بها انتخاب عمر بن الخطاب حيث اختاره

ابو بكر وقد قال للناس هل رضيتم من اخترته فقالوا نعم . وهذه الطريقة تجعل للخليفة الحرية فى انتخاب ولى عهده من غير قيد

(٣) الطريقة الثالثة : طريقة الاختيار الشوري من افراد يعينهم الخليفة الموجود وهي الطريقة التى انتخب بها عثمان بن عفان فان عمر لما ضرب واحس بالموت خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة لئلا يختلفوا ولم يكن امام نظره من لو استخلفه يكون مطمئن النفس من قبله فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حياً وميتاً فاختار ستة من كبار الصحابة وممن يرى أنه لايتطلع لامر الخلافة غيرهم ووضع لهم نظاما ينتخبون به الخليفة من بينهم فامر أن يجتمعوا بعد وفاته في حجرة عائشة ويختاروا الخليفة في مدة لاتزيد على ثلاثة أيام وجعل للاغلبيــة الرأى المقبول فيجب على الاقل الرضوخ لحكمها والا اعتبر خارجاً يستحق القتل واذا تساوت الاصوات كان القسم الذى فيه عبد الرحمن بن عوف مرجحا

وهذه الطريقة كانت بذرة صالحة لو وجدت منبتاً حسناً ولكننا لم نرفي مستقبل الامة من تناولها فضلا عن أن يحسن فيها : لاينكر أنها طريقــة شورية ناقصة لانه لم يكن القصد منها أخذ رأى الجمهور فيمن يكون خليفة عليهم وانما المقصود أن تؤخذ كلمة المرشحين للخلافة لاحدهم حتى لايجد محبو الخلافة مجـالا للخلاف ويظهر لنا أن عمر كان محسا بان كلا منهم يتطلع لان يكون خليفة وخاف على الامة الشقاق من بعده فعهد اليهم عهده ويظن أن هذه الفكرة لم تكن عنده بنت وقتها بل كان يفكر في ذلك من قبل بعدأن سمع عبارة الرجل التي سبق ذكرها

لم يكن فى طريقة من هذه الطرق الثلاث حل لتلك المسألة المتشابهة الاطراف لان الطريقة الاولى لم يبين فيها من لهم حق الانتخاب الذين يكون صوتهم محترما أهم الامة بأسرها أم هم أفراد مخصصون ؟؟ وان كانوا مخصوصين فمن هم ؟ وغاية ما أمكن شراح هـذه القاعدة أن يقولوه أن قالوا هم أهل الحل والعقد ، ولكن من هم أهل الحل والعقد ؟ أهم ولاة الامصار أم قواد الجيش أم أعيان الامة ؟ ؟ كل ذلك لم يبين فالمتطلع للخلافة يجد مجالا واسعاً للتأويل كما حصل عند استخلاف على . والطريقة الثانية وهي طريقة العهد ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس ويكون قادراً على حماية مصالحها وان يكن من الممكن فى بعض الاحيان أن يكون الشخص المختار لولاية العهد خير الناس كما حصل فى انتخاب عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز والطريقة الثالثة — فى حقيقة الامر — كالثانية اذا اقتصر فيها على الشكل الذي رآه عمر لانها عبارة عن عهد إلى واحد غير معين من أفراد محصورين يختارهم الامام لذلك لما جاء دور على قام جماعة من أهل المدينة والثوار من الآفاق فبايعوه بالخلافة وهو بالمدينة ولم يؤخذ في ذلك رأى غيرهم من المسلمين في الحواضر الاسلامية كان أهل المدينة ـ وحدهم ـ هم الذين ينتهي اليهم أمر انتخاب الخلفاء وليس لغيرهم معه رأي ولو كانوا من أهل الحل والعقد فى الامة متى كانوا بعيدين عن الحاضرة الكبرى : كان ممن يترقب الخلافة ويرى نفسه لها أهلا معاوية بن أبي سفيان فقام بأهل الشام معلناً أنه مخالف لان بيعة على ليست بصحيحة وحصل اصطدام بين الطرفين في سهل صفين فلما عضتهم الحرب بنابها عمدوا الى شيء سموه تحكيما ومعنى ذلك أنهم

انتخبوا رجلين من كل فريق أحدهما له هوى في صاحبه وأريد منهما أن يحكما فى أهم مشكلة تهم الامة الاسلامية بأسرها ومن المؤكد أن سلطة الحكمين لم تكن محدودة لانهما لم يقتصرا في البحث على الحكم بين الشخصين المتنازعين بل تجاوزا ذلك إلى البحث فى خلعهما معاً وتولية شخص آخر وبطبيعة الحال لم يكن لهذا التحكيم نتيجة شأن كل شيء لم يوضع له أساس ولا حدود ولكنه أوجد للمتنازعين خصما ثالثا قوي الشكيمة وهم الخوارج الذين رأوا هذا التحكيم ضلالة بل مروقا من الدين منادين بشعار اتخذوه لهم وهو لا حكم إلا لله وعبارتهم تشعر ان الخليفة المختار معين من قبل الله فلا ينبغى له أن يكون في شك من امره ولما كان على هو الخليفة وحكم الناس فى امره فقد شك ومن شك ضل فلم يعد يصلح في نظرهم للخلافة وكذلك معاوية لما تعرض لما ليس له بحق ضل فليس للخلافة بأهل وكذلك كونوا لهم جماعة اعطوها الحق في ان تنتخب لنفسها خليفة يكون بانتخاب ورأوا ان جميع مخالفيهم كفار فاستباحوا دماءهم واموالهم وهؤلاء لم يضعوا لامرهم حدوداً مقررة لذلك تطرق اليهم الاختلاف كما تفرق غيرهم وطاردهم الخلفاء بما عندهم من القوة حتى لم يكن منهم فائدة لا لانفسهم ولا لغيرهم بل كان منهم الضرر الشامل والفتن الحاصدة . انتهى امر على واستقر الامر لمعاوية بفضل قوته وسياسته ويسميه التاريخ بالخليفة المتغلب وفي نظرنا ان خلافته وبيعته لم تنقص في الشكل عن بيعة على بقطع النظر عن التعرض لما في كل منهما من الصفات والامتيازات الدينية لان معاوية بايعه فريق من الناس وعلى بايعه فريق آخر ومن الضرورى ان يتغلب اقوى المتنازعين

وليس هناك حدود معينة في الشريعة يقال ان احدهما تعداها الاان سرنا على رأى من يقول ان علياً معين للخلافة بالنص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا امر لم يتاكد الصحابة من صحته

سار بنو أمية من معاوية فمن دونه في ولاية العهد على أن الخليفة هو الذي يعينه كما هي طريقة أبي بكر في عهده لعمر الا أن بينهما فرقا وهوأن أبا بكر اختار رجلا ليس من ذوى قرابته بل من بطن آخر وبنو أمية كانوا يتخيرون من قرابتهم وكانوا في الغالب أولادهم حتى تكون بذلك دولة من بيت واحد فمعاوية عهد الى ولده يزيد ولكنه امتاز في عهده بان طلب من ولاة الامصار أن يوفدوا اليه وفوداً من أمصارهم يعرض عليهم اختيار ولى عهده وبالطبع لم يوفد هؤلاء الولاة إلا من لهم هوى في بقاء الامر في عقب معاوية فلما اجتمعوا لديه بدمشق عرض عليهم الامر ، وأنه يخاف اختلاف المسلمين من بعده وطلب منهم أن يختاروا لانفسهم فرشحوا ابنه يزيد للامر بعد أن تكلم متكلموهم بالثناء عليه وكان البادئون بذلك قوما لهم علم بما عزم الخليفة عليه وتابعهم على ذلك غيرهم وبهذا أخذ إعترافهم قبل موته بيزيد وبايعوه بولاية العهد الا أنه كان هناك من هو أكبر من يزيد من كبار الصحابة من قريش ولهم فوقه شرف الصحبة فلم يخضعوا لارادة معاوية وكان من نتيجة هذا تلك الحوادث الكبرى التى حصلت في عهد يزيد من خروج الحسين بن على وقتله وخلاف ابن الزبير

وعهد يزيد الى ابنه معاوية الا أن الرجل لم يقدر على تحمل ذلك العبء في وسط هذه الظلمات الحالكة فاعتزل وترك حبل الامة على غاربها وفى تلك

الظروف كانت الفتن تموج موجاً حتى استقر الامر بغلب مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الذي عهد بالخلافة من بعده لاثنين من أولاده يتلو أحدهما الآخر وهما عبد الملك وعبد العزيز وهي أول مرة ولى العهد فيها أثنان (١)

ولم تزل طريقة العهد سائدة فى بنى أمية حتى انقرضت دولتهم وجاءت خلافة بني العباس فسارت علي هذا النمط الا أنه في عهد الضعف الذى استولى عليها لم يكن الخليفة يدرك أن يعهد لانه كان يجر من السرير الى القبر فيجتمع أصحاب (العقد والحل) ويختارون من يشتهون ولولا ما كان يدين به الناس من استحقاق القوم للخلافة لآل أمرها الى الفناء سريعاً بعد أن جاءها سيل

(١) ومن الغريب أنه مامن مرة ولى فيها اثنان الا كانت النتيجة سيئة من جراء ذلك فان أولهما كان يميل الى نزع ثانيهما اما لانه يتوهم أنه يجتهد أن يتعجل الامور لنفسه ولا يكون ذلك الا بهلاك الاول واما لان الاول يفضل ابنه على اخيه أو ابن عمه الذى جعل ولى عهد له فيجتهد فى نزعه واقامة ابنه مقامه فقد اجتهد عبد الملك أن يؤ خر أخاه عبد العزيز ويولى ابنه الوليد . وولى سليمان بن عبد الملك عهده ابن عمه عمر بن العزيز ثم أخاه يزيد بن عبد الملك فكان عمر يألم جدا من أن يكون يزيد خليفة بعده ولولا ان عوجل لاخرجها عنه بل عن بنى امية جميعا وولى يزيد اخاه هشاما ثم ابنه الوليد فكانت مدة هشام كلها تنغيصا على الوليد حتي ساءت اخلاقه وولى السفاح عهده اخاه المنصور ثم من بعده ابن عمه عيسى ابن موسى فلم يزل المنصور بعيسي حتى أخره وقدم المهدي . وولى المهدى ابنيه الهادي ثم الرشيد فحاول الهادى أن يخلع الرشيد لولا انه عوجل وولى الرشيد بنيه الامين ثم المامون فكان بينهما من الحروب ماادى الى قتل الامين ومن الغريب أن اللاحق لايتعلم مما اصاب السابق

المتغلبين من الشرق من آل بويه ثم آل سلجوق وغيرهم من الملوك الذين استحفل أمرهم في مصر والشام الا انهم لما قدمنا كانوا يأخذون عهد السلطان من هؤلاء الخلفاء حتى أن الظاهر بيبرس البندقدارى ثالث المماليك بمصر لما رأى سقوط بني العباس ببغداد ورأى نفسه ليس بذى عهد من خليفة ساعد على اثبات نسب أحد الوافدين عليه المنتسبين الى آل عباس ليتسمى باسم الخلافة ثم يوليه الملك نيابة عنه

جاء البيت العثماني واخضع اسلطانه كثيراً من الامم الاسلامية التى كان لها ملوك متفرقون وتسمى كبيره فى عهد السلطان سليم فاتح مصر باسم خليفة المسلمين وهذا البيت اتخذ له قاعدة يسير عليها فى شكل الاختيار وهي أن تكون الخلافة للاكبر فالاكبر من البيت ومع هذا لم يخل الامر من طموح غير الاكبر لمنازعة أخيه وبسبب ذلك كان يحصل الاضطراب حتى أدى ذلك بكثير منهم إلى أن تكون فاتحة اعمالهم قتل من لهم من الاخوة حينما يتولى ومع هذا فان نظامهم حفظ الملك فى بيتهم اكثر مما حفظه في اى بيت آخر

أما الانتخاب عند أهل التنصيص على البيت العلوى فانه كان منظوراً فيه إلى الوراثة فيقوم مقام الأب أكبر أولاده ولذلك ساقتها الفرقة الاثناعشرية فى بنى الحسين بن على وسموا علياً ومن يليه الأئمة وكانوا اثنى عشر آخرهم المهدي المنتظر الذي اختفى وينتظرون عودته آخر الزمان ولغيرهم طرق أخرى في سوق الخلافة لسنا الآن بصدد بيانها ومع ضيق الدائرة التى جعلت منها الائمة عند الشيعة لم يمكنهم أن يتفقوا فنال شكل

الانتخاب عندهم الخلاف ففرقوا ذلك فرقاً

لم يكن يحل الخلاف في زمن من الازمان الا بالقوة فهي التي تجعل صاحبها صاحب الحق ظافراً ولم يلتفت أحد من هؤلاء أن يسعى في جمع الكلمة على قانون يتبع في انتخاب الخلفاء وهي نتيجة طبيعية لكثرة المتطلعين

تناول العلماء في الدولة العباسية مسألة الخلافة وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية ويخيل الينا أن أول من وضعها هذا الموضع كان يرى رأى الشيعة فان الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جر اليه المتكلمين وصار أمرها موضوعا جدلياً كغيره من المسائل الدينية وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور :

(١) وجوب نصب الامام أهو واجب على الامة من طريق السمع كما هو رأى الجمهور ؟ أو من طريق العقل كما هو رأي المعتزلة والزيدية ؟ أو من طريقهما معاً كما هو رأي بعض المعتزلة ؟ أو على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأي الامامية ؟ أو على الله ليكون معرفاً لله وصفاته كما هو رأي الاسماعيلية ؟ أو لا يجب كما هو رأى الخوارج أو يجب عند الامن أو عند الفتنة كما هو رأى هشام الفوطي واتباعه ؟ أو يجب عند الفتنة دون الامن كما هو رأى الاصم ومن شايعه من المعتزلة.

(٢) شروط الامام وقد عدوا منها شروطاً لا خلاف فيها ومنها شروط فيها الخلاف كالقرشية عند الجمهور والهاشمية عند الشيعة والعلم بجميع مسائل الدين وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة

(٣) ماتثبت به الامامة وهو النص من رسول الله أو من الامام الموجود وبيعة أهل الحل والعقد خلافاً للشيعة ثم قالوا لا يحتاج الامر الى

اجماع أهل الحل والعقد بل يكفي الواحـد والاثنان وقال بعضهم لابد أن يكون ذلك أمام بينة عادلة وهل يجوز تعدد الائمة أو لايجوز ؟ وهل يجوز خلعه ولاي شيء يكون ذلك ؟

(٤) من هو الامام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهو أبو بكر أم علي ؟

(٥) من هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

(٦) ماحكم أمامة المفضول مع وجود الفاضل ؟

وكانت هذه المناقشات مع حدتها وغوصها على معان جميلة شريفة في بعض الاحيان عديمة الجدوى من الوجهة العملية لان هؤلاء يتجادلون بأسنة الاقلام في مدارسهم وعلى صفحات كتبهم وأولئك يحكمون صفحات الحسام ولا يلقون بالا لتلك المناقشات كان شأنها لايهمهم

والخلاصة : أن مسألة الخلافة الاسلامية والاستخلاف لم تسر مع الزمن في طريق يؤمن فيه العثار بل كان تركها على ماهي عليه من غير حل محدد ترضاه الامة وتدفع عنه، سببا لاكثر الحوادث التي أصابت المسلمين وأوجدت ما سيرد عليكم من انواع الشقاق والحروب المتواصلة التي قلما يخلو منها زمن سواء كان ذلك بين بيتين او بين شخصين .



المحاضرة التاسعة عشرة

انتخاب أبي بكر — أول خطاب له — ترجمته — أخلاق أبي بكر — أخبار الردة

انتخاب أبي بكر

كانت الانصار منقسمة الى شعبتين الاوس والخزرج وكان الخزرج أكثر عدداً من الاوس والرياسة والتقدم لسعد بن عبادة من بني ساعدة وهو أحد النقباء الذين انتخبوا ليلة العقبة وكانت دار سعد مما يلي سوق المدينة وعندها سقيفة وهي ظلة كانت بالقرب من داره. فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنت لهم وفاته اجتمع كبار الانصار فى تلك السقيفة أوسهم وخزرجهم يريدون انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان نظرهم متوجهاً الى اختيار سعد بن عبادة فان سعداً خطب فيهم مبيناً ما للانصار من الفضل والسبق الى حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه لا ينبغي أن ينازعهم فى هذا الامر أحد فأجابوه أصبت ووفقت ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم فان أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأولياؤه فماذا نقول لهم ؟ فقال له آخر نقول منا أمير ومنكم أمير، ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لما سمعها هذا أول الوهن

بلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين أبا بكر وعمر وغيرهما فمضوا إلى السقيفة

مسرعين حتى وصلوا اليها وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هيأه فى نفسه ليقوله فى هذا الموقف فقال له أبو بكر على رسلك ! وكان أبو بكر رجلا وقوراً فيه أناة ثم تكلم فذكر تاريخ المهاجرين وما لهم من فضل السبق وتحمل المصاعب فى سبيل دينهم ثم كر على ذكر الانصار فاثنى عليهم ولم يترك شيئاً مما لهم من المآثر الاذكره، ثم روى لهم ما أثر عن الرسول عليه السلام من قوله (الأئمة من قريش) ثم قال فنحن الامراء وأنتم الوزراء لاتفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور ، فلما أتم خطابه قام اليه الحباب بن المنذر وهو من بنى جشم بن الخزرج فقال يامعشر الانصار املكوا عليكم امركم فان الناس في فيئكم وظلكم ولن يجترىء مجترىء على اخلافكم ولن يصدر الناس الا عن رايكم انتم اهل العز والثروة واولو العدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس الي ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم امركم ابى هؤلاء الاماسمعتم فمنا امير ومنهم امير فقال عمر هيهات لايجتمع اثنان فى قرن وبعد كلام له قام الحباب ثانية فقال يامعشر الانصار املكوا على ايديكم ولا تسمعوا مقالة هذا واصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر ثم قال انا جذيلها (١) المحكك وعذيقها المرجب اما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة فكان بينه وبين عمر حوار ثم قال ابو عبيدة يامعشر الانصار إنكم اول من نصر وآزر فلا تكونوا اول من بدل وغير فقام بشير بن سعد وهو من بنى زيد بن مالك من الخزرج فقال يامعشر الانصار إنا والله لئن كنا اولى فضيلة وجهاد وسابقة فى هذا

---

(١) تصغير الجذل عود ينصب للجربي لتحتك به والعذيق تصغير العذق وهو النخلة وترجيبها ان يبني تحتها دكان تعتمد اليه

الدين ما اردنا به إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا والكدح لانفسنا فماينبغي لنا ان نستطيل على الناس بذلك ولا نبغي به من الدنيا عرضاً فان الله ولى المنة علينا بذلك الا ان محمداً من قريش وقومه احق به واولى وايم الله لايراني الله انازعهم هذا الامر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم فقال ابو بكر هذا عمر وهذا ابو عبيدة فايهما شئتم فبايعوا فقالا لا والله لانتولى هذا الامر عليك فانك افضل المهاجرين وثاني اثنين اذهما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة افضل دين المسلمين فماذا ينبغي له ان يتقدمك او يتولى هذا عليك ابسط يدك لنبايعك فمد عمر يده اليه فبايعه ثم ابو عبيدة ثم بشير ابن سعد فلما راى ذلك الحباب قال لبشير عققت ! انفست على ابن عمك الامارة ؟ قال لا والله ولكنى كرهت ان انازع قوما حقا جعله الله لهم

ولما رأت الاوس ماصنع بشير وما تدعو اليه قريش وماتطلب الخزرج من تأمير سعدبن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً قوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا اليه فبايعوه فانكسر على سعد وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطؤن سعدبن عبادة وهو مريض لايقدر على النهوض ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا على بن أبي طالب ومن معه لانهم لم يحضروا السقيفة وكانوا مشغولين في جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم

بهذا تمت بيعة أبي بكر لان جمهور المسلمين بايعه وكان كبار الصحابة

كلهم اذذاك في المدينة ، ولم يزل على بن أبى طالب ممتنعاً عن مبايعة أبي بكر ستة أشهر حتى ماتت فاطمة زوجه وكانت اعلى من الناس وجهة حياة فاطمة فلما ماتت استنكر وجوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر فأرسل الى أبي بكر أن أئتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب فقال عمر لأبي بكر والله لاتدخل عليهم وحدك فقال أبو بكر وما عساهم أن يفعلوا بى ؟ والله لآتينهم فدخل عليهم أبو بكرفتشهدعلى ثم قال قدعرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولا ننفس عليك خيراً ساقه الله اليك ولكنك استبددت علينا بالامر وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيناه ثم قال ابو بكر والله لقرابة رسول الله أحب الى أن أصل من قرابتى وبعدأن أتم كلامه قال على لابى بكر موعدك العشية للبيعة فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقي على المنبر فتشهد وذكر شأن على وتخلفه عن البيعة وعذره بالذى اعتذر به ثم استغفر على وتشهد فعظم شأن أبى بكر وأنه لم يحمله على الذى صنع نفاسة على أبى بكر ولا إنكارا للذى فضله الله به ولكننا كنا نرى لنا في الامر نصيباً فاستبد به فوجدنا في أنفسنا فسر بذلك المسلمون وقالوا أصبت وكانوا الى على قريبا حينما راجع الامر بالمعروف

أول خطاب لابى بكر

بعد ان تمت بيعته قام في الناس خطيبا (١) فقال ايها الناس قد وليت

(١) كانت الخطبة بعد تمام أمر الخلافة عادة للخلفاء بعد أبى بكر يظهرون بها مالانفسهم من الخطة التى سيتبعونها فى سياسة أمتهم اجمالا

عليكم ولست بخيركم فان احسنت فأعينوني وان صدفت فقوموني الصدق امانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله . لايدع احد منكم الجهاد فانه لايدعه قوم الا ضربهم الله بالذل اطيعوني ماأطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله وهذه الكلمة هي مجمل الطريقة التى اتبعها في خلافته اخبرهم بواجب عليهم وهو إعانته وحق لهم وهو تقويمه اذا صدف عن الحق وفى هذا ضمان لحريتهم فى القول اعطاهم عهداً ان يعدل فيهم فلا تمنعه قوة الظالم ان ينصف منه المظلوم ولا يمنعه ضعف المظلوم ان ينصفه من ظالمه ـ حثهم على الجهاد الذى كان لابد منه ـ اخبرهم انه خليفة لينفذ الشريعة فاذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم

ترجمة ابي بكر

هو ابو بكر بن ابى قحافة من بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر وامه ام الخير سلمى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة ولد لسنتين من عام الفيل وشب على الاخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة وكان ذا يسار يحمل الكل ويكسب المعدوم وكان محببا الى قريش يعرف من انسابهم مالا يعرفه غيره وكان مصاحبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة فلما شرف الله محمداً برسالته كان أبو بكر أول رجل أجابه حتى قال في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مادعوت أحداً الى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبي بكر وكان له فى الدعوة الي الاسلام اليد الطولى وقد أراد ان يهاجر

إلى الحبشة حينما اشتد إيذاء المشركين على المسلمين فمنعه من ذلك ابن الدغنة سيد القارة وأجاره على قريش على شرط أن لا يستعلن بصلاته ولما لم يجد بعد ذلك بداً من أن يتخلص من هذا الشرط رد على ابن الدغنة جواره وأقام راضياً أن يصيبه مايصيب اخوانه : ولما كانت هجرة المدينة كان له شرف الصحبة وكان ثاني اثنين إذ هما في الغار وشهد بعد الهجرة جميع المشاهد الاسلامية لم يتخلف عن واحدة منها وكان صاحب الراية في غزوة تبوك وأمره النبي صلى الله عليه وسلم على الحج في السنة التاسعة ولما مرض عليه السلام أمره أن يقوم مقامه في الصلاة

تزوج أبو بكر في الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى من بنى عامر بن لؤي فولدت له عبد الله وأسماء التى تزوجها الزبير بن العوام — وتزوج في الجاهلية أيضاً أم رومان بنت عامر من بنى غنم بن مالك بن كنانة فولدت له عبد الرحمن وعائشة التى تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم — وتزوج في الاسلام أسماء بنت عميس من خثعم بعد أن قتل عنها زوجها جعفر بن أبي طالب فولدت له محمداً — وتزوج في الاسلام أيضاً حبيبة بنت خارجة بن زيد من الخزرج فولدت له بعد وفاته جارية سميت أم كلثوم. فذكور أولاده ثلاثة وأناثهم ثلاث

أخلاق أبي بكر

لكل عظيم أخلاق يظهر أثرها في أعماله ظهوراً واضحاً وتظهر للناس صورتها كلما ذكر اسمه وإذا أردنا أن نعرف ذلك من أبى بكر فانا نجد أظهر أخلاقه

﴿ صـدق العزيمة . الرقة ﴾

وصدق العزيمة أن يبحث الانسان في الامر على قدر مايتهيأ له من طرق البحث ويستعين بآراء غيره إن كان شوريا فاذا اتضح له السبيل عزم ومتى عزم لايثنيه شيء عماعزم عليه حتى إذا رأى الجبال أمامه تريدصده حاول أن يفتح له منها طريقاً : هكذا كان أبو بكر

والرقة أن يكون الوجدان سريع التأثر وضدها القسوة فترى الرقيق يتأثر منا لالآلام التي تصيب النـاس حتى اعداءه وتجد عبراته تسابق قلبـه إلى التأثر

وهذان الخلقان يدفع أحدهما شر الآخر في سواس الأمم لأن الرقة المتناهية تجعل الانسان متردداً في أموره حسب المؤثرات التي تنـال نفسه فاذا كان معها صادق العزيمة أمن شر التردد المهلك

أول ماظهر من صدق عزيمة أبي بكر ما كان منه في بعث أسامة بن زيد قبيل مرض الرسول صلى الله عليه وسلم؛ هيأ بعثا ليرسله الى مشارف الشام حيث قتل زيد بن حارثة وأصحابه فى مؤتة وكان فى هـذا البعث ابو بكر وعمرو وكثير من كبار الصحابة ولمـا كاد البعث يبرح المدينة مرض عليه السـلام فتوقف خارجها حتى كانت الوفاة وبويع بالخلافة أبو بكر وحينئذ بلغه أن الاعراب ارتد كثير منهم عن الاسلام فكلم فى تأخير بعث أسامة ليكون عدة على المخالفين فأبى شـديد الاباء وصمم على تنفيذ البعث مهما تكن النتيجة ولو كان قد تردد فى الامر أو اخر البعث لكان قد شرع للناس لاول مرة مخالفة ماأمر به الرسول أمراً حتما وكان يدور على لسانه وقت مرضه

التأكيد بانفاذ بعث اسامة . ثم تكلم فى ان يغير اسامة برجل اسن منه يقود الجيش فغضب غضبا شديداً وقال يوليه رسول الله ويعزله ابو بكر ؟!! واشتد فى الكلام مع عمر الذي كان يكلمه فى ذلك عن بعض الانصار حتى قام وأخذ بلحيته وقال عدمتك امك وثكلتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى ان انزعه . ولما كان عمر من ضمن ذلك البعث وكان من الضروري وجوده بالمدينة ليعين ابا بكر لم يشأ الخليفة ان يستبد على رئيس السرية بابقائه بل قال لاسامة إن رأيت ان تعيننى بعمر فافعل فأذن له. وهذا مقام كبير فى احترام ذي السلطان فى سلطانه وفى الحقيقه ذلك راجع الى احترام الامر النبوي حيث رغب ابو بكر ان ينفذ تماما واعتبر ان اسامة مولى من سلطان اعلى من سلطانه فلا ينبغي له ان يفتات عليه .

ولما ودع ابو بكر هذا البعث اوصاهم بتلك الوصية وهي :

لاتخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخا كبيراً ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لمأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها الوان الطعام فاذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها . وتلقون اقواما قد فحصوا اوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا يدفعها باسم الله (١)

---

(١) في لسان العرب . وفي الحديث أنه أوصى أمراء جيش مؤتة — وستجدون آخرين للشيطان فى رءوسهم مفاحص فافلقوها بالسيوف أى أن الشيطان قد استوطن

فسار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاعة وأخافهم وغنم منهم واستمر فى بعثه أربعين يوما ثم عاد وكان هذا البعث مفيداً للمسلمين لان أعداءهم لما تسامعوا به قالوا لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل القوية !

ومما يظهر صدق عزيمة أبي بكر ما كان منه في أخبار الردة

أخبار الردة

قدمنا أن كثيراً من أعراب البادية بنجد واليمن لم يتأثروا بعد بأثر الاسلام ولم تزك أنفسهم الزكاة المطلوب وقد بين الكتاب ذلك بقوله فى سورة الحجرات (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) فهذه كانت حالهم خضوع في الظاهر والقلوب بعد لم يتمكن منها الدين فرأوا أن موت الرسول صلى الله عليه وسلم فرصة يتخلون بها عن الفروض الاسلامية خصوصاً ما كان منها فى المال كالزكاة ومنهم فريق قام فيها دعاة يدعون الى أنفسهم مدعين أنهم انبياء فتبعوا دعوتهم وبذلك كانوا فريقين :

(١) فريق امتنع عن أداء الزكاة (٢) وفريق تبع المتنبئين ورفض الدين كله : فكانت عزيمة أبي بكر صادقة فى حرب هؤلاء الذين خرجوا من الدين

رؤوسهم فجعلها له مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها وهو من الاستعارات اللطيفة لان من كلامهم اذا وصفوا انسانا بشدة الغى والانهماك فى الشر قالوا قد فرخ الشيطان في رأسه وعشش. وفى حديث ابي بكر وستجد قوما فحصوا عن اوساط رؤوسهم الشعر فاضرب مافحصوا عنه بالسيف وفى الصحاح كانهم حلقوا وسطها وتركوها مثل أفاحيص القطا وهى مجاثمها

وحاربوه بعد ان دخلوا فيه مع ما يعلمه من هذا الانتقاض الذى كاد يكون فى عامة الاعراب ولكن صدق العزيمة يذلل كل شىء

فلما جاءته الاخبار مكث ينتظر بعث أسامة لانه كان فيه معظم القوة وكان جيران المدينة من عبس وذبيان قد اجترءوا عليها يريدون مهاجمتها فلما قدم بعث أسامة استخلف أبو بكر أسامة على المدينة وكان قصده بذلك ان يرتاح جنده ويريحوا ظهورهم وهم بالخروج فيمن معه من الجند وحرس المدينة لحرب عبس وذبيان فقال له المسلمون ننشدك الله ياخليفة رسول الله أن لا تعرض نفسك فانك ان تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا فان أصيب بعثت آخر فقال والله لا أفعل ولاواسينكم بنفسى فخرج في تعبيته حتى نزل على أهل الربذة فالابرق فاقتتل جنده مع بنى عبس فهزم العبسيون وأخذ الحطيئة الشاعر أسيراً واقام أبو بكر بالابرق أياما وقد غلب بنى ذبيان على البلاد وحماها لخيول المسلمين وأرعي سائر الربذة الناس ثم عاد ابو بكر إلى المدينة فلما استراح جند اسامة خرج الى ذى القصة فنزل بهم وذو القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد فقطع فيها الجند وعقد الالوية عقد في ذلك اليوم احد عشر لواءا لاحد عشر اميراً وهم

(١) خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد الاسدى ببزاخة فاذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح

(٢) عكرمة بن ابى جهل ووجهه الى مسيلمة باليمامة

(٣) ووجه فى أثره شرحبيل بن حسنة

(٤) المهاجرين ابي امية ووجهه الى جنود الاسود العنسي بصنعاء ومعاونة الابناء

(٥) حذيفة بن محصن ووجهته اهل دبا بعمان

(٦) عرفجة بن هرثمة ووجهته اهل مهرة وامر هذا ومن قبله ان يجتمعا وكل امير على صاحبه في عمله

(٧) سويد بن مقرن الى تهامة اليمن

(٨) العلاء بن الحضرمي ووجهه الى البحرين

(٩) طريفة بن حاجز ووجهه الى بني سليم ومن معهم من هوازن

(١٠) عمرو بن العاص ووجهه الى قضاعة

(١١) خالد بن سعيد ووجهه الى مشارف الشام

وبعد ان عين الجنود والامراء كتب للمرتدين من العرب كتاباواحداً (منشوراً) ارسله اليهم قبل ان تسير الجنود قال فيه بعد ان بدأه باسم الله وذكر الرسالة والوفاة قال (وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه اقر بالاسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بامره واجابة للشيطان قال الله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن امر ربه افتتخذونه وذريته اولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقال (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً انما يدعوا حزبه ليكونوا من اصحاب السعير) واني قد بعثت اليكم فلانا في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان وامرته ان لايقاتل احداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له واقر وكف وعمل صالحا قبل منه واعانه عليه ومن ابي

أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وان يسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الاسلام فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمر رسولي أن يقرأ كتابي فى كل مجمع لكم والداعيـة الاذان فاذا أذن المسلمون فاذنوا كف عنهم وان أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي) فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود وهذا فيما نعلم أول منشور عام صدر عن خليفة المسلمين ليقرأ في مجامع الناس وأنديتهم

وكتب إلى القواد عهداً صورته واحدة وهو هذا :

هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلي الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الاسلام وعهد اليه أن يتقي الله ما استطاع فى أمر كله سره وعلانيته وأمره بالجد فى أمر الله ومجاهـدة من تولي عنـه ورجع عن الاسلام إلى امانى الشيطان بعد أن يعـذر اليهم فيدعوهم بداعيـة الاسلام فان أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذى لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب الى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه واعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله فاذا أجاب الى الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الاسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبي قاتله فان أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما

بفاء الله عليه الا الخمس فانه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وان لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ماهم لا يكونوا عيونا ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم وان يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول

طليحة ومالك بن نويرة

كان طليحة رجلا من بني أسد بن خزيمة علم بمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من حجة الوداع فسولت له نفسه أن يدعي للناس النبوة ليكون له من الشأن ما رأى لبني قريش فدعا الى ذلك قومه من بني أسد فشايعوه والتفت اليه طيء لما كان بينها وبين اسد من الحلف ودخلت في غمارهم غطفان الا ما كان من خواص أقوام فيهم لم يغير وامن دينهم وكان مقام جنده ببزاخة وهو ماء لطيء بارض نجد . وكان بالمدينة عدي بن حاتم الطائي وهو سيد من ساداتهم فطلب من ابي بكر ان يذهب الى قومه فاذن له فقدم عليهم فصار يفتلهم في الذروة والغارب حتى قالوا فاستقبل جيش خالد فكفه عنا حتى نستخرج من لحق ببزاخة منا فانا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم او ارتهنهم فاستقبل عدى خالداً وقال له امسك عني ثلاثا يجتمع لك ٥٠٠ مقاتل تضرب بهم عدوك ففعل خالد ثم عاد عدى الى قومه وقد ارسلوا الى اخوانهم فاتوهم من بزاخة كالمدد لهم ثم راجعوا الاسلام فعاد إلى خالد واخبره ثم فعل ذلك بجديلة فلحق بالمسلمين من الجيش الف مقاتل فسار حتى اتى بزاخه واصطدم الجيشان اصطداماً شديداً فلما احس عيينة بن حصن الفزاري بالضعف جاء الى طليحة وهو ملتف بكسائه فقال له الا ترى ما

يصنع بنـا فهل جاءك ذو النون بشيء قال نعم قد جاءني وقال ان لك يوما ستلقاه ليس لك اوله ولك آخره ورحا كرحاه وحديثاً لاتنساه فقال عيينـة اري والله ان لك حديثا لاتنساه يابنى فزارة هـذا كذاب وولى عن عسكره فانهزم الناس وهرب طليحة وانفضت جموعه ثم جاء بعد ذلك مسلما فقال له عمر انت الكاذب على الله حين زعمت انه انزل عليك ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم فاذكروا الله قياما فان الرغوة فوق الصريح فقـال يا امير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذى هـدمه الاسلام كله فلا تعنيف على ببعضـه فأسكت عمر

بنو تميم ومالك بن نويرة

كان الرسول قد امر على بطون تميم امراء منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد عليه الله فأرسل الزكاة إلى أبي بكر ومنهم من منعها كمالك بن نويرة ومنهم المتردد في الامر وكان ذلك الخلاف مدعاة ان يشتغل بعضهم ببعض وبيناهم على ذلك الخلاف اقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بنت الحارث وكانت هي وابوها في بني تغلب واصلها من بنى يربوع من تميم ادعت النبوة فتبعها جمع كبير من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد غزو ابي بكر فلما قربت من ديار بنى تميم راسلت مالك بن نويرة سيد بنى يربوع ودعته إلى الموادعة فوادعها وثناها عن غزو ابي بكر وحملهـا ان تغزو بعض الاحيـاء من تميم وهم الذين يخالفونه ثم أرسلت إلى وكيع بن مالك سيد بنى مالك بن حنـظلة تدعوه إلى مثل مادعت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا

بأى تميم يبدؤن فسجعت لهم سجاح قائلة أعدوا الركاب واستعدوا للانهاب ثم أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب فكانت بذلك خطوب في بطون تميم ولكن لم يستتم لها أمر بين أظهرهم فتركت بنى تميم وعولت على المسير الى اليمامة بجموعها وكان بها مسيلمة الحنفي فلما سمع بها هاب جموعها وصالحها وبينما هم على ذلك اذ سمعوا بقدوم خالد بن الوليد في جيوشه فتفرقت جموعها وعادت إلى الجزيرة وحينذاك ندم مالك بن نويرة على مافعل وتحير في أمره وكذلك من فعل فعله من رؤساء تميم غير أن من عداه ندموا ندماً ظاهراً وأخرجوا الزكاة وأرسلوها إلى خالد وأما مالك فوقف وأمر بنى يربوع أن يتفرقوا فلما ورد خالد البطاح لم يجد أحداً فبث سراياه مغيرة على القوم فجاءته بمالك فى نفر من بنى يربوع فأمر بهم خالد فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معه وكان بعض أفراد الجيش ومنهم أبو قتادة شهدوا أنهم أذنوا فلما حصل القتل رأوه مخالفاً لأمر الخليفة ومما أكبر التهمة أن خالداً تزوج زوجة خالد بن نويرة فلما بلغ ذلك أبا بكر أسف وقال له عمر ان في سيف خالد رهقاً فان يكن هذا حقاً حق عليه أن تقيده وأكثر عليه في ذلك وكان ابو بكر لايقيد من عماله ولاوزعته فقال هبه ياعمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد وودى مالكا وبخذلان بنى يربوع عاودت تميم كلها الاسلام ورضيت أن تدفع صدقاتها الى أبي بكر كما كانت تدفعها إلى سول الله صلى الله عليه وسلم

بنو حنيفة ومسيلمة

كانت بنو حنيفة قد وفدت على الرسول في حياته وأسلمت وكان

فيهم مسيلمة فلما شاع مرض الرسول تنبأ مسيلمة ودعا الناس إلى اتباعه وكان من طلبه أن يكون نصف الارض لقريش ولبني حنيفة نصفها ثم يقول ولكن قريشا قوم لايعدلون . فلما وجه ابوبكر الجيوش إلى المرتدين وجه عكرمة لمحاربة بني حنيفة باليمامة ووجه في أثره شرحبيل وأمرهما ان يجتمعا فتعجل عكرمة ليفوز بفخرة اليوم فنكب دون قصده فلما بلغ ذلك أبابكر غضب ووجه كلا من عكرمة وشرحبيل وجها آخر ثم اختار خالد بن الوليد بعد ان انتهى من مالك بن نويرة ليسير إلى اليمامة وانتدب معه قوة كبيرة وكانت قوة مسيلمة كبيرة جداً تبلغ اربعين الفا لأن اكثرها اتبعه عصبية حتى كان بعضهم يقول اشهد ان مسيلمة كذاب وان محمداً صادق ولكن كذاب ربيعة احب الينا من صادق مضر . سار خالد حتى وصل طرف اليمامة فكان بينهم يوم شديد الهول تذامر فيه بنو حنيفة وقاتلوا عن انفسهم وعن احسابهم قتالا شديدا حتى انكشف المسلمون وكادت تتم الهزيمة عليهم لولا رجال من ذوى الحمية والغيرة صرخوا في الناس فنبعتهم فئة ثم كروا بجمعهم ثانية على عدوهم حتى قتل مسيلمة واشترك في قتله وحشي قاتل حمزة ورجل من الانصار ولما راى بنو حنيفة ذلك دخلوا حصونهم واحتموا بها فصالحه عنهم مجاعة بن مرارة وكان القصد من الصلح ان لايقتل المقاتلون ويكتفي باخذ ماعندهم من النقود ذهبا وفضة والسلاح وربع السبي فاتفقا على ذلك وكان ابو بكر قد ارسل إلى خالد ان يقتل مقاتلتهم فجاءه الكتاب بعد أن كتبت شروط الصلح فوفي لهم خالد بما عاهدهم عليه ثم راجعت بنو حنيفة البراءة مما كانت عليه والاقرار بالاسلام فبعث خالد منهم وفداً إلى

أبي بكر فقال لهم حينما قدموا عليه ويحكم ماهذا الذى استنزل منكم مااستنزل قالوا ياخليفة رسول الله : لقد كان الذي بلغك مما أصابنا كان أمر لم يبارك الله عزوجل له ولا لعشيرته فيه ثم سألهم عن بعض اسجاع مسيلمة فقالوا له شيئاً منها فقال ويحكم إن هذا لكلام ماخرج من إل ولا بر فأين يذهب بكم : واقام خالد بعد فراغ الامر في واد من اودية اليمامة يقال له الوبر

اليمن والاسود العنسي

ولما اسلم اهل اليمن ولى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم باذان الذي كان عاملا لكسرى فلم يزل واليا عليها حتي مات فجعل عليه السلام ابنه شهرا واليا على صنعاء وعين ولاة آخرين على بقية بلاد اليمن حيث قسمها إلى عشر عمالات وكان معاذ بن جبل معلما يتنقل فى هذه الولايات قبل وفاة الرسول. ثم قام رجل من عنس إحدى قبائل قحطان اسمه الاسود فتنبأ وتبعه قوم من اعراب اليمن سار بهم الى نجران فاستولى عليها لعشر من مخرجه ودخل معه عوام مذحج ثم جاء صنعاء وقاتل عاملها شهرا واستولى عليها وهزم الابناء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه فجعل امره بعد ذلك يستطير استطارة الحريق وقد وصل الخبر بذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اهل اليمن فى امره قسمين فقسم يتقيه وهو على إسلامه وقسم تابعه وارتد عن دينه . فأرسل عليه السلام كتابا على يد وبر بن يحنس الى من بصنعاء من الابناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض الى الحرب والعمل فى أمر الاسود أما غيلة وإما مصادمة وان يبلغوا عنه من

رأوا أن عنـده نجدة ودينا . وقد صادف ذلك أن تغير الاسود على رئيس جنده قيس بن عبد يغوث المرادى فهو يخافه خوفاً شديداً ففاتحه الابناء فى أمر اغتيال الاسود فاجابهم الى ذلك وصاروا يمهدون لذلك الامر واتفقوا على ذلك مع امرأة شهر التى اغتصبها الاسود بعد قتل زوجها وبعـد خطوب طويلة تمكن فيروز أحد الابناء من قتله غيلة داخل منزله ولما طلع فجر تلك الليلة نادوا على القصر بشعار المسلمين وهو الاذان وبذلك خلصت صنعاء والجند من هذا الشر المستطير واتفق الناس أن يولوا أمرهم معاذ بن جبل فكان يصلي بهم وكتبوا إلى رسول الله بالخبر فوصل الرسول بالمدينة صبيحة اليوم الذى توفى فيه عليه السلام وكان بين خروج الاسود ومقتله نحواً من أربعة أشهر

ولما بلغ أهل اليمن موت رسول الله صلى الله عليه وسلم عادوا إلى ما كانوا عليه من الخلاف وقادهم الى ذلك بعض الرؤساء من المرتدين فبعث أبو بكر إلى من بقي على اسلامه من رءوس اليمن يأمرهم بالوقوف حيال المرتدين حتى تصلهم النجدات وما زالوا كذلك حتى وصلتهم الجنود يقودها المهاجر بن أبي أمية فاستردت صنعاء وأسرت زعماء الفتنة قيس بن عبد يغوث وعمرو بن معدى كرب ثم ذهبت الى كندة بحضرموت وكانت قد ارتدت أيضاً وهناك اجتمع جند المهاجر وجنـد عكرمة بن أبي جهل فحاربوا كندة حتى غلبوهم وأسروا الاشعث بن قيس سيد كنـدة وبعثوا الى أبي بكر يبشرونه بالفتح

البحرين والحطم

كان عليه السلام قد ولى على البحرين المنذر بن ساوى وبها قبائل من عبد القيس وبكر بن ربيعة فمات المنذر فى الشهر الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحينذاك ارتد أهل البحرين فأما عبد القيس فانها فاءت الى الدين من غير قتال تبعوا نصيحة الجارود بن المعلى حيث جمعهم فقال يامعشر عبد القيس انى سائلكم عن أمر فاخبروني أن علمتم ونا تجيبونى ان لم تعلموا : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى قالوا نعم قال فما فعلوا قالوا ماتوا قال فان محمداً مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله فقالوا ونحن نشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله وانك سيدنا وافضلنا وثبتوا على اسلامهم .اما بكر فانها تمت على ردتها يقودها الى ذلك الحطم بن ضبيعة واستغوى كثيراً ممن يسكنون القطيف وهجر ولم يزل كذلك حتى قدم عليه العلاء بن الحضرمي اميراً على الجند الذي سيره ابو بكر لقتال من ارتد بالبحرين ولحق به ثمامة بن اثال فى مسلمة بنى حنيفة وجموع من تميم وبعد مقام طويل اصطدم المسلمون مع جند الحطم فغلبهم المسلمون وقتل الحطم وضرب الاسلام بجرانه فى البحرين وكتب العلاء الى ابى بكر يخبره بالفتح ورجوع العرب من ربيعة الى الاسلام

وكانت هناك وقائع اخرى بين القواد وبين المرتدين من العرب في غير هذه الجهات في جميعها انتصر المسلمون

اشتغل أبو بكر في أمر الردة بعزيمة لم تعرف لغيره من الابطال الذين لاتزعزعهم الكوارث ولاتلين من قلوبهم الخطوب وما ظنك بهذه النار التي

هاجت في جميع انحاء الجزيرة حينما شعرت بفقد الرسول صلى الله عليه وسلم فأطفأها وليد عجاجها قبل أن تنقضي السنة التي لحق فيها الرسول بربه وأن الانسان ليحار بادىء بدء في هذا الامر ولكن اذا رجع إلى قوة العزيمة وحسن النظام في تسيير الجنود وتوارد المكاتبة من رؤساء الجند واليهم في مواعيد قليلة لا يلبث أن تقر نفسه ويعترف لأبي بكر أن له نفساً هي أكبر نفس عرفت عن خليفة

كان ابو قتادة وهو من كبار الصحابة وممن لهم الشرف العريض في جند خالد بن الوليد فلما نقم عليه ما كان منه من قتل مالك بن نويرة وزواج زوجته فارقه وذهب الى ابي بكر يخبره بالحادثة فغضب ابو بكر منه غضبا شديداً ولم يكن هناك هوادة في رجوعه إلى خالد ثانية ونهيه عن ان يترك الجند لاي سبب كان من غير أمر الرئيس ولم يشفع له مقامه العظيم وطول صحبته وحاول عمر أن يوقع أبو بكر بخالد مع جسامة ذنبه فلم يفعل لانه خاف الوهن واعتذر عنه بأنه تأول فأخطأ

إنا نقول في ذلك قولا صريحاً لولا أبو بكر وعزيمته القوية بعد معونة الله وتأييده ما كان يسير بالمسلمين مسيره الذي عرف . حصل ذلك في وقت استولى فيه الذهول على أفئدة المسلمين كافة حتى اقواهم شكيمة وأشدهم قلباً



المحاضرة العشرون

ظهور الأمة العربية — حال الفرس والروم لاول عهد
أبي بكر — غزو الفرس — غزو الروم

ظهور الامة العربية

مكثت الامة العربية تلك الازمنة الطويلة وهي محصورة في جزيرتها قانعة بصحرائها ومفاوزها ووديانها قوامم متفانية فى حروبهم بعضهم مع بعض بأسهم بينهم شديد والامم المجاورة لهم قد ملكت عليهم امرهم فى أخصب بقاعهم وان كان للعرب ملك أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم من الفرس أو الروم حتي جاء الاسلام فكون منهم تلك الامة العظيمة التي سلبت أقوى الامم سلطانها وتغيرت الحال فصار المقهور قاهراً والمسود سيداً

كان يجاور الامة العربية دولتان عظيمتان تعترف العرب لهما بالسيادة والتغلب من قديم الاعصار وهما دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية

دولة الفرس

فاما دولة الفرس ويقال لها دولة الاكاسرة فكانت قاعدتها (المدائن) وهي مدينة عظيمة كانت على شاطيء دجلة الشرقي والغربي جنوبي بغداد في منتصف المسافة بينها وبين واسط ودور الاكاسرة هذه تكونت منذ

وجد أزدشير بن بابك وغلب ملوك الطوائف على أمرهم واستبد بالامر دونهم ووحد كلمة الفرس ثانية بعد أن كانت تفرقت فى عهد اسكندر المقدونى وكان ظهور أزدشير سنة ٢٣٠ م وأدخل في ملكه العراق ومايجاوره من بلاد العرب وجميع الممالك الفارسية المتفرقة وكان يسمي شاهنشاه أى ملك الملوك وأمراء الاقاليم يسمى واحدهم شاهاً وما زال بنوه يتوارثون ملك الفرس من بعده حتى كان كسرى أنوشروان الملقب بالملك العادل وهو الذى ولد لعهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ملكا عظيم الشأن واسع السلطان ثم جاء بعده هرمز ثم كسرى أبرويز وهو الذى أرسل اليه الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الاسلام فرأى ذلك أمراً عظيما أن يدعوه عبد من عبيده زعم ليكون خاضعاً لدينه فراسل عامله على اليمن يطلب منه أن يرسل اليه ذلك الراعي ليرى فيه رأيه وحصل عند ذلك أن قام عليه ابنه شيرويه فقتله واستلب منه تاج الملك ولكن شيرويه لم يتمتع بالملك طويلا بل مات بعد سنة وتسعة أشهر من ولايته بعد أن أساء كثيراً الى أهل بيته فولى من بعده ابنه ازدشير وهو صغير السن فكفله أحد عظماء المملكة وكان في ذلك الوقت من كبار القواد شهر بزار مرابطاً بجنده بثغور الروم فلما رأى أن ولى أزدشير من غير استشارته أقبل بجموعه الى مدينة الملك فاستولى عليها وقتل ازدشير واستلب تاج الملك لنفسه ولم يكن من أهل بيت الملك الا أن ذلك لم يرق لبعض العظماء منهم فأجمعوا أمرهم على قتله فقتلوه لاربعين يوماً من ولايته ثم ولوا أمرهم بوران بنت كسرى أبرويز اخت شيرويه ولها ذكر حسن في تاريخ الفرس وكانت ولايتها في آخر حياة رسول الله صلى الله عليه

وسلم واستمرت ملكة سنة وأربعة أشهر ثم ملك بعدها جشنسده من بني عم ابرويز الأبعدين أقل من شهر وبعده وليت آزرميدخت بنت كسرى ابرويز أخت بوران وهي التى جاءها رستم وقتلها لقتلها أباه فرخهرمز أصبهبد خراسان وعظيم فارس وولى بدلها رجلا من عقب ازدشير بن بابك يقال له كسرى بن مهر جشنس ولكن لم يبق ملكه الا أياما وما زال حالهم في اختلاف حتى ملك يزد جرد بن شهريار وهو آخرهم

الرومان

كانت الدولة الرومانية الدولة الثانية العظمى فى العالم تناصى دولة الفرس فى سعة الملك وقوة السلطان وكانت عاصمتها الكبرى رومية أدخلت تحت نيرها أكثر الامم الشرقية وفى مقدمتها مصر وسوريا ولم يزالوا على تلك العظمة حتى انقسمت دولتهم إلى قسمين الشرقية وقاعدتها قسطنطينية والغربية وقاعدتها رومية فى زمن القيصر تيودثيوس الذى ولى أمر الرومان الى سنة ٣٩٥ وأجزأ الملك بين ولديه وكان المشرق من نصيب ابنه رقاديوس الذى ولى من سنة ٣٩٥ الى سنة ٤٠٨ ومازالت الملوك تتوالى على هذا الكرسى حتى كان ملكهم لاول العهد الاسلامى هرقل الذى كان قبل ان يتولى الملك واليا في افريقية ثم خرج على الملك فوقا فقتله وتوج بالملك بدله سنة ٦١٠ واستمر ملكا حتى سنة ٦٤١ وهو الملك الذى سقطت على يده سوريا وملكها المسلمون

وكانت الدولتان الفارسية والرومانية فى نزاع دائم وكان ميدان النزاع

بينهما بلاد العراق وسوريا حيث كانت نار الحرب لاتخمد فى هـذه البقاع وكانت الحرب بينهما سجالا : فمرة يغلب الفرس فيمتدسلطانهم حتى يصل إلى شواطىء بحـر الروم ومرة يطغى عليهم الجيش الرومانى فيستلب منهم بلاد الجزيرة ويملك النهرين دجلة والفرات وما يسقيان من تلك الاراضى الخصيبة الجميلة

وأقرب تلك الوقائع إلى العهد الاسلامى ماحصل اولا من الحروب بين جنود فوقا ملك الرومان وجنود كسرى انوشروان ملك الفرس وقد انتصرت فيها الفرس انتصارات متتابعة حتى أجلوا الروم عما كان لهم من الجزيرة فى الشمال ومازالت جنود الفرس توالى فتوحها حتي وصلت الى البسفور تسفك دماءمن يقف فى طريقها وشنوا غاراتهم على فينيقياوفلسطين وفعلوا بتلك البلاد الافاعيل ثم أعادوا كراتهم فى عهد هرقل الذى خلف فوقا على سرير الملك وأخذوا من اورشليم خشبة الصليب المقدسة واتلفوا كثيراً من الآثار المسيحية ثم زحفوا سنة ٦١٦ إلى مصر فأخذوا اسكندرية . وقد اشار الكتاب إلى هذه الواقعة فى أول سورة الروم التي نزلت بمكة ابان هذه الحروب قال تعالى (غلبت الروم فى ادنى الارض) ثم قال مخبراً عمن تكون له العاقبة فقال (وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد) ثم أخبر بعد ذلك عما يصادف انتصار الروم من انتصار المسلمين على أعدائهم من المشركين فقال (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعدالله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون)

وقد حصل ذلك فعلا فان هرقل تنبه من غفلاته سنة ٦٢٢ بعد عشر سنين من ولايته وتهيأ لحرب الفرس واعد لذلك عدته ورتب جنوده وهاجم الفرس هجمات المستقتل فانتصر عليهم في الوقت الذى كان المسلمون فرحين بانتصارهم في بدر وقد كانت بدر في مارس من سنة ٦٢٤ والروم في ذلك الوقت يذيقون الفرس ماذاقوه منهم قبلا : ولم يزل الامر على ذلك حتى تولى على الفرس شيرويه بعد ان قبض على أبيه ثم قتله فصالح الروم سنة ٦٢٨ ورد جميع النصارى الذين كان أخذهم أسرى وخشبة الصليب المقدسة فنال هرقل بذلك منتهي الفخار وذهب الى أورشليم سنة ٦٢٩ ليشكر الله على ما آتاه من النصر وهذه السنة هي التى راسل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الملوك يدعوهم الى الاسلام وكان ممن راسله هرقل وهو في ذلك الوقت باورشليم (أول يناير سنة ٦٢٩ م ٢٩ شعبان سنة ٧ من الهجرة) وطرد فى ذلك الوقت اليهود من أورشليم وأمر أن يستمروا بعيدين عنها ثلاثة أميال : وبعد ذلك عاد هرقل الى حمص وكانت منزله لانها كانت مكان لهو وترف

هذا مجمل حال تلك الدولتين لاول عهد الخلفاء الراشدين

غزو الفرس

انتدب أبو بكر أعظم قواده خالد بن الوليد بعد أن انتهى من حروب الردة ليغزو بلاد الفرس وأمره أن يبدأ بثغر الهند وهو الابلة وانتدب عياض ابن غنم ليغزو الفرس من الشمال ويبدأ بالمصيخ وهو فى شمال العراق وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردة وأن لا يستعينا بمرتد وقد وصل لخالد كتاب

التعيين وهو باليمامة فكتب لصاحب الثغر وهو هرمز كتاب انذار يقول له فيه أما بعد فاسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية والا فلا تلومن الا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة

ثم فرق جيشه ثلاث فرق واتعدوا جميعهم الحفير ليصادموا به عدوهم والحفير ماء بالقرب من البصرة : فلما بلغ الكتاب هرمز بعث به الى كسرى يعلمه وجمع جموعه ثم تعجل إلى الكواظم وهي من جادة اليمامة فبلغه أن الجنود العربية قد اتخذت طريقها الى الحفير فعاج يبادرهم اليه وهناك عبأ جيشه ولما أتى خالداً الخبر أن هرمز بالحفير عدل عنه إلى كاظمة فلحقه هرمز بها وكان هرمز هذا من اسوأ أمراء ذلك الثغر جواراً للعرب فكل العرب عليه مغيظ وقد كانوا ضربوه مثلا للخبث : تزاحف الجيشان وكان كل من خالد وهرمز في مقدمة جيشهما فتبارزا فقتل خالد هرمز فلم يكن للعجم بعده ثبات فانهزموا

ثم أمر خالد بالرحيل وسار حتى بلغ قريباً من موضع البصرة والبصرة لم تبن إذ ذاك

كان كسرى قد أمد هرمز بجند تحت قيادة قارن بن قريانس وبينا هو قادم اذ بلغته هزيمة هرمز فتوقف بالمذار (١) وعسكر به فسار خالد اليه على تعبية فتقاتل الجيشان على حنق وحفيظة ولم يطل الامر حتى هزمهم خالد وقتل قائدهم فعبروا الي الجهة الشرقية وضموا اليهم السفن فلم يتمكن

(١) المذار بينها و بين البصرة اربعة ايام الى الشمال بالقرب من واسط وهى قصبة ميسان

المسلمون من طلبهم وقتل من الفرس عدد جسيم قدره الطبري بثلاثين الفاً

بلغت هذه الهزيمة ملك الفرس فبعث جنداً كثيفاً يقوده الاندر زغر ففصل عن المدائن حتى أتى الولجة (١) ثم اتبعه كسرى جنـداً آخر يقوده بهمن جاذويه وقد انضم الى صفوف الفرس كثير من العرب المتنصرة ولـما بلغ خالداً خبر تجمعهم اذن بالرحيل اليهم على تعبية بعد ان ترك خلفه حامية تحمي خطرجعته ولما وصل الواجة رتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات وصادمهم هو من احداها ولم يلبث الفريقان الآخران ان خرجا على الفرس من مكنهما فلم يلبث الفرس أن انهزموا ومضى قائد الجيش فى هزيمته حتى مات في طريقه عطشاً وقتل فى هـذه الواقعة كثير من بكر بن وائل الذين أعانوا الفرس فغضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا الاعاجم وصـاروا معهم يداً على حرب المسلمين واجتمعوا بأليس (٢) وقائدالجميع بهمن جاذويه فسار اليهم خالد وأوقع بهم وقعة كبيرة قتل فيها مقتلة عظيمة

ولما فرغ من أليس نهض الى امغيشياوهي بالقرب من اليس وكان فرات باذقلي ينتهي اليهفلما وصلها خالد امر بهدمها وكانت مصراً كالحيرة : لما علم الازاذبة مر زبان الحيرة بما كان من خالدفي امغيشياءلم انه غير متروك فتهيأ لحرب خالد وقدم ابنه امامه وكان ممـافعله أن فجر الانهار الآخذة من الفرات فقل الماء فيه حتى لم يعد يحمل السفن تسير فيه وكان خالدقدحمل الرحل في السفن مع الأنفال والأثقال فلم يفجأه الا والسفن جوانح فسأل عن السبب فاعلم به

---

(١) وهى فى الشمال من المذار من ارض كسكر
(٢) قرية من قرى الانبار

فتعجل خالد نحو بن الازاذبة حتى لقيه هو وجنده على فم فرات باذقلى فهزمهم وفجر الفرات وسد الانهار فسلك الماء سبيله ثم سار خالد حتى عسكر بالخورنق مشرفاً على الحيرة وأهلها متحصنون بقصورهم فحاصرهم خالد ولما رأى أهل الحيرة أن لاطاقة لهم بحرب خالد مالوا الى الصلح وأول من طلبه منهم عمرو ابن عبدالمسيح الملقب بيقيلة ثم تبعه بقية الرؤساء فصالحه على ١٩٠ الف درهم وأهدوا له هدايا فاعتدها من الجزية بأمر أبي بكر وكتب لهم خالد كتاباً هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عدي وعمرو بن عبد المسيح واياس بن قبيصة وحيرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به عاهدهم على ١٩٠ ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم الا من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركا لها وعلى المنعة وان لم يمنعهم فلاشيء عليهم حتى يمنعهم وان غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة(١) وكتب في شهر ربيع الاول من سنة ١٢ : ومما يستطرف ذكره أن رجلا من الاعراب اسمه شويل كان أسلم على يدى النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه ذات مره يبشر المسلمين بأن ستفتح عليهم قصور الحيرة فسأله أن يعطي من سبيهم كرامة بنت عبدالمسيح فقال له عليه السلام هي لك فلما أراد خالد صلحهم جعل من شروط الصلح أن يسلموا اليه كرامة فأعظم أهلها ذلك لخطرها فقالت لهم كرامة دعوه فانه رجل أحمق رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم فأسلموني له فاني سأفتدى منه

(١) يظهر أن هذه الجملة مدرجة فى الرواية لان التاريخ بالهجرة لم يكن الا أيام عمر

فلما وصلت إلى الرجل قالت ماأربك من عجوز كما ترى فادني قال لا الا على حكمي قالت ولك حكمك فقال فلست لام شويل أن نقصتك عن الف درهم فاستكثرت ذلك لتخدعه ثم أتته بها ورجعت لاهلها فتسامع الناس بذلك فعنفوه قال ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف فأبوا عليه الا أن يخاصمهم فقال كانت نيتي غاية العدد وقد ذكروا أن العدد يزيد على الف فقال خالد أردت أمراً وأراد الله غيره نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك . ولما صالح أهل الحيرة خرج صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف فصالحه على بانقيا وباروسما وضمن له ماعليهما وعلى ارضيهما من شاطيء الفرات على عشرة آلاف وكتب لهم كتابا هذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه اني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد بانقيا وباروسما جميعاً على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة : القوي على قدر قوته والمقل على قدر اقلاله في كل سنة وانك قد نقبت على قومك وان قومك قد رضوا بك وقد قبلت ومن معي من المسلمين ورضيت ورضى قومك فلك الذمة والمنعة فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا حتى نمنعكم)

ولما رأى دهاقين البلاد ماتم لخالد من الظفر أتوه فصالحوه على ما بين الفلاليج (١) الى هرمز جرد (٢) على ألفي الف درهم وكتب لهم بذلك كتاباً . ثم بعث خالد عماله ومسالحه منهم عمال الخراج لجبايته ومنهم

---

(١) فلالج السواد قراها واحدها فلوجة والفلوجة الكبرى والصغرى قريتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر (٢) ناحية من أطراف العراق

امراء الثغور : وكتب في مقامه بالحيرة كتابين أحدهما الى ملك فارس والآخر إلى مرزابة الفرس ورؤسائهم وصورة الاول — بسم الله الرحمن الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد الى ملوك فارس أما بعد فالحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شراً لكم فادخلوا فى أمرنا ندعكم وارضكم ونجوزكم الى غيركم والا كان ذلك وانتم كارهون على غلب على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة: وصورة الثاني —(بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد الى مرزابة فارس اما بعد فاسلموا تسلموا والا فاعتقدوا مني الذمة وادوا الجزية والا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر وكان اهل فارس فى ذلك الوقت فى ارتباك داخلي بشأن من يتولى الملك فيهم ولم يكن منهم فى ذلك الوقت الا المدافعة عن بهرسير وهي احدى المدائن التى سميت بها مدائن كسرى وكانت فى الغربي من دجلة امام الايوان الذى كان فى الجهة الشرقية منها : فلما جاءتهم كتب خالد ارادوا ان ينهوا امر اختلافهم فاختاروا رجلا يولونه الملك وليس من بيته الى ان يجدوا من آل كسرى من يولونه وهو الفرخذاذ بن البندوان

ولما استقام لخالد امره اراد ان يسير لاغاثة عياض بن غنم الذى ارسل ليفتح العراق من شماليه ويلتقى بخالد فاستخلف خالد على الحيرة القعقاع ابن عمرو وخرج حتى انتهى الى الانبار (١) وقد تحصن اهلها وخندقوا على انفسهم واشرفوا من اعالى الحصون فأمر خالد جنده ان يرشقوهم بالنبل ففعلوا واصابوا فى عدوهم ثم انتهى الامر بان طلب قائد جند

---

(١) مدينة على الفرات غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ

الانبار الصلح على ان يخليه ويلحقه بمأمنه فى جزيرة خيل ليس معهم من المتاع والاموال شيء فاجابه الى ذلك خالد وتسلم الانبار وصالح من حولها ثم استخلف عليها الزبرقان بن بدر وقصد عين التمر (١) وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من الفرس وعقة بن أبى عقة في جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب واياد ومن الفهم فلما سمعوا بقدوم خالد قال عقة لمهران أن العرب اعرف بقتال العرب فدعنا وخالداً فقال له صدقت لعمرى لانتم أعلم بقتال العرب وانكم لمثلنا فى قتال العجم فلزم مهران عين التمر وخرج عقة على تعبية يريد مقابلة خالد بالطريق فقدم عليه خالد في تعبية واقتتل الجندان فاسر خالد عقة ولم يكن الا قليل قتال حتى انهزم جنده ولما وصل خبر الهزيمة الى مهران هرب في جنده تاركا الحصن أما فل جند عقة من العرب والعجم فانهم رجعوا إلى الحصن واعتصموا به حتى جاءهم خالد فاستنزلهم من حصنهم بدون أمان وقتل معظمهم ووجد فى بيتهم اربعين غلاما يتعلمون الانجيل منهم نصير أبو موسي بن نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين وحمران مولى عثمان وغيرهم فقسمهم خالد في الناس وكان من عقب هؤلاء علماء أجلاء وجاء خالد وهو بمقامه كتاب من عياض بن غنم يستنجده وهو محاصر دومة الجندل وأهلها محاصروه فأرسل اليه خالد هذا الكتاب :

من خالد إلى عياض اياك أريد

وهو أخصر كتاب فيما نعرف : ثم سار إلى دومة وقد تجمعت بها طوائف كثيرة من العرب المتنصرة ولما بلغهم دنو خالد قال لهم احد رئيسيهم

(١) بلدة قريبة من الانبار غربى الكوفة وهي على طرف البرية

أكيدر بن عبد الملك أنا اعلم الناس بخالد لا أحد ايمن طائرا منه ولا احد في حرب ولا يرى وجه خالد قوم ابداً فلوا او كثروا الا انهزموا عنه فأطيعونى وصالحوا القوم فأبوا عليه فقال لن امالئكم على حرب خالد فشأنكم فخرج لطيته وقد قتل في خرجته هذه ثم سار خالد حتى نزل بدومة وعلى من فيها الجودى بن ربيعة ورؤساء القبائل التى جاءت لنجدتهم فناهدهم خالد بجنوده هو من جهة وعياض من جهة فكانت الهزيمة على اهل دومة ولم ينج منهم من القتل الا بنى كلب لانهم كانوا حلفاء تميم فأجارهم عاصم بن عمرو التميمي وبعد ان اقام خالد قليلا عاد الى الحيرة لما بلغه من تحرك العجم لاعادة الكرة على المسلمين وارسل سريتين الى الحصيد (١) والخنافس فاوقعت بمن تجمع بهما من العدو ثم سار خالد حتى اتى المصيح وهناك وافته سراياه كما امر فكانت لهم واقعة مع العرب المتجمعين هناك اذاقوهم فيها نكالا ثم كانت له وقائع بالثنى (٢) والزميل ثم في الفراض وهي تخوم مابين الشام والعراق والجزيرة وكان ذلك فى رمضان وفى الفراض اجتمع عليه الروم والفرس والعرب فانتصر عليهم خالد جميعاً وكانت هذه الواقعة في منتصف ذى القعدة ثم اقام بها عشراً وبعد ذلك اذن في الرجوع الى الحيرة لخمس بقين من القعدة سنة ١٢ وامر عاصم بن عمرو ان يسير بالجند واظهر انه فى الساقة ولكنه خرج من الفراض حاجاً معه عدة من اصحابه يعتسف البلاد حتى اتى مكة بالسمت

(١) موضع فى اطراف العراق من جهة الجزيرة والخنافس قرب الانبار تقام فيه سوق للعرب

(٢) موضع بالجزيرة قرب الرصافة و بقربه الزميل

فتأتى له من ذلك مالم يتأت لدليل اوريبال فما توافي الى الحيرة آخر جنده حتى وافاهم مع صاحب الساقة فقدما معا وخالدواصحابه ملحقون لم يعلم بحجة الا من افضى اليه بذلك من الساقة ولم يعلم ابو بكر بذلك الا بعد فعتب عليه ووافاه كتاب ابى بكر بصرفه الى الشام منصرفه من حجه الى الحيرة وهذا هو الكتاب الذى ارسله اليه ابو بكر « سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا واشجوا وإياك ان تعود لمثل مافعلت فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ولن ينزع الشجي من الناس نزعك فليهنئك ابا سليمان النية والحظوة فاتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل واياك ان تدل بعمل فان الله له المن وهو ولى الجزاء »

كانت مدة خالد بالعراق سنة وشهرين من المحرم بدء السنة الثانية عشرة الى صفر من سنة ١٣ وقد فعل فى هذه السنة مالم يفعله قائدجيش : اقتطع من بلاد العجم حوض نهر الفرات من شمالى الابلة الى الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات وصادم جنود الفرس والعرب والروم فى عدة مواقع لم يقهر فيها مرة وكان اسمه يسبقه الى كل موقعة اراها وكان في كل عمله فاتحاً لامغيراً فانه كان يعد حماة طريقه ليأمن ان يؤتى من خلفه وكان اذا افتتح بلداً اقام فيه اميراً من قبله ينظر شؤونه وآخر يجبي الخراج من اهل الذمة ومن احسن مايؤثر عنه انه لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء بل كان يعاملهم بالرأفة ويمنعهم من عدوهم حتى صاروا يفضلون حكمه على حكم الفرس الذين كان عظماؤهم يستعبدونهم ويذلونهم وعلى نسبة رأفته بهؤلاء كانت شدته على المقاتلين واهل الحرب وكان لايصبر عن الميدان

اذا رأى الجنود ينظر بعضها بعضاً بل سرعان مايخرج طـالباً رئيس القوم للمبارزة وفيها القضاء على خصمه فلا يطول أمر الحرب بعـده . وعلى الجملة فهذه السنة كانت لخالد غرة فى جبين تاريخه ومما يبين عظيم علمـه ماقاله الهيثم البكائي.قال: كانأهل الايام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذى يبلغهم ويقولون ماشاء معاوية نحن أصحاب ذات السلاسل (وهيأول واقعة بين خالد والفرس) ويسمون مابينها وبين الفراض مايذكرون ما كان بعـد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل

غزو الروم

كان إرسال الجيوش لافتتاح بلاد الشام متأخراً عن أرسال خالد لافتتاح العراق فان أبا بكر فى أواخر سنة ١٢ من الهجرة اختار من قوادالمسلمين أربعة من كبار القواد وهم عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة والثلاثة الاولون قرشيون والرابع قحطاني وتخير لكل منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير بجنده من طريق سماها له وعين لكل منهم الولاية التى يتولاها بعد الفتح فجعل لعمر فلسطين وليزيد بن أبي سفيان دمشق ولابى عبيدة حمص ولشرحبيل الاردن فسارت هذه الجيوش من الطرق التى عينها لهم يتبع بعضهم بعضاً وكان عدد جميع الجنود التى سيرت قبل ان يأتيهم مدد خالد بن الوليد ستة وثلاثين الفاً

لما علم الروم بمسير الجنود الاسلاميـة اليهم اهتم بالامر هرقل وكان نازلا بحمص وكـان قد علم تفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فاراد

أن يقاتلهم متفرقين لان العدد عنده كثير فيمكنه أن يشغل كل أمير بإضعاف مامعه ولما علم بذلك الرؤساء الاربعة تكاتبوا وسألوا عمرو بن العاص ما الرأي؟ فراسلهم أن الرأى الاجتماع وذلك أن مثلنا اذا اجتمع لم يغلب من قلة واذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن فيه لاحد ممن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا فاستحسنوا الرأى واتعدوا اليرموك (١) ليجتمعوا به وكتبوا الى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرواً فجاءهم كتابه بمثل رأى عمرو وأمرهم ان يجتمعوا باليرموك متساندين وان يصلى كل رجل بأصحابه. بلغ ذلك هرقل فكتب الى قواده ان اجتمعوا فاجتمعوا ونزلوا بالروم منزلا واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فنزلوا الواقوصة (٢) وهي على ضفة اليرموك وصار الوادى خندقا لهم وهو لهيب لايدرك وقدأراد رؤساء الروم ان تستفيق الجنود ويأمنوا بالمسلمين وترجع اليهم افئدتهم عن طيرتها وقد وافتهم الجنود الاسلامية هناك فنزلوا بحذائهم على طريقهم وليس للروم طريق الا عليهم فصاروا كأنهم محصورون ودام الامر على ذلك صفر من سنة ١٣ وشهرى ربيع لايقدرون من الروم على شيء ولا يخلصون اليهم اللهب وهو الواقوصة من ورائهم والخندق من امامهم وكان المسلمون استمدوا أبابكر فى شهر صفر فكتب إلى خالد ليلحق بهم وأمره أن يخلف على العراق المثنى بن حارثة فخرج بمن استخلص من جند العراق وهم نحو عشرة آلاف وسار سيراً حثيثاً حتى وجي فرسه وصادف قدوم خالد أن قدم مدد عظيم على الروم وكانت عدة

---

(١) واد فى طريق الغور يصب في نهر الاردن

(٢) واد فى أرض حوران

جنود الروم على ماحكاه الطبرى ٢٤٠ ألفاً

جاء خالد فوجد المسلمين يقاتلون متساندين أى أن كل أمير يحرك جنوده مستقلا عن غيره وقد علم أن الروم قدعزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى فجمع الامراء وخطب فيهم قائلا إن هذا يوم من أيام الله لاينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم فان هذا يوم له مابعده ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية وأنتم على تساند وانتشار فان ذلك لايحل ولا ينبغي وإن من ورائكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأي من واليكم ومحبته ،قالوا فهات فما الرأي قال ان أبابكر لم يبعثنا الا وهو يرى أنا سنتياسر ولو علم الذي كان ويكون لكان قدجمعكم إن الذى انتم فيه أشد على المسلمين مما قدغشيهم وأنفع للمشركين من امدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لاينتقصه منه ان دان لاحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليه أن دانوا له ان تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله هلموا فان هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له مابعده ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها فهلموا فلنتعاود الامارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعدغد حتى يتأمر كلكم ودعوني اليكم اليوم فأمروه فعبى خالد الجيش تعبيــة لم تعبها العرب قبل ذلك قسم الجيش الى ثمانية وثلاثين كردوسا (فرقة) رتب القلب ١٨ كردوسا وأقام فيه أباعبيدة وجعل الميمنة ١٠ كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة ١٠ كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل لكل كردوس

رئيسا يأتمر بأمر رئيس الميمنة أو الميسرة أو القلب وكان كل كردوس يزيد قليلا عن الالف وجعل للجيش قاصا يذكرهم وكان القاص أبا سفيان بن حرب فكان يقف على الكراديس ويقول الله الله انكم ذادة العرب وأنصار الاسلام وأنهم ذادة الروم وأنصار الشرك اللهم ان هذا يوم من ايامك اللهم أنزل نصرك على عبادك . وقال رجل لخالد ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد ما أقل الروم وأكثر المسلمين انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال والله لوددت ان الاشقر براء من توجيه وانهم اضعفوا في العدد (الاشقر فرسه)

وخرجت الروم فى تعبية لم ير مثلها فامر خالد مجنبتى القلب ان ينشبا القتال وكان فيهما عكرمة بن ابي جهل والقعقاع بن عمر ففعلا وكان القعقاع يرتجز :

يا ليتنى القاك في الطراد قبل اعتزام الجحفل الوراد
وانت فى حلبتك الوراد

ويرتجز عكرمة :

قد علمت بهكنة الجواري اني على عكرمة احامى

وكانت هذه الاراجيز لهم تقوم الموسيقى في تشجيع القلوب

نشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان : وأمر خالد بالزحف العام ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجلهم وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب فلما وجدت خيلهم مذهبا ذهبت وتركوا رجلهم فى مصافهم وخرجت خيلهم تشتد بهم في الصحراء ولما رآها المسلمون كذلك

أفرجوا لهـا ولم يحرجوها فذهبت فتفرقت في البلاد وأقبـل خالد ومن معـه على الرجـل فكأنمـا هدم بهم حائط فاقتحموا في خنـدقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا الى الواقوصة من ورائهم حتى هوى فيها كثير منهم فتهافت فيها على مايقول الطبري ١٢٠ ألف سوى من قتل بالمعركة من الخيـل والرجل وكان القتال قد استمر طول النهار ومعظم الليل وأصبح خالد وهو في رواق رئيس جند الروم

وكان لكثير من فرسان المسلمين في ذلك اليوم القدح المعلى في الثبات والصبر منهم عكرمة بن أبي جهـل فانه كان يقول قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفر اليوم ثم ينادي من يبايع على الموت فيبايعه أرباب النجدة من وجوه المسـلمين وفرسانهم فقاتلوا جميعاً قدام فسطاط خالد وهو في وسط القلب حتى أثبتوا جميـعاً جراحاً وقتـلوا الامن برأ منهم وأتى خالد عند الصبح بعكرمة جريحـاً فوضع رأســه على فخـذه وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر فى حلوقهما المـاء ويقول كلا زعم ابن الحنتمة أنا لانستشهد (يريد عمر) وقاتل النسـاء فى ذلك اليوم فى جولة وقتل من المسلمين فى اليرموك نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من الوجوه والفرسان

ولما بلغ خبر هـذه الموقعة هرقل وانهزام نخبة جيوشه هذه الهزيمة المنكرة وهودون حمص ارتحل فجعل حمص بينه وبين الجنود الاسلامية وقال سلام عليك ياسوريا سلاما لالقاء بعده

فى أثناء الموقعة جاء بريد المدينة وفيه خبر وفاة أبي بكر وخلافة عمر ابن الخطاب وعزل خالد عن امارة الجيش وتولية أبي عبيـدة قائداً عاما مكانه فأخـذ خالد الكتاب وأسره الى أبى عبيدة ولم يذعه لئـلا تهن به قوة الجنود وأخذ الكتاب فوضعه في كنانته حتى انتهت الموقعة بهذا النصر فسلم الكتاب إلى أبي عبيدة وسلم عليه بالامارة ومما يؤثر عن خالد فى هذا اليوم قوله : الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت وكان أحب الى من عمر . والحمد لله الذي ولى عمر وكان أبغض الى من أبى بكر ثم ألزمنى حبه

جيش عدته أربعون الفا يغلب جيشا فيه خمسة أمثاله لابد أن يبحث فيـه عن سبب ذلك الفوز والعدد الـكبير مدرب على الحروب وخوض المامع وكان قريب عهد بالانتصار على الجنود الفارسية .يقولون أن ارتباك الدول التي حاربها المسلمون كان سببا فى فوزهم هذا الفوز السريع : كان يمكن أن يكون هذا سببا لو كانت الارتباكات منعت تلك لدول عن حشد الجنود ومساعدة الثغور فكان فى ذلك فرصة لمن يغزوهم أما وقـد حشدوا ذلك العدد الجسيم مسلحا منظما معبئا أعظم تعبية فلابد أن يكون هناك سبب وراء العدد والعدد ذلك أن الجندى المسلم كان يخوض هذه المعامع وقلبه متأثر بأمرين الاول :ثقته بأن العاقبة له لما قرأه من الـكتاب وما سمعه من الرسول عليه الصلاة والسلام من التبشير بهذه الفتوح العظيمة : وهذه الثقة فى قلبه بمنزلة مدد من الله يؤيده . الثاني أنه واثق بالعاقبة فى الأخرى فهو إن قتل كان شهيداً عاقبته الحسنى وزيادة وان

ظفر كان ذلك خيراً فهو يرجو إحدى الحسنيين إماموت بعده سعادة، إما فوز فيه فخر الدنيا وإسعاد دينه أضف الى ذلك ماوفقوا اليه من هؤلاء القوادالعظماء الذين أعجزوا من من بعدهم أن يقدم أقدامهم وقليل كانت أمثالهم فى تاريخ الشرق فرحم الله خالداً فقد كان زينة فى تاريخ أبي بكر:

والى هنا انتهت الاعمال الكبرى التى حدثت بين المسلمين وبين دولتىالروم والفرس فى أيام أبى بكر وقطبها خالد بن الوليد المخزومى

يظهر لنا هذا التاريخ القصير الذى لم يستمر أكثر من سنتين وأربعة أشهر ماوصفنا به أبابكر من صدق العزيمة ومضائها

إدارة البلاد فىعهد أبى بكر

كانت الجزيرة العربية هي البلاد التى تحت الادارة الاسلامية نهائياً وكان ابو بكر قد جزأها الى ولايات وعلى كل ولاية أميرمن قبله وكان لهذا الامير اقامة الصلاة والفصل فى القضايا وإقامة الحدود فهو أمير قاض منفذ لان ابا بكر لم يعين قضاة يتولون القضاء دون الإمراء وهذه ولايات الجزيرة لعهده:

(١) مكة واميرها عتاب بن اسيد وهو الذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٢) الطائف واميرها عثمان بن ابي العاص وهو الذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٣) صنعاء واميرها المهاجر بن أبى امية وهو الذى ولى فتحها بعد الردة

(٤) حضر موت وواليها زياد بن لبيد

(٥) خولان وواليها يعلي بن امية

(٦) زبيدوزمع وواليها ابو موسى الاشعرى

(٧) الجند واميرها معاذ بن جبل

(٨) نجران وواليها جرير بن عبدالله البجلي

(٩) جرش وواليها عبد الله بن ثور

(١٠) البحرين وواليها العلاء بن الحضرمى

اما العراق والشام فكانت لاتزال الحروب قائمة فيها وكان امراء الجند هم ولاة الامر فيها

ولم يكن لابى بكر وزير وانما كان عمر يلى القضاء وابو عبيدة امينا لبيت المال قبل ان يسيره الى الشام

وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الاخبار عثمان بن عفان وكان يكتب له من حضر وفي عهده كتب القرآن لأول مرة فى مصحف واحد يجمع سوره كلها وكان قبله محفوظاً مرتباً في الصدور ومكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة فلما حصلت حروب الردة وكان قد قتل فيها كثير من القراء رأى أبو بكر أن يجمع القرآن في مصحف واحد واختار لذلك كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد القراء الذين كانوا يستظهرون القرآن وهو زيد بن ثابت فقام بالامر وكتب أول مصحف بملأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والحفاظ منهم ووضع هذا المصحف عند أبي بكر

رزق الخليفة

كان أبو بكر رجلا تاجراً قبل أن يستخلف واشتغل بالتجارة بعد الخلافة ستة أشهر ثم وجد أن التجارة تشغله عن أمور الناس فقال لا والله ماتصلح أمور الناس التجارة وما يصلحهم الا التفرغ لهم والنظر فى شأنهم ولا بد لعيالى ما يصلحهم فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين مايصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم وكان يحج ويعتمر وكان الذى فرضوه له في السنة ستة آلاف درهم (— بالتقريب ١٢٨ جنيهاً مصريا) ولما حضرته الوفاة قال ردوا ماعندنا من مال المسلمين فانى لاأصيب من هذا المال شيئا وان أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم فدفع ذلك الى عمر فقال عمر لقد أتعب من بعده . فمن هذا يفهم ان المبدأ الذى اختطه ابو بكر هو ان الخليفة لاينبغي ان يشغله شيء من التجارات عن النظر فيما وكل اليه من امور العامة وانه يأخذ مايفرض له من بيت المال والظاهر أن الفرض لغيره وليس هو الذى يفرض لنفسه وكأن هذا المأخوذ فيه شبهة فى نظر أبى بكر فأمر برده الى بيت المال

ارزاق الجند

كان الجند متطوعين لايجمعهم ديوان وكانوا يأخذون اربعة اخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيس الجند غير ماينااله القاتل من سلب القتيل وغير ماينفله رئيس الجند للممتازين وكان ابو بكر يسوى في العطاء لايفضل احداً على احد

ارزاق العمال

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم وصدقات المسلمين وجزية اهل الذمة

ومن ذلك كان يعطي العمال ارزاقهم ويوزع مابقى على من عينوا في الكتاب لمصارف الزكاة

وفاة ابى بكر

حم ابو بكر لسبع خلون من جمادى الاخرة سنة ١٣ ومكث محموماً ١٥ يوما وتوفي فى مساء ٢١ جمادى الاخرة سنة ١٣ (٢٢ اغسطس سنة ٦٣٤) فكانت مدته سنتين و ثلاثة اشهر وعشر ليال ودفن فى حجرة عائشة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم يميل عنه قليلا الى الجهة الشرقية



المحاضرة الحادية والعشرون

كيف انتخب عمر — ترجمته — أول خطاب له — الفتوح فى بلاد الفرس

بدء القادسية

٢ ﴿ عمر بن الخطاب ﴾

كيف انتخب

لما مرض أبو بكر وأحس بدنو أجله رأى مصلحة المسلمين فى ان ينتخب خليفتهم قبل موته وذلك ما يعبرعنه بولاية العهد وكانوا يحسون دائما بان كثيرين يرون أنفسهم أهلا للخلافة وهم أحق بها فاذا ترك الناس من غير عهد انتثر عقد نظامهم وكان يرى عمر بن الخطاب اجدر الناس بالخلافة ولكنه أحب ان يستشير فيه كبار الصحابة فدعا بعبد الرحمن بن عوف وقال أخبرنى عن عمر فقال ياخليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة فقال أبو بكر ذلك لانه يرانى رقيقاً ولو أفضى الامر اليه لترك كثيراً مما هو عليه ويا أبا محمد قد رمقته فرأيتنى إذا غضبت على الرجل في شيء أراني الرضا عنه وإذا لنت له أرانى الشدة عليه لاتذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئاً قال نعم ثم دعا عثمان بن عفان فقال يا أبا عبد الله اخبرني عن عمر قال أنت اخبر به فقال أبو بكر على ذاك يا أبا عبد الله قال اللهم علمي

به أن سريرته خير من علانيته وان ليس فينا مثله قال أبو بكر رحمك الله يا أبا عبد الله لاتذكر مما ذكرت لك شيئاً قال افعل فقال له أبو بكر لو تركته ما عدوتك وما أدري لعله تاركه والخيرة له ألا يلى من أموركم شيئاً ولوددت أنى كنت خلواً من أموركم وأنى كنت فيمن مضى من سلفكم

ولما تم له الرأى دعا عثمان بن عفان فأملي عليه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة الى المسلمين أما بعد) — ثم أغمى عليه فكتب عثمان — (فاني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً) ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ على فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلت في غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيراً عن لاسلام وأهله واقرها ابو بكر من هـذا الموضع قال الطبرى ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم أترضون بمن استخلف عليكم فاني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة واني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا سمعنا وأطعنا

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادي الثانيـة سـنة ١٣ هـ (٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤ م)

ترجمة عمر

هو عمر بن الخطـاب بن نفيل من بنى عدى بن كعب بن لؤى وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بنى مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم . تربى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق لايرى فيه هوادة فلما تشرف رسول الله بالرسالة كانت

سنه ٢٧ سنة ولما دعي الى الاسلام لم يكن فى بدء أمره مقتنعاً بصحة الرسالة فحارب الاسلام حرباً شديداً حتى كان ينال المسلمين منه أذى كثير حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الاذى ومفارقة الاوطان فكان ذلك مما دعاه الى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح فآمن وصدق وذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الارقم بن أبى الارقم المخزومي التى كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن ايمانه فكانت به للمسلمين قوه وذهب الى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الاسلامي وهناك أصابه من اذى المشركين ما كان يصيب اخوانه وكادوا يقتلونه لولا ان اجاره منهم العاصى بن وائل السهمي ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون متسللين خيفة ان يحبسهم أهلوهم أما هو فاعلن انه مهاجر وقال من أراد ان تشكله أمه فليلقني وراء هذا الوادى ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها فلم يتخلف عن واحدة منها وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن موافقاً لما اشار وكان هو وابو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاهره عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد ان قتل عنها زوجها : ولما لحق عليه السلام بربه كان لعمر اكبر الفضل فى الاسراع ببيعة ابي بكر قطعاً للنزاع فى امر الخليفة وخوفا ان يتشتت الامر وكان لابى بكر بمنزلة لوزير الاول يشير عليه ويعينه وكان ابو بكر يحيل عليه فصل القضايا فكأنه كان قاضيه وإن لم يتسم باسم القاضى وقد افادته صحبة ابي بكر الاناة في الامور وكثيراً غيرها

أول خطاب له

بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهي تنبىء عن سياسته التي ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله واثني عليه (إنما مثل الجمل كمثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لاحملنكم على الطريق) والجمل الانف هو الجمل الذليل المواتي الذى يأنف من الزجر والضرب ويعطي ماعنده من السير عفواً سهلا وهذا تشخيص حسن للامة الاسلامية لعهده فانها كانت سامعة مطيعة اذا أمرت ائتمرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسئولية الكبرى على قائدها بانه يجب عليه أن يتبصر حتى لايوجه هذه الامة الى مافيه خطر عليها بل يتخير لها أسلس الطرق وأسهلها ولذلك وعدهم مقسما فقال أما أنا فورب الكعبة لاحملنكم على الطريق ويفهم بالبداهة أنه الطريق الاقوم الذى لا اعوجاج فيه والعرب من شأن لغتها الاكتفاء بدلالات الاحوال

الفتوح في عهد عمر

في بلاد الفرس

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد الى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيباني ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهي دار امارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهريراز فوجه الى المثنى والتقى به عند بابل وأوقع بهوقعة شديدة انهزم فيها بهمن وجنده وتتبع الطالب الفل الى قرب المدائن ثم عاد المثنى الى الحيرة وأبطأت

عليه أخبار أبي بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعاً لا يقدر على مقاومتها
تخلف على الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين
وأعدائهم وليستأذنه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة
وليخبره انه لم يخلف احداً انشط الى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين
منهم فقدم المثنى وابو بكر في مرضه الاخير فاستدعى عمر فقال له استمع
ياعمر ما أقول لك ثم اعمل به اني لارجو ان اموت من يومي هـذا فان انا
مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت
عن امر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتني متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وماصنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو اني أني عن امر الله وامر رسوله لخذلنا
ولعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً وان فتح الله على امراء الشام فاردد اصحاب
خالد الى العراق فانهم اهله وولاة امره وحده واهل الضراوة بهم والجراءة
عليهم . ومات ابو بكر من يومه فبعدما دفنه عمر ندب الناس مع المثنى وقال
عمر كان ابا بكر قد علم انه يسوءني ان اؤمر خالداً على العراق حين امرني
بصرف اصحابه وترك ذكره . كان الناس يحجمون عن الخروج الى فارس
لما في انفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثنى فقال ايها الناس
لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي
السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله مابعدها
وقال لهم عمر ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى عليه اهله
الا بذلك اين الطراء (١) المهاجرون عن موعود الله سيروا في الارض التي

(١) الطراء الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد

وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها فانه قال (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولى أهله مواريث الأمم أين عباد الله الصالحين — فكان أول منتدب للمسير أبو عبيد بن مسعود الثقفى ثم قفاه رجلان سعد بن عبيد وسليط بن قيس فأمر عمر على هؤلاء المنتدبين أسبقهم اجابة وهو أبو عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فانها الحرب والحرب لا يصلحها الا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف . فسار أبو عبيدة بالجند وهو الامير حتى بلغ الحيرة — كان الفرس فى ذلك العهد قد ولوا عليهم آزرميدخت ملكة واختارت هى رستم أحد عظماء الفرس قائداً عاماً لجنود الفارسية فدانت له الفرس عقب ورود أبي عبيد

كان أول ماصنعه رستم أن كتب الى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ودس فى كل رستاق رجلا ليثور بأهله وكان ممن أرسله جابان ونرسى من القواد فأثاروا الناس من أعلى الفرات إلى أسفله واجتمع جند عظيم قام فى النمارق (١) لما رأى ذلك المثنى ضم اليه مسالحه وحذر وحينما جاء أبو عبيد أراح الجند قليلا ثم سار الى النمارق فحارب جابان ومن معه وهزم جنده وأسر جابان أسره رجل من عامة العرب من ربيعة فقال له جابان إنكم معاشر العرب أهل وفاء فهل لك أن تؤمنني وأعطيك كذا وكذا قال نعم قال فأدخلني على ملككم حتى يكون ذلك بشهد منه ففعل فاجاز ابو عبيد مافعل الربعي ولما علم القوم أنه الرئيس كلموا فيه أباعبيد فقال ماترون في أعلا معاشر

---

(١) موضع قريب من الكوفة من أرض العراق

ربيعة أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا معاذ الله مالزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم

لما انهزم الفرس ذهبوا إلى كسكر (١) لاجئين الى نرسى فاجتمع اليه الجند الذين معه وفل جابان فتبعهم ابو عبيد والتقي بهم أسفل من كسكر فهزمهم وغلب على عسكر نرسى وأرضه وأخرب ما كان حول معسكرهم من كسكر : وهناك جاءه الدهاقين مسالمين فسالمهم وجاؤوه بهدايا من أطعمة فارس وألوانها فلم يأكل منها وقال بئس المرء ابو عبيد إن صحب قوما من بلادهم اهرقوا دماءهم دونه أو لم يهرقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم الا مثل ما يأكل اوساطهم

لما جاء رستم خبر الهزيمة جهز جيشاً آخر عظيما يقوده بهمن جاذويه واعطاه الراية الكبرى لفارس المسماة درفش كابيان وعرضها ثمانية اذرع وطولها اثنا عشر متراً من جلود النمر فسار اليه ابو عبيد حتى نزل المروحة (٢) موضع البرج والعاقول فبعث اليه بهمن اما ان تعبروا الينا وندعكم والعبور واما ان تدعونا نعبر اليكم فأشار الناس على ابي عبيد بعدم العبور فلج وترك الرأى وعبر بالمسلمين فدارت رحا الحرب وفى آخر النهار قتل ابو عبيد فجال المسلمون جولة ثم تموا عليها وركبهم أهل فارس فبادر رجل من ثقيف فقطع الجسر فانتهى الناس اليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا في الفرات

« ١ » كورة واسعة كانت قصبتها قبل أن يحضر الحجاج واسطا خسر وسابور ثم صارت واسط قصبتها ومن مشهور نواحيها المبارك والمدار ونفيا وميسان ودست ميسان (٢) على شاطىء الفرات الغربي تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة

الفرات فأصيب منهم يومئذ أربعة آلاف بين غريق وقتل وحمي المثنى ومن معه الناس وعقد الجسر وعبروا فأقاموا بالمروحة وهرب من النـاس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا فى انفسهم واستحيوا مما نزل بهم

وبلغت هذه المصيبة عمر فقال اللهم ان كل مسلم فى حل منى أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف او تحيز الينا ولم يستقل لكنا له فئة وحصل فى هذه الواقعة غلطتان الاولى مخالفة أبي عبيد لمن معه من رؤساء الجيش فانهم نهوه عن العبور فلم ينته والذي زاد تلك الغلطة تأثيراً مافعله ذلك الرجل الاحمق عبد الله بن مرثد الثقفي من قطعه الجسر عند مارأى جولة المسلمين وارادتهم العبور ولولا ثبات المثنى بن حارثة لهلك المسلمون عن آخرهم

لم يبق مع المثنى من الجنود الا القليل لاقدرة لهم على ان يحافظوا على مراكزهم ولا ان يردوا عنهم هجمات عدوهم وقد علم بذلك عمر فشرع يبعث الامداد الى المثنى منهم جرير بن عبد الله البجلى فى قومه من بنى بجيلة فلما علم المثنى بقدومهم طلب منهم أن يسيروا اليه حتى يقابلوه على البويب (١) وتقدمهم هو اليه فساروا اليه وكان رستم قد أرسل الى المسلمين جنـداً مع قائد اسمه مهران فوقف امامهم ويفصل بين الفريقين الفرات فارسل مهران الى المثنى يخيره بين أن يعبر بجنـوده أو يعبر مهران اليـه وكان الجواب طبعاً ان طلب من مهران العبور لان واقعـة الجسر لم يمح أثرها بعد فعبر الفرس واقتتلوا مع المسلمين وكان ذلك في رمضـان وقد أمر المثنى

(١) نهر كان بالعراق موضع الكوفة ياخذ من الفرات

بالاقطار فافطروا وكانت تعبية الحبش خالدية فابصر المثنى رجلا يستوفز ويستنتل من الصف فقال ما بال هـذا قالوا هو ممن فر يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل فقرعه بالرمح وقال لا أبالك الزم موقفك فاذا أتاك قرنك فاغنه عن صاحبك ولا تستقتل قال اني بذلك لجدير فاستقتل ولزم الصف وكانت الحرب في هذه الموقعة من أشد ما صادفه المسلمون هولا لكثرة عدوهم ولكنهم اصطبروا صبراً جميلا وكانت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفني قلب جنودهم ولما شرعوا في الهزيمة سبقهم المثنى الى الجسر فقطعه فارادوا العبور فلم يمكنهم فذهبوا في البلاد مصعدين ومنحدرين بعد أن قتل منهم ما قدر بمئة الف ومما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه في قطعه الجسر واحراجه العدو قال لقد عجزت عجزة وقي الله شرها بمسابقتي اياهم الى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم فانى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس فانها كانت مني زلة لا ينبغي احراج أحد الا من لا يقوى على الامتناع : ثم أرسل المثنى في أثر المنهزمين من اتبعهم الى أن وصلوا الى السيب (١) بعد أن عقد لهم جسراً : وكانت هذه الواقعة من الوقائع الكبرى التي أوقعت الرعب في قلوب أهل فارس حتى سار المسلمون فيما بين الفرات ودجلة لا يمنعهم مانع ولا يقف في وجوههم محارب

وأقام المثنى بعد ذلك يصعد ويصوب فى الجزيرة ويبث السرايا للاغارة. ومما يدل على تنبه عمر لما كان يحصل بين أولئك الجنود أن المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل فى جند فأغاروا على صفين وبها النمر وتغلب متساندين

« ١ » كورة من سواد الكوفة وهما سيبان الاعلى والاسفل من طسوج سورا

فأغاروا عليهم حتى رموا بطائفة منهم في الماء فناشدوهم فلم يقلعوا عنهم وجعلوا ينادونهم الغرق الغرق وجعل عتيبة وفرات البكريان يذمران الناس وينادونهم تغريق بتحريق يذكرونهم يوماً من أيامهم في الجاهلية أحرقوا فيه قوماً من بكر بن وائل في غيضة من الغياض ثم انكفؤا راجعين الى المثنى وقد غرقوهم : كانت لعمر عيون في كل جيش فكتب العين الى عمر بما قال عتيبة وفرات يوم بنى تغلب والماء فاستقدمهما عمر فسألهما فاخبراه أنهما قالا ذلك وجه أنه مثل وأنهما لم يفعلا ذلك على وجه طلب ذحل الجاهلية فاستحلفهما فحلفا انهما ما أراد بذلك الا المثل واعزاز الاسلام فصدقهما وردهما حتى قدما على المثنى

أمر القادسية (١)

نظر الفرس بعد هزيمة مهران الى انفسهم فوجدوا أنفسهم يضعفون أمام العرب ورأوا أن الاختلاف الذى هم فيه مما ساعد العرب على تقدمهم وانتصاراتهم فقالوا لرستم والفيرازن وهما عظيما فارس والمستنافان في أمر سلطانها أين يذهب بكما لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتم أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وانه لم يبلغ من خطركما أن تقركما فارس على هذا الرأى وان تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت الا المدائن والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل ان يشمت بنا شامت فرأى الرجلان ان كلام القوم حق فبحثا فى كل نساء كسرى وسراريه عن عقب له بينهن فبعد لأى وجدا رجلا يدعى يزدجرد

(١) بينها وبين الكوفة ١٣ فرسخا وبينها وبين العذيب أربعة أميال وهى على جادة الكوفة

من ولد شهريار بن كسرى وهو ابن احدى وعشرين سنة فلكه الفرس واجتمعوا عليه وتبارى الرؤساء في طاعته ومعونته وحينئذ سمي الجنود لكل مسلحة كانت لكسرى أو موضع ثغر فسمى جند الحيرة والانبار والمسالح والابلة. بلغ المثنى ذلك كله فكتب به إلى عمر ولم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد فخرج المثنى على حاميته حتى نزل بذى قار (١) ثم جاءهم كتاب من عمر يأمرهم بالانسحاب من بين أظهر الاعاجم والتفرق في المياه التى تلى حدود بلادهم فكان منزل المثنى ذا قار ونزل الناس بالجل (٢) وشراف (٣) إلى غضى وغضى حيال البصرة وكانوا بحيث يغيث بعضهم بعضاً ان كان فزع تم ذلك في ذي القعدة سنة ١٣

أما عمر فكتب الى عمال العرب على الكور والقبائل في ذى الحجة سنة ١٣ لاتدعو أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي الا انتخبتموه ثم وجهتموه الى والعجل العجل وكان يريد توجيه جيش كثيف إلى العراق حتى يقاتل جموع العجم بجموع العرب فأما القبائل التي طرقها على مكة والمدينة فوافته بالمدينة وكذلك من كان من أهل المدينة على النصف ماينه وبين العراق وأما من كانوا أسفل منهم فانضموا إلى المثنى فلما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعي صرار (٤) فعسكر به

«١» ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط
«٢» موضع بالبادية على جادة طريق القادسية الى ذبالة بينه وبين القرعاء ١٦٠ ميلا
«٣» بين واقصة والقرعاء ومن شراف الى واقصة ميلان
«٤» موضع على ثلاثة أميال من المدينة من طريق العراق.

ولا يدري الناس مايريد أيسير أم يقوم وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى فى أمارة عمر رديفا والرديف الرجل الذي يكون بعد الرجل فاذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب فقال عثمان لعمر ماتريد فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس عليه فأخبرهم الخبر وانتظر مايقول الناس فقالت العامة سر وسر بنا معك فدخل معهم فى رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه فى رفق فقال أستعدوا وأعدوا فاني سائر الا أن يجيء رأي أمثل من هذا ثم بعث الى أهل الرأي فاجتمع اليه وجوه الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعا على أن يبعث رجلا من اصحاب رسول الله صلى عليه وسلم ويقيم ويرميه بالجنود فان كان مايرجو من الفتح وإلا عاد رجلا وندب جنداً آخر فنادى عمر الصلاة جامعة وبعث الى على وكان قد خلفه على المدينة والى طلحة وكان على مقدمته ولما تكامل جمعهم قال لهم ان الله قد جمع على الاسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخوانا والمسلمون فيما بينهم كالجسد لايخلو منه شيء من شيء اصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين ان يكون امرهم شورى بينهم بين ذوى الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الامر مااجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن اقام بهذا الامر تبع لاولى رأيهم مارأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة فى حرب كانوا فيه تبعاً لهم ايها الناس اني انما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت ان اقيم وابعث رجلا وقد احضرت هذا الامر من قدمت ومن خلفت (يريد علياً وطلحة) وهذا

الخطاب يبين ماكان يدور فى رأس عمر من النظام الشورى ويوضح الاساس لذلك النظام . ثم اجال معهم الرأي فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم واتفق الرأى اخيراً على تولية القائد العظيم سعد بن ابي وقاص الزهرى القرشى وكان فى ذلك الجيش حد الامة العربية فان عمر لم يدع رئيساً ولا ذا شرف ولا ذا رأى ولا ذا سلطة ولا خطيباً ولا شاعراً الارماهم بهم وجوه الناس وغررهم



المحاضرة الثانية والعشرون

تمـام القادسية — فتح المدائن

ثم امر سعداً بالمسير وقال اذا انتهيت الى زرود (١) فانزل بها فسار حتى اذا وصل الى زرود فنزل بها وتفرق الجنود فيما حولها من امواه بنى تميم واسد وانتظر اجتماع الناس وامر عمر وفى ذلك الوقت مات المثنى بن حارثة من جراحة كانت اصابته وقبل وفاته ارسل الى سعد وصيته لانه قد اختبر امر العجم قبله اوصاه ان يقاتل الفرس على حدود ارضهم على ادنى حجر من ارض العرب وادنى مدر من ارض العجم فان يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ماوراءهم وان تكن الاخرى فاؤا الى فئة ثم يكونون اعلم بسبيلهم واجرأ على ارضهم الى ان يرد الله الكرة لهم . ثم سار سعد من زرود حتى اتى شراف وفيها جاءه كتاب من عمر يقول فيه اذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس وعرف عليهم وامر على اجنادهم وعبهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم الى اصحابهم وواعدهم القادسية وا كتب الى بالذى يستقر عليه أمرهم ففعل سعد ماامر به فقدر الناس وعباهم بشراف وامر امراء الاجناد وعرف العراف فعرف على كل عشرة رجلا وامر على الرايات رجالا من اهل السابقة وعشر

(١) رمال بين الثعلبية والخزيمية على طريق الحاج الى الكوفة

الناس وأمر على الاعشار رجالا من الناس لهم وسائل في الاسلام وولى الحرب رجالا فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها فكان أمراء التعبية يلون الامير ويليهم أمراء الاعشار ثم أصحاب الرايات ثم القواد رؤس القبائل ولم يفصل سعد من شراف الا على تعبية وباذن عمر وهذا كتابه الذى أمره فيه بمبارحة شراف :

أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤودا لبحوره وفيوضه ودآدئه (١) الا أن توفقوا غيضا من فيض واذا لقيتم القوم أو أحدا منهم فابدءوهم الشد والضرب وإياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم الا أن تجادوهم واذا انتهيت الى القادسية والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهي أجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الاصل وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحه فانهم اذا أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم الذى يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فان أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الامانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبدا الا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وان تكن الاخرى كان الحجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها اجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح

«١» الدآديء ما اتسع من التلاع وهى مسايل الماء

عليهم ويرد لكم الكرة) وكتب اليه باليوم الذى يرتحل فيه من شراف فسار سعد على تعبيته والكتب بينه وبين عمر متواصلة

ثم جاءه كتاب آخر يقول له فيه — واكتب الى اين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم فانه قد منعنى من بعض مااردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر أمركم عليه فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأني انظر اليها واجعلنى من امركم على الجلية — فكتب اليه سعد بصفة البلدان القادسية بين الخندق (١) والعتيق وان ماعن يسار القادسية بحر أخضر فى جوف لاح (٢) الى الحيرة بين طريقين فأما احدهما فعلى الظهر واما الآخر فعلى شاطيء النهر يدعى الحضوض (٣) يطلع بمن سلكه على مابين الخورنق (٤) والحيرة ولن ماعن يمين القادسية الى الولجة فيض من فيض مياههم وان جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلى إلب لاهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا وان الذى اعدوا لمصادمتنا رستم في امثال له منهم فهم يحاولون انغاضنا واقحامنا ونحن نحاول انغاضهم وابرازهم وامر الله بعد ماض وقضاء مسلم الى ماقدر لنا وعلينا فنسأل الله خير القدر في عافية — فكتب اليه عمر يأمره بالمقام بالقادسية وكان مما

(١) خندق سابور فى برية الكوفة حفره سابور بينه و بين العرب خوفا من شرهم واوله من هيت يشق طف البادية الى كاظمة مما يلى البصرة و ينفذ الى البحر و بنى عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمالح ليكون مانعا لاهل البادية من السواد

(٢) ضيق (٣) نهر كان بين الحيرة والقادسية (٤) قصر كان بظاهر الحيرة بناه أحد ملوك العرب بالحيرة وهو النعمان بن امريء القيس شرقي الفرات وغربيه بساتين

حضه به على الوفاء بالامانة قوله لهانى قد التى في روعي انكم اذا اتقيتم العدو هزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فان لاعب احد منكم احداً من العجم بأمان اوقرفه بإشارة اولسان كان لايدرى الاعجمي ماكلمه به وكان عندهم اماناً فأجروا ذلك مجرى الامان واياكم والضحك الوفاء الوفاء فان الخطأ بالوفاء بقية وان الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم واقبال ريحهم واعلموا انى احذركم ان تكونوا شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم

كان الفرس قد اتفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذي يوجهونه لحرب المسلمين فرضي بذلك وقبل أن يفصل بجنوده بعث سعد دعاة الى الملك حسب أمر عمر فاختار من جنده قوماً عليهم نجار ولهم آراء ونفراً لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء فخرجوا من العسكر حتى جاؤا المدائن فاستأذنوا بالدخول على الملك فأذن لهم ومع يزدجردوزراؤه ووجوه ارضه فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه سلهم ماجاء بهم ومادعاهم الى غزونا والولوع ببلادنا أمن أجل انا أجممنا كم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فرد عليه النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد فذكر تاريخ ارسال الرسول وما كان من شأن العرب معه ودخولهم فى دينه وقال بعد ذلك ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فان أبيتم فالمناجزة فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا كم عليه على أن تحكموا باحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وان اتقيتمونا

بالجزاء قبلنا منكم ومنعنا لكم والاقتالنا لكم فقال يزدجرد اني لاأعلم في الارض أمة كانت أشقى ولاأقل عدداً ولاأسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفونتا اياكم لاتغزوكم فارس وتطمعون أن تقوموا لهم فان كان عدد لحق فلا يغرنكم منا وان كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتاً الى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فسكت القوم فقام المغيرة بن زرارة الأسيدى فقال ايها الملك ان هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم وهم اشراف وانما يكرم الاشراف الاشراف ويعظم حقوق الاشراف الاشراف ويفخم الاشراف الاشراف وليس كل ماأرسلوا به جمعوه لك ولا كل ماتكلمت به اجابوك عليه وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم الاذلك فجاوبني لأكون الذى ابلغك ويشهدون على ذلك . اماماذكرت من سوء الحال فما كان اسوأ حالا منا واما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع كنانأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنرى ذلك طعامنا واما المنازل فانماهي ظهر الارض ولانلبس الارض ولانلبس الاماغزلنا من اوبار الابل واشعار الغنم ديننا ان يقتل بعضنا بعضاً ويغير بعضنا على بعض وان كان احدنا ليدفن ابنته حية كراهية ان تأكل من طعامنا فكانت حالنا قبل اليوم على ماذكرت لك فبعث الله الينا رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه خير من ارضنا وحسبه خير من احسابنا وبيته اعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التى كان فيها اصدقنا واحلمنا فدعانا الى امر فلم يجبه احد اول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده فقال وقلنا وصدق وكذبنا وزاد ونقصنا فلم يقل شيئاً الا كان فقذف الله في قلوبنا التصديق

له واتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله وما امرنا
فهو امر الله فقال لنا ان ربكم يقول إني انا الله وحدى لاشريك لى كنت
اذ لم يكن شيء وكل شيء هالك الا وجهي وانا خلقت كل شيء وإلى يصير
كل شيء وإن رحمتي ادركتكم فبعثت اليكم هذا الرجل لادلكم على السبيل
التي بها انجيكم بعد الموت من عذابي ولاحلكم دارى دار السلام فنشهد عليه
انه جاء بالحق من عند الحق وقال من تابعكم على هـذا فله مالكم وعليه
ماعليكم ومن ابى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه انفسكم
ومن ابى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم فمن قتل منكم ادخلته جنتي ومن بقي منكم
اعقبته النصر على من ناوأه فاختر ان شئت الجزية عن يد وانت صاغر وان شئت
فالسيف او تسلم فتنجي نفسك فقال كسرى اتستقبلني بمثل هذا فقال ما استقبلت
الا من كلمني ولو كلمني غيرك لم استقبلك به فقال لولا ان الرسل لا تقتل
لقتلتكم لاشيء لكم عندى ثم قال ائتوني بوقر من تراب فاحملوه على اشرف
هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن ارجعوا الى صاحبكم فاعلموه اني
مرسل اليه رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية وينكل بكم وبه
من بعد ثم اورده بلادكم حتى اشغلكم في انفسكم بأشد مما نالكم ثم قال من
اشرفكم فقال عاصم بن عمرو انا فحملوه وقر التراب على عنقه فحمله حتى اتى
راحلته فحمله عليه ثم ساروا فأتوا بالتراب سعداً وبشروه بالظفر متفائلين.
فصل رستم من المدائن في تعبية كبرى وعدد جنده ١٢٠ الف عدا من تبعهم
وسارت طلائعه حتى اتت الحيرة فنزلت بها ثم سار رستم حتى اتى النجف
فعسكر بها والطلائع تسير امامه ولم نزل الجيشان يتقاربان حتى كان رستم

على العتيق وسعد أمامه وكانت بين الفريقين مراسلات قال المسلمون فيها لرستم كثيراً ومما قيل في مجلسه ماقاله المغيرة بن شعبة أحدالوفد فانه لما جاء جلس مع رستم على سريره فوثب عليه الفرس وأنزلوه فقال لهم كانت تبلغنا عنكم الاحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم إنامعشر العرب سواء لايستعبد بعضنا بعضاً الا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت انكم تواسون قومكم كما نتواسى وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الامر لايستقيم فيكم فلا نصنعه ولم آتكم ولكنكم دعوتموني اليوم فعلمت ان أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملكا لايقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول فقال السفلة صدق والله العربى وقالت الدهاقين لقد رمي بكلام لا نزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله أولينا ماكان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الامة

ثم اجمع رستم أمره على عبور العتيق فسكره ثم عبر هو وجنده وكان البريد بينه وبين المدائن متصلا بحيث تصل الاخبار الى يزدجرد ساعة حدوثها وكان سعد قد عبأ الجيش وانتظمت حماته ولم يكن سعد مع المقاتلين لانه لم يكن يستطيع أن يركب لحبوب كانت به فكان مقيما باعلى القصر يشرف على الناس ويرمي بالرقاع فيها الامر والنهى الى خالد بن عرفطة وهو أسفل منه وكان الصف بجنب القصر ثم قام فى الناس الخطباء يخطبونهم ويحثونهم على الصبر وكان وراء الفرس العتيق ووراء المسلمين الخندق وميدان الحرب بين ذلك وبعد أن أذن المؤذن بالظهر وأتموا صلاتهم كبر سعد تكبيراته الثلاث التى كانت آخرها علامة بدىء الحرب فبرز أهل النجدات فأنشبوا القتال وبرز غالب بن عبدالله الاسدى وهو يقول

قـد علمت واردة المسـائح ذات اللبان والبنان الواضح
أني سمام البطل المشايح وفارج الامر المهم الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين إذ تغشاه الذهب
أني امرؤ لا من يعنيه السبب مثلى على مثلك يغريه العتب

ثم كبر سعد التـكبيرة الرابعة وهي علامة الهجوم العام فزحفت الجنود واصطدمت صدمة هائلة وكان مما صعب الامر على المسلمين فيلة الفرس فانها لما حمل أصحابها خافتها الخيل فتفرقت فكادت بجيلة أن تؤكل حين فرت عنها خيلها نفاراً فأعانهم سعد ببني أسد وكان لهم في ذلك أعظم فخر ولرئيسهم طليحة الاسدى ولم يكن للمسلمين حيلة في الفيلة هذا اليوم الا أن أعـدوا رماة النبل يرمون ركبان الفيلة ولما أعريت الفيلة من ركبانها عادت الى مواقفها فنفس عن بني أسد بعد الجهد الشديد فقد أصيب منهم خمسمئة رجل وجالت المجنبات جولة خفيفة ولم يزل القتـال إلى أن مضى جزء من الليل وكان النجاح أظهر في صفوف الفرس في هـذا اليوم ويسمى يوم ارماث

وفي اليوم الثاني نقلوا القتلى والجرحى من الميدان فأما القتلى فدفنوهم وأما الجرحى فأسلموهم إلى النساء يداوينهم وقبل الالتحام جاءت جنود خالد التي أمر عمر أباعبيدة أن يصرفها الى العراق وأميرها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فقوى بها المسلمون وكانوا قد جاءوا بالابل وجللوها وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب وأطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس من هذه الابل فى اليوم الثاني ما لقيت جنود المسلمين من الفيلة فى اليوم الاول

ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً الى نصف الليل ويسمى هذا اليوم يوم اغواث وكانت كفة المسلمين فيه ارجح

وفى اليوم الثالث نقلت القتلى والجرحى ثم اصطدمت الجنود على حنق وفيلة الفرس تفعل فعلها فى الخيول فانتدب لا كبرها رجلان من اصحاب النجدة فوضعا رمحيهما فى عينى الفيل ونفض رأسه فطرح سائسه وولى مشفره فنفحه احدهما بالسيف فرمي به ووقع لجنبه ثم فعلا مثل ذلك بفيل آخر فولى فوثب فى العتيق فتبعته الفيلة فخرقت صفوف الفرس وكان ذلك مما اضعف قوتهم وقوى المسلمين ومازال القتال مشتداً حتى جاء الليل فلم ينفصل الفريقان وخشعت اصوات الناس فلم يكن يسمع الا صليل السيوف وهرير الفرسان ورأى العرب والعجم امراً لم يروا مثله ومازال القتال مشتداً حتى اصبحوا والناس حسرى لم يغمضوا ليلتهم فسار القعقاع فى الناس يقول لهم ان الدبرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة فقام قائم الظهيرة حتى انهزمت مجنبتا الفرس وانفرج القلب وكانت همة اصحاب النجدة موجهة إلى سرادق رستم فلما رأى ذلك اراد الهرب فتبعه هلال بن علفة حتى قبض عليه وقتله وصعد على سريره ثم نادى قتلت رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتندوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام وتتابعت الهزيمة واخذوا الراية الفارسية وهي درفش كابيان ثم تتبعوا بقية المنهزمين حتى اجلوهم الى ماوراء القنطرة وكان اليوم الثالث من ايام القادسية يسمى يوم عماس وليلته تسمى ليلة الهرير ولم يمر على المسلمين موقعة اشد منها هولا لامع الفرس ولا مع غيرهم قتل منهم فيها نحو ثمانية آلاف فارس ومن الفرس نحو ثلاثين الفا

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر هـذا الكتاب (أما بعد فان الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم الى المسلمين واتبعهم المسلمون على الانهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء وفلان وفلان ورجال من المسلمين لانعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لايشبههم الاسود ولم يفضل من مضى منهم من بقي الا بفضل الشهادة اذ لم يكتب لهم) :

كان عمر مشغول القلب جداً بأمر القادسية فكان في كل يوم يخرج متنسما أخبارهم من حين يصبح الى انتصاف النهار فيرجع الى أهله ومنزله وفي اليوم الذى ورد فيه البشير لقيه عمر فسأله من أين فأخبره فقال ياعبد الله حدثني قال هزم الله العدو وعمر يجرى وراءه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فاذا الناس يسلمون عليه بأمرة المؤمنين فقال الرجل فهلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين وعمر يقول لاعليك ياأخي فقرىء كتاب الفتح على الناس ثم ورد عليه كتاب آخر من سعد يقول فيه (ان أقواماً من أهل السواد ادعوا عهوداً ولم يقم على عهد أهل الايام لنا ولم يف به أحد علمناه الا أهل بانقيا وبسما وأهل أليس الآخرة وادعى أهل السواد أن فارساً أكرهوهم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا في الارض) ثم كتاب آخر يقول فيه (ان أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يجلب علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا أن أهل السواد قد

لحقوا بالمدائن فأحدث الينا فيمن تم وفيمن جلاوفيمن ادعي أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل أو استسلم فانا في ارض رغيبة والارض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وان أعمر لها وأوهن لعدونا تألفهم) فقام عمر فى الناس واستشارهم فيما طلبه سعد فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكف لم يزده غلبه إلا خيراً وان من ادعى فصدق أو وفى فبمنزلتهم وان كذب نبذ اليهم وأعادوا صلحهم وأن يجعل امر من جلا اليهم فان شاءوا دعوهم وكانوا لهم ذمة وان شاءوا تموا على منعهم من ارضهم ولم يعطوهم الاالقتال وان يخيروا من اقام واستسلم الجزاء او الجلاء وكذلك الفلاح — فكتب عمر جوب الكتاب الاول يقول

(اما بعد فان الله جل وعلا أنزل فى كل شئ رخصة فى بعض الحالات لافى أمرين العدل فى السيرة والذكر فاما الذكر فلا رخصة فيه فى حالة ولم يرض منه إلا بالكثير وأما العدل فلا رخصة فيه فى قريب ولا بعيد ولا فى شدة ولا رخاء وان رؤى لينا فهو أقوى وأطفا للجور وأقمع للباطل من الجور وان رؤي شديداً فهو انكش للكفر فمن تم على عهده من اهل السواد ولم يعن عليكم بشئ فلهم الذمة وعليهم الجزية واما من ادعي انه استكره ممن لم يخالفهم اليكم او يذهب فى الارض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك الا ان تشاءوا وان لم تشاءوا فانبذ اليهم وابلغوهم مأمنهم وكتب جواب الكتاب الثاني

(اما من اقام ولم يجل وليس لهم عهد فلهم مالاهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم اجابة وكذلك الفلاحون اذا فعلوا ذلك وكل من ادعى ذلك

وصدق فلهم الذمةوان كذبوا انبذ اليهم : وأما من أعاز وجلا فذلك أمر جعله الله لكم فان شئتم فادعوهم الى أن يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وان كرهوا ذلك فاقسموا ماأفاء الله عليكم منهم) — فلماعادت كتب عمر عرضوا على من يليهم مما جلاوتنحى عن السواد أن يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم عهده الا أن خراجهم أثقل فانزلوا من أدعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم وأنزلوا من أقام منزلة ذى العهد وكذلك الفلاحون ولم يدخلوا في الصلح ماكان لآل كسرى ولاما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم الى واحدة من اثنتين الاسلام اوالجزاء وصارت فيئاً لمن أفاء الله عليه فهى والصوافي الاولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر السواد ذمة وأخذوهم بخراج كسرى وكان خراج كسرى على رءوس الرجال على مافي أيديهم من الحصة والاموال ـ ولم يتأت قسمة ما كان لآل كسرى ومن صوب معهم لانه كان متفرقا فى السواد فكان يليه لاهل الفيء من وثقوا به وترضوا عليه

كان عمر يتخوف أن يؤتى المسلمون من جهة الابلة لانهالم تكن فتحت بعد فتخير فصيلة من الجيش عليها عتبة بن غزاون ووجهها الى الابلة لتمنع امداد فارس من هذا الوجه فساروا حتى أتوا المربد مربد البصرة فنزلوا هناك واختطوا مدينة البصرة ونزل الجنـد منازلهم فيها ومن هناك فتحوا الابلة وهي مرفأ فارس على خليج عمان الموصل الى بحر الهند وكان فتحها في رجب من سنة ١٤ وصارت البصرة بعد ذلك مركزاً حربياعظيما تفصل منه الجنود لحرب فارس الاأنها لم يتم تمصيرها الاسنة ١٧ حينمامصرت الكوفة

أقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس ولينتظر أمر عمر ثم اجمعوا أمرهم على المسير الى قاعدة الملك فكان مما يلعب به الصبيان في العسكر وتلقيه النساء عليهم وهم على شاطيء العتيق أمر كان النساء يلعبن به في زرود وذي قار وتلك الامواه حين أمروا بالسير في جمادى الى القادسية وكان كلاما أبدن فيه كالاوابد من الشعر لانه ليس بين جمادى ورجب شيء

العجب كل العجب   بين جمادى ورجب
أمر قضاه قد وجب   يخبره من قدشجب
تحت غبار ولجب

ثم ان سعداً ارتحل وكان على مقدمته زهرة بن الحوية وكان معظم الجيش فرسانا مما غنموه من خيل الفرس ولقيتهم في سيرهم جنود فارسية ببرس وبها فل القادسية وبقايا رؤسائهم وفيهم الهرمزان فحاربهم حرباً غير طويلة ثم بلغهم أن الجنود قد تجمعت لهم ببابل على الفرزان فساروا اليهم وهزموهم في أسرع من لفت الرداء فتفرق رؤساء الفرس فسار الهرمزان نحو الاهواز وخرج الفرزان الى نهاوند وصعد الباقون الى المدائن وقطعوا الجسر . فاقام سعد ببابل أياما ثم سير المقدمة مع زهرة حتى وصل بهرسير وهي المدائن الدنيا على شاطيء دجله الغربي وتلاحقت به الجنود وفي مقام سعد على بهرسير راسلته الدهاقين راضين أن يدفعوا الجزية على أن يمنعهم المسلمون فرضي منهم سعد بذلك وصالحهم وحاصروا بهرسير شهرين ثم فتحوها بعد أن تركتها مقاتلة العدو وعبرت الى المدائن القصوى الشرقية فنزل سعد ببهرسير وأنزل بها الجند ثم دلهم أهل البلاد على مخاضة يعبرون منها الى

الجهة الشرقية لانه لم يكن مراكب يعبر عليها الناس فان الفرس كانوا قد ضموها الى الشاطيء الثانى وكان سعد قد أعد فصيلة تحمى الفراض حتى يعبر الجند ثم أمر بالعبور فعبر الجند كله خوضاً والذى جعل سعداً يسرع بذلك خوفه أن يزدجرد ينقل كل مافي المدائن من ذخائره فحمله ذلك على السرعة والمخاطرة ولما رأى أهل المدائن مايفعله المسلمون دهشوا ولم يكن منهم الا أن تركوا المدائن وخرج يزدجرد هاربا على وجهه وذهب بعياله الى حلوان أما أهالى المدائن فأقاموا بها راضين بالجزاء والذمة

نزل سعد القصر الابيض وهو يقول (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين) وصلى فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً وفيه تماثيل الجص رجال وخيل ولم يمتنع هو والمسلمون لذلك وتركوها على حالها وأتم سعد الصلاة يوم دخول المدائن لانه أراد المقام بها وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعت جماعة فى المدائن فى صفر سنة ١٦ ثم جمع سعد مافى خزائن كسرى من الاموال والغنائم وكان ذلك شيئاً كثيراً وأصاب الفارس من المغنم اثنى عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ومعهم من النجائب شيء كثير ثم قسم دور المدائن بين الناس وأوطنوها ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه ونحو ذلك وما كان يعجب العرب أن يقع اليهم ومما ارسله بساط ستون ذراعاً فى مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالانهار وخلال ذلك كالدير وفى حافاته كالارض المزروعة والارض المقبلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب وفوارة بالذهب والفضة

وأشباه ذك ولما ورد الخمس على عمر قسمه على مستحقيه ثم قال أشيروا على في هذا القطف فاجمع ملؤهم على أن قالوا قد جعلوا ذلك لك فر رأيك الا ماكان من على فانه قال ياأمير المؤمنين الامر كما قالوا ولم يبق الا التروية انك ان تقبله على هذا اليوم لم تعدم فى غد من يستحق به ماليس له فقطعه عمر بينهم

وصدر بعد ذلك امر عمر بولاية سعد بن ابى وقاص صلاة ماغلب عليه وحربه وولى النعمان وسويدا ابنى عمر بن مقرن الخراج الاول على ما سقت دجلة والثاني على ماسقى الفرات



المحاضرة الثالثة والعشرون

جلولاء ـ تمصير الكوفة والبصرة — فتح الجزيرة ـ الأهواز ـ غزو فارس من البحرين ـ فتح فارس — فتح نهاوند وما بعدها

واقعة جلولاء

لما انتهى فل الفرس الى جلولاء كانت هى مفترق طرقهم إلى آذربيجان والباب والى الجبال وفارس فتذامروا وقالوا ان افترقتم لم تجتمعوا أبداً وهذا مكان يفرق بيننا فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم فان كان لنا فهو الذى نريدوان كانت علينا كنا قد قضينا الذى علينا وأبلينا عذراً فحصنوا جلولاء واحتفروا الخندق حولها واجتمعوا هناك على مهران الرازى وأقام يزدجرد فى حلوان وصار يمدهم بالرجال والاموال فأقاموا فى خندقهم وأحاطوا به الحسك من الخشب الاطرقهم فأرسل سعد بالخبر الى عمر فأمره أن يسرح اليهم جيشاً أميره هاشم بن عتبة وعين أمراء تعبيته ففصل هاشم من المدائن فى صفر سنة ١٦ (مارس سنة ٦٣٧) في اثنى عشر ألفاً حتى نزل بجلولاء وحاصرها فكان الفرس يزاحفون المسلمين ثم يعودون إلى خندقهم ولما طال المطال صمم المسلمون على الهجوم عليهم في خندقهم واقتحامه فصادفوا في سبيل ذلك حربا هائلة كانوا يشبهونها بالحرب ليلة الهرير وانتهت بتغلب المسلمين على الخندق وكان بطل الهجوم القعقاع بن عمرو ولما رأى الفرس أن لا طاقة لهم

بمغالبة ذلك العدو الشديد أخذوا يمنة ويسرة هاربين وتركوا المدينة فاحتلها المسلمون ثم أمر هاشم القعقاع أن يتبع المنهزمين فتبعهم حتى وصل خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد بارح حلوان قاصدا الرى فسار القعقاع حتى أتى حلوان فاحتلها وأقام بها مرابطا لانها هى الثغر الذي يفصل بين السواد والجبل وكان من رأى عمر فى ذلك الوقت أن يقتصر على ما ملكوه من سواد العراق وقال في كتاب له لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لايخلصون الينا ولا نخلص اليهم حسبنا من الريف السواد واني آثرت سلامة المسلمين على الانفال

كان سعد قد أرسل حساب المغنم والفيء مع زياد وكان هو الذى يكتب للناس ويدونهم فلما قدموا على عمر كلم زياد عمر فيما جاء له ووصف له فقال له عمر هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل الذي كلمتنى به فقال والله ما على وجه الارض شخص أهيب فى صدرى منك فكيف لا أقوى على هذا من غيرك فقام زياد فى الناس بما أصابوا وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد فقال عمر هذا الخطيب المصقع فقال زياد هذه الجملة المأثورة (ان جندنا أطلقوا بالفعال لساننا) ثم كتب عمر لسعد باقرار الفلاحين على حالهم الا من حارب أوهرب منك الى عدوك فأدركته وأجر لهم ما أجريت للفلاحين قبلهم واذا كتبت اليك في قوم فأجروا أمثالهم مجراهم وأعطاهم الحرية في غير الفلاحين !! وأرسل سعد من المدائن فصيلة يقودها عبدالله بن المعتم لفتح تكريت حين بلغه تجمع الفرس بها وكان معهم فيها جمع كثير من العرب من اياد وتغلب والنمر فوصلت الفصيلة وقد خندق الفرس حول تكريت فحصرهم

أربعين يوماً تزاحفوا فيها أربعة وعشرين زحفاً في جميعها يظفر المسلمون وفي أثناء ذلك راسل ابن المعتم العرب لينضموا اليه فأجابوه الى ذلك وأسلموا فأعطاهم السلم وحينذاك قال لهم (اذا سمعتم تكبيرنا فكبروا) فأجابوه ثم أمر جنده بالهجوم على الخندق فهجموا معلنين التكبير فكبر العرب من تغلب وأياد والنمر فظن الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم فتبادروا الى الابواب التى عليها جنود ابن المعتم فأصيب منهم كثير من بين أيديهم ومن خلفهم وبعد الانتصار أعطوا الفلاحين من أقام منهم مثل ماأعطى غيرهم من قبلهم

وأرسلت من المدائن فصيلة أخرى يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبذان (١) فسار اليها وافتتحها عنوة وكان أهلها قد تطايروا إلى الجبال فدعاهم ضرار الى الرجوع بعد أن أمنهم فعادوا وأقام بها وخرجت فصيلة ثالثة لفتح قرقيساء (٢) يقودها عمر بن مالك فافتتح فى مسيره هيت (٣) وفتح قرقيساء عنوة وأقر أهلها على الجزاء

وبذلك صار السواد كله في يد المسلمين فهدوا طريقة ادارته وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال

---

(١) كورة بها عدة مدن منها اريوجان عن يمين حلوان للقاصد الى همذان

(٢) بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها الخابور فى الفرات فهى مثلث بين الخابور والفرات

(٣) بلد على الفرات من نواحى بغداد فوق الانبار مجاورة للبرية

تمصير الكوفة

كانت الرسل ترد على عمر بعد هذه الفتوح فيرى فى أوجهم تغيراً فقال عمر (والله ماهيئتكم بالهيئة التى أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وانهم لكما أبدءوا فما غيركم) قالوا وخومة البلاد فكتب الى سعد أخبرنى ما الذى غير ألوان العرب ولحومهم فكتب اليه سعدان العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة — فكتب اليه عمر أن العرب لا يوافقها الا ماوافق إبلها من البلدان فابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلا بريا بحريا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر : فبعث سعد سلمان وحذيفة يسيران غربي الفرات مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاث فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها وصليا ودعيا ثم كتبا إلى سعد بالخبر فأبلغه سعد عمر فأمره أن يسير بالجنود اليها فارسل سعد إلى امراء الثغور أن يستخلفوا على الثغور ويسيروا اليه ففعلوا فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة ١٧ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران وكان قد أبقى بالمدائن جنداً ممن رضى الاقامة بها وكان عمر يريد أن يقيموا معسكرين فى خيامهم ثم أذن لهم أن يبنوا بيوتاً من القصب فأصاب الكوفة حريق شديد فأذن عمر أن تبنى باللبن . جعل على بناء المدينة أبا الهياج بن مالك الاسدي وأوضح مناهجها وما يليها وأزقتها فجعل المناهج أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين وما بين ذلك عشرين والازقة سبع أذرع . وليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستين ذراعاً

فأول ماأسس بالمدينة مسجدها فاختطوه ثم قام في وسطه رام شديد النزع فرمى عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه ثم أمر بالبناء وراء مواقع السهام وبنى في مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان على أساطين رخام كانت للاكاسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية وبنوا لسعد بحياله داراً بينهما طريق منقب مئتى ذراع وجعل فيها بيوت الاموال والذى بناه له فارسى كبناية الأكاسرة في الحيرة وجعل المناهج تخرج من أمام المسجد والشكل الذي وضعت عليه الكوفة ينبيء عن نظام جميل لم يحجب عن العرب هواء البادية لكثرة المناهج واتساعها

وفي هذا العام نفسه بنيت الأبنية بالبصرة كما بنيت بالكوفة فهي وان نزلها المسلمون سنة ١٣ من الهجرة لم يتم تخطيطها وتأسيسها الا فى السنة التى اختطت فيها الكوفة ومن هنا نشأ اختلاف الناس فى الزمن التى مصرت فيه

وكانت ثغور الكوفة فى ذلك الزمن أربعة حلوان (١) وماسبذان وقرقيساء والموصل (٢) وأميرها سعد بن أبى وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص يعينه أمير المؤمنين

صارت الكوفة والبصرة من هذا التاريخ مركزين حربيين تفصل منهما الجنود لحرب العجم ولكل منهما جنود خاصة

---

(١) في آخر حدود السواد مما يلى الجبال من بغداد وكانت مدينة كبيرة عامرة

(٢) مدينة على طرف دجلة ومقابلة من الجانب الشرقى نينوى وهي من المدائن الاسلامية الكبرى

فتح الجزيرة (١)

فصلت من الكوفة ثلاث فصائل بأمر عمر احداها يقودها سهيل ابن عدى لفتح الرقة والثانية يقودها عبدالله بن عتبان لفتح نصيبين والثالثة يقودها عقبة بن الوليد لاخضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وأمر عمر ان كانت حرب أن يكون القائد العام عياض بن غنم وكان مقصد عمر من ذلك أن يكسر شوكة الروم الذين ثاروا من الجزيرة قاصدين أباعبيدة بحمص فلماتوجه الجنود الى كورهم تفرقوا كل الى كورته فكان فى ذلك تخفيفا على جنود الشام

فسار عياض حتى أتى الرها فصالحه أهلها على الجزية ثم حران فصالحت ثم فتحت نصيبين ثم أرمينية أما عرب الجزيرة فانهم لما رأو الطاب خفوا وتركوا أرضهم وأوغلوا في أرض الروم وبعد مراسلات بينهم وبين هؤلاء العرب قال المسلمون منهم لاتنفروا العرب بالخراج ولكن ضعفوا عليهم الصدقة التى تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء فانهم يغضبون من ذكر الجزاء فرضى عمر بذلك وبهذا قبل العرب أن يعودوا الى بلادهم ويقيموا بها على ماقبل منهم

---

(٣) ما بين دجلة والفرات من جهة الشام يسمي جزيرة أقور تشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن أمهات مدنها حران والرها والرقة ورأس عين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميافارقين والموصل وغير ذلك

فتح الاهواز (١)

كانت الاهواز تتاخم حدود البصرة وكان فيها الهرمزان وهو من سادات فارس وعظمائها وكان يغير على مايبد المسلمين فأراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير له جنداً فاستمد سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة أمده فخرجت جنود البصرة وأمدادهم من أهل الكوفة فالتقت بالهرمزان بين ذت ونهر تيرى فهزمته ودحرته حتى جاز شاطىء دجيل فصار شاطيء دجيل بين المسلمين والهرمزان

ثم كاتبهم الهرمزان في الصلح فصالحوه على الاهواز كلها ومهرجان قذق (٢) ماعدا ماأخذوه عنوة وجعلوا مناذر ونهر تيرى مساحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطين : ثم حصل بين رؤساء القوة المرابطة خلاف في حدود الارضين وقد دعا ذلك الهرمزان الى نقض الصلح والاستعانة بالاكراد فابلغ عتبة أمير البصرة بذلك فأبلغ الأمر عمر فأمر بتسيير الجنود لحرب الهرمزان وأرسل لهم امداداً فسارت الجنود الى الهرمزان وحاربوه عند جسر سوق الاهواز وهزموه فتوجه إلى رامهرمز وبذلك اتسق للمسلمين جميع الاهواز إلى تستر فراسلهم الهرمزان في الصلح مرة ثانية فاجابوه الى الصلح على مالم يفتحوه عنوة وكان عمر يتخوف أن يكون هذا النقض من

---

(١) مجموع كور عدها ياقوت عشرا وهي سوق الاهواز ورامهرمز وايذج وعسكر مكرم وتستر وجندى سابور وسوس وسرق ونهر تيرى ومناذر

(٢) كورة واسعة ذت مدن وقرى قرب الصيمرة من نواحى الجبال عن يمين القاصد من حلوان العراق الي همذان في تلك الجبال

الهرمزان لمظلمة لحقت أهل الذمة فطلب من عتبة أن يرسل اليه وفداً فيه عشرة من وجهاء الكوفة فارسل عشرة فيهم الاحنف بن قيس فلماقدم على عمر قال له انك عندى لمصدق وقد رأيتك رجلا فاخبرني أان ظلمت الذمة ألمظلمة نفروا ام لغير ذلك فقال الاحنف لا بل لغير مظلمة والناس على ماتحب قال فنعم اذا انصرفوا الى رحالكم فانصرفوا وكتب إلى عتبة اعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا ان يدال عليكم لغدر يكون منكم او بغي فانكم انما ادركتم بالله ماادركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم فاوفوا بعهد الله وقوموا على امره يكن لكم عوناً وناصراً

غزو فارس من البحرين

كان العلاء بن الحضرمى أميراً على البحرين لعمر وكان العلاء يبارى سعد بن أبي وقاص فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل فلما ظفر سعد بالقادسية وازاح الاكاسرة وأخذ حدود ما يلى السواد سر العلاء أن يصنع شيئا في الاعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ما لسعد فندب أهل البحرين الى فارس فتسرعوا الى ذلك وفرقهم اجنادا فحملهم فى البحر بغير اذن عمر وكان عمر لا يأذن لاحد فى ركوب البحر غازياً فعبرت تلك الجنود فخرجوا في اصطخر (١) وبازائهم اهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقاتلوا أهل

(١) مدينة كبيرة بفارس وهي قاعدة كورة مسماة بهذا الاسم وكانت قصبة ملك فارس حتى تحول اردشير الى جور

فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لانه قد حيل بينهم وبين الرجوع الى البحرين فوجدوا شهرك الفارسى قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا فى موطنهم وامتنعوا

بلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل اليه يعزله وأمره باثقل الاشياء عليه وأبغض الوجوه اليه بتأمير سعد عليه وقال له الحق بسعد فيمن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد. كتب عمر الى عتبة بن غزوان أمير البصره أن يسير جنداً لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسير فأجابه جمع من ذوى النجدة فخرجوا فى اثنى عشر الفا وعليهم ابو سبرة بن أبى رهم فساحل بالناس لا يلقاه أحد في طريقه حتى وافوا شهرك وهو آخذ علي جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه. خلصوا اخوانهم وهذه هى الغزوة التى شرفت بها ثابتة البصرة وكانوا افضل نوابت الامصار ثم انكفئوا بما أصابوا وذهب اهل البحرين عائدين الى بلادهم من طريق البصرة.

ولما أحرز عتبة الأهواز وذاك فارس استأذن عمر في الحج فأذن له فلما قضي حجه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن الى عمله فانصرف فمات في بطن نخله فدفن به وبلغ عمر خبره فمر به زائراً لقبره وقال انا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم وأثنى عليه بفضله وولى عمر بدله المغيرة ابن شعبة مفتتح سنة ١٨ هـ

فتح رامهرمز والسوس وتستر

لم يزل يزدجرد يثير أهل فارس (١) وهو بمرو فكتب اليهم يذكرهم

(١) فارس اسم لولاية واسعة وأقليم متسع اول حدودها من جهة العراق ارجان

الاحقاد ويؤنبهم على رضائهم بغلبة العرب على سوادهم فتحرك من مكاتباته أهل فارس والاهواز وتعاقدوا وتواثقوا على النصر فكتب أمراء الثغور الى عمر فكتب الى سعد أمير الكوفة يأمره أن يبعث الى الاهواز جنداً كثيفاً يقوده النعمان بن مقرن وأرسل الى أبي موسى الاشعرى وكان ولاه البصرة بعد عزل المغيرة أن يبعث جنداً الى الاهواز يقوده سهل بن عدي وأمير الجندين معاً أبو سبرة بن أبي رهم ففصلت جنود الكوفة مع النعمان حتى اذا وصلت رامهرمز وبها الهرمزان خرج يقاتلها فهزم دونها فترك رامهرمز والحق بتستر فاحتل النعمان رامهرمز ثم توجهت الجنود الى تستر وهناك توافقت جنود المصرين فحاصروا تستر اشهراً وقتل في الحصار جماعة من ذوى النجدة وزاحفهم المشركون مدة الحصار ثمانين زحفاً كانت الحرب فيها سجالا وفي آخر زحف هزمت الفرس حتى دخلوا خنادقهم ثم احتال المسلمون لدخول المدينة فدلوا على ثغرة فيها منها تدخل المياه إلى البلد فنهدوا إلى ذلك المكان ومنه هجموا على المدينة فدخلوها بعد جهاد عنيف فذهب الهرمزان إلى القلعة ولما رأى شدة الامر عليه نادى متبعيه وقال اضع يدى في أيديكم على حكم عمر يصنع بي كيف يشاء قالوا فلك ذلك واستاسر لهم فملك المسلمون بذلك تستر ؛ رسلوا الطلائع لاخذ ما أحاط بها من البلدان

ومن جهة كرمان السيرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران وأعظم مدنها شيراز وكورها المشهورة خمس ١ – اصطخر ٢ – اردشير خرة ٣ – دار ابجرد ٤ – سابور ٥ – قباد خرة

وأرسل ابو سبرة وفداً إلى عمر معهم الهرمزان فلماوصلوا الى المدينةدخلوا
على عمر وهو فى المسجد نائم ودرته معلقة في يده فقال الهرمزان اين عمر
فقالوا هو ذا فقال اين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب قال
فينبغي ان يكون نبياً قالوا بل يعمل عمل الانبياء فلما استيقظ عمر قالوا له
هذا ملك الاهواز قال له عمر كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله فقال
ياعمر انا وإياكم فى الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذلم يكن
معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا فقال عمر إنما غلبتمونا فى الجاهلية
باجتماعكم وتفرقنا ثم قال عمر ماعذرك وما حجتك فى انتقاضك مرة بعد أخرى
فقال أخاف أن تقتلنى قبل ان اخبرك قال لاتخف ذلك واستسقي ماء فاتي
به فى قدح غليظ فقال لومت عطشا لم استطع ان اشرب فى مثل هذا فاتى
به فى اناء يرضاه فجعلت يده ترتجف وقال اني اخاف ان اقتل وأنا اشرب
الماء فقال عمر لاباس عليك حتى تشربه فاكفاه فقال عمر اعيدوا عليه ولا تجمعوا
عليه القتل والعطش فقال لاحاجة لى فى الماء انما اردت ان استأمن به فقال
له عمر اني قاتلك قال قد امنتنى فقال عمر كذبت فقال أنس صدق ياامير
المؤمنين آمنته قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وقلت لا بأس عليك
حتى تشربه وقال له من حوله مثل ذلك فاقبل على الهرمزان وقال
خدعتنى والله لا انخدع الا لمسلم فاسلم ففرض له فى العطاء على الفين
وانزله المدينة.

ثم قال عمر للوفد لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور
لها ماينتقضون بكم فقالوا مانعلم الا وفاء وحسن ملكة قال فكيف هذا

فقال له الاحنف ياأمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاقتصار على مافي أيدينا وان ملك فارس حي بين أظهرهم وأنهم لايزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء الا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذي يبعثهم ولايزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعزأمته فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس: فقال عمر صدقتني والله وشرحت لى الامر عن حقه ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند: فكان ذلك مما جعل عمر يأذن بالانسياح

فتح نهاوند (١)

اجتمع بنهاوند من جنود الفرس من كل أنحائها جمعهم يزدجرد يريد اعادة الكرة بهم لاستعادة ملكه ونهاوند من بلاد الجبل(٢) جنوب همذان فكتب عمر الى النعمان بن مقرن يوليه محاربة المجتمعين بها وحشد اليه الجنود من البصرة والكوفة فلما وصلت اليها الجنود رأوا بها جمعاً عظيما متحصنا في حصون قوية ولا يخرجون الا إذا شاءوا فلما طال عليهم المطال جمع النعمان رجال النجدة والرأى في الحروب ممن معه وقال لهم قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن وانهم

(١) مدينة عظيمة فى قبلة همذان بينهما ثلاثة ايام ١٤ فرسخا وهى اعتق مدينة في الجبل (٢) بلاد الجبل علم على ما يسميه العجم ببلاد العراق وهى ما بين اصبهان الى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والري وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة قال ياقوت وتسمية هذا الجزء بالعراق غلط

لايخرجون الا أن يشاءوا وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق بالذى هم فيه فما الرأى فتكلم عمرو بن ثبي وكان أكبر الناس يومئذ سناً وكانوا انما يتكلمون على الاسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تحرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم فرد رأيه وتكلم عمرو بن معد يكرب مشيراً بمناهدتهم فقلوا انما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا وتكلم طليحة الاسدي فقال أرى أن تبعث خيلا تحدق بهم ثم يرمونهم لينشبوا القتال ويحمسوهم فاذا استحمسوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا الينا استطراداً فاننا لم نستطرد لهم فى طول ماقاتلناهم وانا اذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا فى هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا فجادونا وجاددناهم حتى يقضى الله فيهم وفينا ماأحب فقبل منه رأيه وامر النعمان القعقاع أن ينشب القتال ففعل وتم ذلك الترتيب الحربى المتفق عليه فخرجت الفرس يتبعونه وحينذاك أمر النعمان بالهجوم فاقتتلوا بالسيوف قتالا شديدا وفى أثناء الموقعة قتل النعمان رئيس الجند فأخفو موته واستلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان ولم يأت آخر النهار حتى تمت الهزيمة على الفرس واتبعت فصائل عليها القعقاع الفل الى همذان فدخلها المسلمون وملكوها وحينئذ جاؤهم رؤساء البلاد من الفرس وصالحوهم على همذان . أما نهاوند فان المسلمين دخلوها عقب الهزيمة واحتووا اما حولها وكانوا يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لانه لم يكن بعده كبير حرب ولما جاء البريد الى عمر بالفتح وباستشهاد النعمان بكي عليه بكاء شديداً

وبعد انتهاء هذه الموقعة أذن عمر بالانسياح في بلاد الفرس كما أشار

عليه بذلك الاحنف بن قيس فعين رؤساء الجنود التى تذهب لافتتاح البلاد وأرسل بالالوية الي أصحابها وهم :

(١) الاحنف بن قيس التميمي ووجه الى خراسان

(٢) مجاشع بن مسعود السلمى ووجه الى أردشير خرة وسابور

(٣) عثمان بن أبي العاص الثقفى ووجه الى اصطخر

(٤) سارية بن زنيم الكنانى ووجه الى فساود رابجرد

(٥) سهيل بن عدى ووجه الى كرامان

(٦) عاصم بن عمرو ووجه الى سجستان

(٧) الحكم بن عمير التغلبي ووجه الى مكران

فاستعدت الجنود للخروج الى أوجهها مفتتح سنة ١٨ هـ

فتح اصبهان(١)

سار عبد الله بن عبد الله بن عتبة بجنده نحو أصبهان وقاعدتها جي والملك بها الفاذوسفان فلما التقت الفئتان قال الفاذوسفان لعبد الله لاتقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لي فان قتلتك رجع أصحابك وان قتلتني سالمك أصحابي وان كان أصحابي لا يقع لهم نشابة فبرز له عبد الله وقال اما ان تحمل علي واما ان احمل عليك فقال احمل فوقف له عبد الله وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فاصاب قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام وزال اللبد والسرج وعبد الله على الفرس فوقع عبدالله قائما ثم استوى على الفرس عريا وقال له اثبت فقال الفاذوسفان ما أحب أن أقاتلك فقدرأيتك

---

(١) اقليم من نواحي الجبل كان قاعدته جيا ثم صارت اليهودية

رجلا كاملا ولكن ارجع معك الى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة اليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجرى من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه قال لكم ذلك فرضى أهل جيّ بالصلح الا ثلاثين رجلا منهم خالفوا قومهم وتجمعوا فالحقوا بكرمان في حاشيتهم لجمع كان بها ودخل المسلمون جي واغتبط من الفرس من أقام وندم من شخص ثم استخلف عبدالله بجي خليفة له وسار حسب أمر عمر إلى كرمان لمساعدة سهيل بن عدي

فتح أذربيجان (١)

بينا نعيم بن مقرن في همذان اذ بلغه تجمع الفرس واحتشادهم في واج روذ بين همذان وقزوين فسار اليهم وقاتلهم في ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة

فتح الرى (٢)

بعد أن انتهى نعيم من واج الروذ سار الى الرى فصالحه أهلها بعد أن قهرهم وكان المصالح عنهم رأسهم الزينبي بن قوله وكتب لهم كتاب صلح ثم وجه أخاه سويد بن مقرن الى قومس فسار اليها وأخذها سلماً ومن هناك كاتبه ملك جراجان(٣) بالصلح فصالحه وكتب له كتاب صلح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان

(١) صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من برذعة مشرقا الى ارزنجان مغربا ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديلم وقصبتها تبريز وكانت قبل مدينة المراغة (٢) قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخا والى قزوين ٢٧ فرسخا وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال في النسب اليها رازي

(٣) مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان

فتح الباب (١)

كان قائد الجيش الذى وجه الى الباب سراقة بن عمرو وعلى مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة فلما أطل عبد الرحمن على الباب كاتبه ملكها شهربراز مستأمناً ليأتيه فأمنه عبد الرحمن فجاءه الملك وقال له اني بازاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون الى أحساب ولا ينبغى لذى الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الاحساب والاصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبج في شيء ولا من الأرمن وانكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدى مع أيديكم وصغوى معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم فقال عبد الرحمن فوقى رجل قد أظلك فسر اليه فجوزه فسار الى سراقة فلقيه بمثل ما كلم عبد الرحمن فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا مادام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء الا أن يستنفر فتوضع عنهم جزاء تلك السنة وكتب بذلك سراقة إلى عمر فاجازه وحسنه وكان في كتاب صلحهم الامان لانفسهم وأموالهم وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أولم ينب رآه الوالى صلاحاً على أن يوضع الجزاء عمن اجاب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عوض من جزائهم ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملا فان حشروا وضع ذلك عنهم وان تركوا أخذوا به — وهذه سنة حسنة

---

(٤) مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر الخزر) وهى ثغر عظيم

في عهد عمر بن الخطاب فليست الاستعانة بالمخالفين في الدين من أهل الشرك ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة

فتح خراسان (١)

كان يزدجر قد سار الى خراسان فأقام بمرو ونقل نار فارس اليها واطمأن فى نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب من مرو من بقى من الاعاجم فيما لم يفتحه المسلمون فدانوا له فوجه اليه الاحنف بن قيس فدخل خراسان من الطبسين فافتتح هراة عنوة ثم سار نحو مرو الشاهجان فخرج منها يزدجرد الى مرو الروذ وكتب الى خاقان ملك الترك يستمده والى ملك الصغد وملك الصين أما الاحنف فاتجه الى مرو الروذ حتى اذا بلغ ذلك يزدجرد سار عنها الى بلخ فنزل الاحنف على مرو ووجه فصيلة من الجند نحو بلخ وتبعهم الاحنف حتى اذا التقى الجندان انهزم يزدجرد وعبر بمن معه في أهل فارس فعاد الاحنف الى مرو فنزلها وكتب اليه عمر ينهاه عن عبور النهر وأن يقتصر على مابيده : ولما عبر يزدجرد النهر اتته جنود مدداً من ملوك الترك والصغد فعاد بهم يريد أخذ مرو من الاحنف فخرج اليه الاحنف لما أحس به فلم يكن من الترك كبير حرب بل عادوا إلى بلادهم تاركين يزدجرد ولما رأى ذلك ترك البلاد ثانية وعبر النهر أما أهل خراسان فانهم تعاقدوا مع الاحنف وتراجعوا الى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا زمن الا كاسرة فكانوا كأنهم في ملكهم الا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل فاغتبطوا

---

(١) بلاد واسعة فى شرق البلاد الفارسية وقصبتها مرو وبها نيسابور وهراة وبلخ وطالقان وسرخس وغير ذلك من المدن التى دونها نهر جيحون

ثم وجه سراقة فصائل للجبال المحيطة بارمينية موقان وتفليس وجبال اللان

فتوح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد توج فتحها سارية بن زنيم الدؤلى ثم فتح فساودارابجرد وفتح عثمان بن أبي العاص اصطخر. وفتح سهيل بن عدى كرمان . وفتح عاصم بن عمرو سجستان . وفتح الحكم بن عمرو التغلبي مكران.

ومما يستظرف من الاخبار حديث قيس بن سلمة الاشجعى فان عمر ولاه قيادة جيش لمقاتلة الاكراد فسار اليهم وهزمهم ولما قسم عليهم النفل رأى شيئاً من حلية فقال ان هذا لا يبلغ فيكم شيئاً فتطيب أنفسكم أن نبعث به الى أمير المؤمنين فان له بردا ومؤنة قالوا نعم قد طابت أنفسنا فجعل تلك الحلية في سفط ثم بعث برجل من قومه ليوصل ذاك الى عمر قال الرسول فأتيت المدينة فاذا عمر يغدى الناس متكئا على عصا كما يصنع الراعي وهو يدور على القصاع فلما دفعت اليه قال اجلس فجلست في أدنى الناس فاذا طعام فيه خشونة طعامي الذى معى أطيب منه فلما فرغ الناس قال يا يرفأ ارفع قصاعك ثم أدبر فاتبعه فدخل دارا ثم دخل حجرة فاستأذنت وسلمت فأذن لى فدخلت عليه فاذا هو جالس على مسح متكيء على وسادتين من أدم محشوتين ليفا فنبذ الى باحداهما فجلست عليها واذا بهو في صفة فيها بيت عليه ستير فقال يا أم كلثوم غداءنا فأخرجت اليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق فقال يا أم كلثوم الا تخرجين الينا تأكلين معنا من هذا فقالت اني أسمع عندك

حس رجل قال نعم ولا أراه من أهـل البلد قالت لو أردت أن أخرج الى الرجال لـكسوتني كما كسـا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته قال أو مايكفيك أن يقال أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ثم قال كل فلو كانت راضية لاطعمتك أطيب من هذا قال فأكلت قليلا وطعامي الذي معي أطيب منه وأكل فما رأيت أحداً أحسن أكلا منـه مايتلبس طعامه بيـده ولا فمه ثم قال اسقونا فجاءوا بعس من سلت فقال اعط الرجل قال فشربت قليلا ثم أخذه فشرب حتى قرع القدح جبهته فقلت حاجتي ياأمير المؤمنين أنا رسول سلمة بن قيس قال مرحباً بسلمة بن قيس ورسوله حدثني عن المهاجرين كيف هم قلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم قال كيف اللحم فيهم فانها شجرة العرب ولا تصلح العرب الا بشجرتها قلت البقرة بكذا والشاة بكذا ثم أدى اليه رسالته وأخبره خـبر الحلية التي اختصه بهـا سلمة فلما نظر الى فصوصها وثب ثم جعل يده في خاصرته ثم قال لاأشبع الله اذا بطن عمر ثم قال ما جئت به أم والله لئن تفرق المسلمون في مشاتيهم قبـل أن يقسم هذا فيهم لافعلن بك وبصاحبك الفاقرة قال فارتحلت حتى أتيت سلمة فقلت مابارك الله فيما اختصصتني به اقسم هـذا في الناس قبـل أن يصيبني واياك فاقرة فقسمه فيهم

ولست في حاجة الى أن أنبهكم الى مايؤخـذ من هذه الحـادثة فهي تبين لكم كيف كانت المرأة فيهم فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأى الأعلى في بيت أمير المؤمنين وكانت المرأة تتكلم في شأن نفسها كما يتـكلم أعظم في

الرجال نفساً ثم تبين كيف كان عمر يتنزه عن أموال المسلمين فهذه الحلية شيء قد طابت به أنفسهم ومع ذلك لم يرض الا أن يردها عليهم فكيف لاتكون قلوبهم بين يديه يصرفها كيف شاء وكيف أحب

والى هنا انتهى مانريد قصه عليكم من أمر الفرس وسقوط مملكتها نهائياً بين أيدى المسلمين فقد صار اليهم قطعة من الارض يحدها من الغرب نهر الفرات ومن الشرق نهرا جيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندى ومن الشمال بلاد إرمينية كل ذلك فى زمن لم يتجاوز سبع سنين كان النصر لهم فى جميع المواقع التى زاحفوا فيها أعداءهم وكان لهم اسم جميل عند عامة الفرس عرفوا بالوفاء فانهم لم يكونوا يتهاونون فى أمره كما كان يوصيهم خليفتهم دائما وعرفوا بالعدل فى حكمهم حتى شهد لهم بذلك أهل ذمتهم كبيرهم وصغيرهم الملك منهم والسوقة وسنفيض القول فيما كان لهم من الاخلاق والمدنية فى عهد عمر عند الفراغ مما كان فى أرض الروم

تم الجزء الاول ويليه الجزء الثاني



فهرست الجزء الاول

من محاضرات تاريخ الامم الاسلامية

صفحة

تمت فهرست الجزء الاول

تنبيه وقع خطا تكرار فى ترقيم صفحات الجزء الثانى فتكررت فى الصفحة ٢٢٥ الى الصفحة ٢٣٢ مع بقاء سياق الكلام على حاله فنوجه الى ذلك الأنظار



Bibliotheca Alexandrina
02444518